فهرس

صفحة

تراجم ودراسات

المراثى الشعرية





المجلد الأول

العدد الرابع

ابولو

مجلة فنية لخدمة الشعر العربي

لسان حال جمعية ابولو



تصدر مرة فى كل شهر

ديسمبر سنة ١٩٣٢







صاحب الامتياز ورئيس التحرير { أحمد زكى أبوشادى

الادارة { بشارع الملك المعز رقم ٩ بضاحية المطرية بمصر

التليفون { ١١٩٦ زيتون و ٤٠٤٥٦





عدد خاص

لذكرى المغفور له

احمد شوقي بك

رحمه



تمثال الفقيد

للمثال الاستاذ الحويك

أمير الشعراء
أحمد شوقي بك

يوسف أحمد — ١٣٥١ هجرية

فى سكونِ الليلِ ناح البلبلُ — وغداةَ الليلِ طاحَ الأملُ
وهوى صرحُ النهى بين الأنينْ — والشجنْ
فسرتْ لوعتُه مَسْرَى الحنينْ — فى البدنْ

ثكل الشعرُ — وخبا البدرُ
وبكتْ مصرُ — وجفا الصبرُ

وطوتْ (شوقى) المنونْ

الوداعَ المرَّ يا روحَ البيانْ — فى أسى الذكرى وتبريح الحنانْ
من نفوسٍ لاعَهَا فرطُ النحيبْ — فذوتْ
وقلوبٍ راعها حَرُّ الوجيبْ — وانتهتْ

نفذ الأمرُ — وعفا السحّرُ
ومضى العمرُ — فنبا الفكرُ

وجرى الدمعُ الهتّونْ

محمد فريد عبد القادر

تصدير

ليس أشقّ على الأديب من رثاء الأديب ، فما بالك بتأبين شاعر العربية الأشهر المغفور له أحمد شوقى بك الذى خسر عالم الأدب العربى بوفاته خسارة منقطعة النظير فى عصرنا بل فى عصور كثيرة .

وان من البرّ بالأدب الذى كان المغفور له شوقى بك رمزاً حيّاً له ومن البرّ برئاسته لجمعية أبولو أن نصدر هذا العدد الخاص من مجلتنا يوم حفلة التأبين الكبرى التى اشتركت الجمعية فى تنظيمها برعاية وزارة المعارف المصرية ، وما نرمى باصداره الى اكثر من انصاف هذا الرجل العظيم متجرّدين عن كلّ محاباة ، متقدّمين بهذا المجهود الصغير الى محراب التاريخ النزيه .

ولقد كُتب عن الفقيد فى حياته الكثير مما له ومما عليه فلا يعنينا تكرار شيء من ذلك لأن سجلاّته ميسورةٌ للنُّقّاد ولطلبة الأدب ، ولكن يعنينا هنا وفى مقام الذكرى الطيّبة أن ندوّن نماذج من تقدير الأدباء وشعورهم بهذه الفجيعة الأليمة تاركين لهم الحرية فى حدود اللياقة لتسطير عواطفهم وآرائهم ما دمنا لا نرمى الى غير الحقّ والانصاف ، بعيدين كلّ البعد عن مجاملة أسرة الفقيد حيثما لا تجوز المجاملة . وهو مبدأ حرصنا عليه مع الفقيد ذاته عمراً مديداً ، ونعتبر الحرص عليه الآن ألزم ما يكون حتى يمكن لدارس الأدب فى المستقبل أن يرجع الى هذه الصحائف مطمئناً .

ولقد تلقّينا العديد من المراثى الشعرية والمقالات فحرصنا على أن لا ننشر الا ما يتّفق والمستوى الفنى لهذه المجلة أو مايدانيه بقدر الاستطاعة سواء مما تلقيناه أو مما اطلعنا عليه ، وتخلّينا عما وجدناه بعيداً عن تصوير شخصية الفقيد أومواهبه أو مااشتممنا منه رائحة التحامل أكثر من روح التقدير ، ومع ذلك سمحنا بنشر مااعتبرناه ريئاً من ضروب النقد الأدبى. ولم نبح الكتابة المطلقه فى غير تقيّد ما ودون شرط الا لأخصّ آل الفقيد ولسكرتيره الأديب ولكنهم تحاشوا استغلال هذه الحرية .

ولا بدّ لنا من أن ننبّه الى أنّ هذا العدد ليس سوى تمهيد لدراسات متوالية

عن الفقيد العظيم ، كما أنّ هـذه المجلة لن تقصر فى توفية مثل هذه الذكرى لشاعر النيل المغفور له محمد حافظ ابراهيم بك إذا ما عاونها أصدقاؤه على ذلك .

ولا يسعنا الاَّ تقديم وافر الشكر الى اسرة الفقيد الكريم والى صحافتنا وعلى الاخصّ الى الصحافة المصوَّرة والى الشعراء والكتَّاب الأماجد الذين آزرونا فى اخراج هذا العدد ، وقد حلَّيناه بنخبٍ من شعر الفقيد غير المتداول أو الذى لم يسبق نشره الى جانب نشر قصيدته الوصفية البديعة عن هيكل أنس الوجود مع صورة فنية من ريشة الفنان المصرى البارع شعبان زكى . وغاية رجائنا أن يكون من هذا المجهود بعض العزاء للقلوب الحزينة الثاكلة التى مضَّها أن تشهد مصرع الفن والابداع والعبقريه الفذّة ، وتشتاق الى الاطمئنان الى خلود هـذا الروح العجيب الساحرِ الذى يطفئه ويخرسه الموت ، وأن تستفيد من عظة الموت البالغة أقصى ما يُستفاد من دروس الحياة والخلود :

فالعبقريةُ لامحلَّ لِكُنْهها ... أبداً ، وليس جلالها لفناء
كلُّ الجمال مطوَّعٌ لجمالها ... كلُّ الوجود يخصّها بدعاء
تَحْيَا وتفنىَ ، والحياةُ وضدُّها ... سيّانِ فى ملكوتها المتنائى

احمد زكى ابو شادى



حياة شوقي بقلمه

كتب المغفور له شوقى بك حياته بقلمه الى أن قطع العقد الثالث من عمره
وقد نُشرتْ فى الطبعة الاولى من « الشوقيات »



سمعتُ أبى رحمه الله يرد أسلنا الى الاكراد فالعرب ويقول إن والده قدم هـذه الديار يافعاً يحمل وَصاة من احمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد على باشا ، وكان جدى وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وانشاء فادخله الوالى فى معيته ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العاليـة ويتقلب فى المناصبِ السامية إلى أن اقامه سعيدباشا أميناً للجمارك المصرية . فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى فى سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم، وعشت فى ظله وانا واحده اسمع بما كان من سعة رزقه ولا أرانى فى ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقتات من فضلات الموتى .

ثم ذكر طرفاً من سيرة جده لوالدته ، إلى أن قال عن نفسه :

أنا إذن عربى ، تركى ، يونانى ، جركسى ، بجدتى لابى :أصول أربعة فى فرع مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل . الى أن يقول :

أما ولادتى فكانت بمصر القاهرة وأنا أحبو اليوم الى الثلاثين. حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد فقصَّ علىَّ حلماً رآه فى نومه فقلت له وأنا أمازحه : « ليولدنَّ لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً فى الاسلام » .

ثم اتفق أنى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الاهرام فابتدر خطابى يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقى ، فوالله ما قالها قبل فى الاسلام أحد ! قلت: وما تلك يامولاى؟ قال: قصيدتك فى وصف «البال» التى تقول فى مطلعها :

حفَّ كأسَها الحَبَبُ فهى فضـةٌ ذهَبُ

وها هى فى يدى اقرأها ! فاستعذت بالله وقلت : الحمد لله الذى جعل هـذه هى « الخرق » ولم يضر بى الاسلام فتيلاً .

أخذتنى جدتى لأمى من المهد وهى التى أرثيها فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى وكانت تحنو علىّ فوق حنوها وترى لى مخايل فى البر مرجوة. حدثتنى أنها دخلت بى على الخديو اسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعتُ على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به فقال لجدتى :إصنعى معه مثل هذا فانه لايلبث أن يعتاد النظر الى الارض! قالت:هذا دواء لايخرج إلا من صيدليتك يامولاى ! قال: جيئى إلىّ به متى شئت إنى آخرمن ينثر الذهب فى مصر ! ولا يزال هذا الارتجاج العصبي فى الابصار يعاودنى،وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هذا المصراع للمتنبي :

(محاجرُ مسكٍ ركّبتْ فوق زئبقِ)

ثم عرض لنشأته الدراسية فذكر أنه دخل مكتب الشيخ صالح فى الرابعة من عمره ، وأخيراً التحق بمدرسة الحقوق فوجد ممانعة من ناظرها بسبب صغر سنه ، ومكث بها سنتين ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين .

قال : وبينما أنا أتردد على المغفور له على باشا مبارك فى شأنٍ ورد عليه مرسوم من المعية بطلبي اليها فكان سروره بذلك أضعاف سرورى بالنعمة المفاجئة فذهبت الى السراى وهنالك استؤذن لى على المرحوم الخديو توفيق باشا . فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ولكن مدحته مراراً وأنا فى المدرسة خاطبنى بهذا اللفظ الشريف : « قرأت يا شوقى فى الجريدة الرسمية أنك أعطيت الشهادة النهائية وكنت أنتظر ذلك لأُلحقك بمعيتى، لكن ليس بها الآن محل خال، فهل لك فى الانتظار ريثما يهىء الله لك الخير » . فاستلمت أذيال العزيز وقبلتها ثم قلت: حسبي يا مولاى أنك قد ذكرتنى من تلقاء نفسك الشريفة، وأى خير يهىء الله لعبدك أفضل من هذا ؟ فأطرق هنيهة وقال: قد سمعت أن أباك عطل من الخدمة فأبلغه اننى ربما أدخلته فى عمل قبلك. ثم تهلل وأذن لى فى الانصراف .

لبثت فى المعية بضعة شهور انتظر فرجاً يأتى به الله. وكان المرحوم على باشا مبارك لم يقطع عنى الراتب إلى أن كان يوم كثر غيمه وتثاقل مطره فخرجت قبيل الأصيل



شوقى بك فى صباه

فى حاجة لى على حمار أبيض كان لوالدى وبينما أنا عائد الى منزلى أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز فى بهو السراى يشرف منه ، فنزلت عن الدابة أمشى كرامة للمليك المطل وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقينى خلف القصر ثم مشيت على الاقدام حتى إذا انتهيت من الميدان اعترضنى رسول من الأمير يدعونى اليه فوافيت حضرته وانا لا أعرف السبب ، وكان معه ساعتئذ المرحوم عبد الرحمن باشا رشدى فتحلى الحليم بصورة الغضب وقال : أليس لى أن أطل من بيتى حتى نزلت عن حمارك وألجأتنى إلى الانثناء ؟ قلت : عفواً يامولاى اهكذا أدبنا الأوئل حيث يقول شاعرهم :

وإذا المطىُّ بنا بلغنَ محمداً فظهورهنَّ على الرجالِ حرامُ

فتبسم ضاحكاً ثم قال : انكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم وهذا اليوم من أيامكم فاسمع للباشافان عنده لك فألاً ، فالتفت الباشا عندئذ إلىّ وقال: الآن أمرنى أفندينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشاً فى الخاصة الخديوية ، وأما أنت فتعين بعد شهر. ثم مد العزيز إلى يده فقبّلتها واجماً ، قد غلب علىّ السرور حتى أنسانى الشعر وكان ذلك وقته !

ثم عرض الفقيد لأول عهده فى وظيفته بالمعية السنية وكيف أراد له الخديو توفيق أن يدرس فى أوربا الآداب الفرنسية والحقوق وكان ينقد ستة عشر جنيهاً نصفها من الخاصة ونصفها من المعية وأعطاه يوم سفره مائة جنيه بعث بنصفها إلى مدير الارسالية ليهيء له جميع ما يحتاج اليه ، ووصف ركوبه البحر لأول مرة إلى مارسيليا على أن يقضى عامين فى مدينة « مونبليه » وعامين فى « باريس » . ولما انقضت السنة الأولى التمس من الخديو توفيق أن يأذن له فى الحضور إلى مصر فأبى عليه أمنيته وأوصاه أن يبقى أربع سنوات كاملة فى أوربا ، وأرسل اليه خمسين جنيها لينفقها فى رحلة يختارها إلى أى بلد سوى مصر، فتقبل دعوة رفاقه الفرنسيين إلى مدنهم المتفرقة فى الجنوب وقضى فيها شهرين ، ووصف ما رأى فى هذه الاقاليم الفرنسية من كرم ضيافة ، إلى أن يقول وصفاً للفلاح الفرنسى :

وعرفت الفلاح الفرنسى فى داره وكنت ألقاه فى مزرعته وأماشيه فى الاسواق فيخيل لى انه قد خلف العرب على قرى الضيف واكرام الجار ، وكان اعجب ما رأيت مدينة « كركسون » : وجدتها قسمين وألفيت القوم عليها صنفين فمنهم الباقون الى اليوم كما كان آباؤهم عليه فى القرون الوسطى ، بناؤهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق .

وبعد انتهائه من السنة الثانية سافر فى صحبة الطلاب المصريين ومدير الارسالية الى انجلترا على نفقة الخديو توفيق ومكث فى انجلترا شهراً ، ولم يلبث هو واخوانه أن سئموها . وفى السنة الثالثة أصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت وأشار عليه الاطباء أن يقضى أياماً تحت سماء أفريقية فوقع اختياره على الجزائر وكان دليله اليها أحد القضاة الفرنسيين الموظفين بها ، إلى أن يقول :

أما جوّ الجزائر فلا يعدله بين الجواء فى صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه الا جنوب فرنسا ، ولم أتأثر فيها كتأثرى من رؤية المصريين فى القهاوى البلدية إذ

أكثر أصحابها وغلمانها منهم ، إلى أن قال : ولا عيب فى الجزائر سوى أنها قد مُسخت مسخاً ، فقد عهدت مساح الاحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية ، وإذا خاطبته بها لم يجبك إلا بالفرنسية !



شوقى بك فى شبابه

وبعد أن أقام الفقيد فى الجزائر أربعين يوماً عاد إلى باريس وحصل على الشهاد النهائية. ورأى الخديو عباس أن يبقى ستة أشهر أخرى وعاد الى مصر بعد ذلك . وفى سنه ١٨٩٦م. انتدب لينوب عن مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف بسويسرا فأقام بها شهراً ثم رحل الى بلجيكا وزار المعرض الذى أقيم فى مدينة « أنفرس » ثم أصيب برمد فى عينيه فسافر الى الاستانه ومكث بها أربعين يوماً .

ويروى كيف سمى ديوانه «الشوقيات» فيذكر صلته وهو يطلب العلم فى باريس بالامير شكيب ارسلان وقد تمنى عليه أن يرى مجموعة شعره وأن يسميها «الشوقيات»، الى أن يقول :

كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات فكان لى عجبا أن وجدتُ بين أوراقه شيئاً كثيراً لى من مشتَّت منظومى ومنثورى ما نُشر منهما وما لم يُنشر ، قد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص ، والكل بخط يد المرحوم وقد لفه فى ورقة كتبتْ عليها هذه العبارة : «هذا ما تيسر لى جمعه من أقوال ولدى احمد وهو يطلب العلم فى أوربا فكنت كأنى أراه وإنى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لانه لا يجد بعدى من يعتنى بشؤونه وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب». فبينما أنا ذات يوم تعبٌ بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارنى صديقى مصطفى بك رفعت فحدثته حديثى فسألنى أن أعيره الاوراق أياماً ثم يعيدها الىّ ففعلت ثم لم يمض شهر حتى بعث بها إلىّ وإذا هى قد نُسِختْ بقلم سليم يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق إلا أن تدفع الى الطابع فاخذتها وبودى لو وفيتُ صديقى المشار اليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول فى نفسى لئن صدق أبى فى الاولى لقد ظلم فى الثانية فان الخير لايزال فى الناس .

ثم أورد كيف أسقط من شعره ما لا يحب نشره ووعد بنشر قصائده فى أجزاء متتالية .

***

إلى هنا انتهى ما كتبه الفقيد بقلمه عن حياته وكان قد بلغ فى ذلك الوقت ، وهو ما انقضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً ، قمة الشهرة فكان يدعى « أمير الشعراء » فى مصر وغيرها من أقطار العالم العربى ، ومازال الزمن يمضى به ومجده فى امارته يزداد تألقاً ، فان السنين التى قضاها شوقى بعد ذلك كانت حافلة بالعظائم إذ قضى حوالى خمسة عشر عاماً ينشر عيون القصائد فى شتى الأغراض السياسية والاجتماعية وتلقى قصائده من الجمهور فى مصر وغيرها الاعجاب والتقدير. ثم وقعت الحربُ العظمى وتغير وجهُ الحالة السياسية فى مصر وكان حظه من هذا التغيير أن نُفى الى الخارج وقضى من حياته فى المنفى نحو خمسة أعوام لم ينس فيها وطنه وأهله نخلد له ولهم وللتاريخ العربى اثارة من شعره لا تمحى على ذكر الدهور . فلما وضعت الحرب أوزارها عاد شوقى فيمن عادوا الى الوطن ونحا منذ هذا الحين بالشعر والأدب منحى جديداً غير ما كان ماضياً فيه بنفس الهمة والشغف الذى كان يحسه فى صباه وشبيبته، وما زال يعمل لهما حتى اللحظة الاخيرة من حياته .

شوقي الوالد

عزيزى الدكتور أبو شادى

طلبتَ الىّ أن أكتب الى مجلة « أبولو » كلمة عن والدى ، ولجمعية « أبولو » دين فى عنقى لن أنساه . لن أنسى ما حييتُ منظر أعضاء الجمعية يحملون نعشه ، فيا له من يوم ! ويا لها من ساعة ! أذهلنى فيها هذا النعش وهو يتهادى على مناكبكم ، كما كان يتهادى أبى فى حياته ، بين خلصائه وأصدقائه ! فلا يسعنى حيال ذلك إلاّ أن أُلبىّ دعوتك ، وأبعث الى « أبولو » بكلمة أعدّها ديناً أقضيه لوالدى أولاً ، ولجمعية « أبولو » ثانياً !

ماذا تطلب منى عن أبى ؟ . . . وفى أية ناحية من نواحى حياته ؟ . . . العبقرية ؟ النبوغ ؟ الخلود ؟ . . . لن أحدثك عن ذلك شيئاً . أدع ذلك للتاريخ ولمن يحسنون الكلام فيه . ولكنى أجمع لك فى كلمةٍ إحدى نواحيه الخلقية ، وكانت حائط بيتنا وعماد أسرتنا . . . واعفنى أيها الصديق من تفصيل ذكرياتٍ تهتاج فى قلبى لواعج الشجون !

كان أبى يغنى فى حبنا صغاراً ، ويلاعبنا ونلاعبه أطفالاً ثم . . . صادقنا وصادقناه شباناً ـ كان فى ذلك يلقى علينا الدرسَ الذى ألقاه عليه أبوه من قبل ، فكان من أثر ذلك ما قاله فيه يوم مات :

أنا منْ مات ومنْ مات أنا !	لقىَ الموتُ كلانا مرتينْ !
نحن كنا مهجةً فى بدن ،	ثم صرنا مهجةً فى بدنين !
ثم عدنا مهجة فى بدنٍ ،	ثم نُلقَى جثةً فى كفنين !
ثم نحيا فى « علىٍّ » بعدنا	وبها نبعث أُولى البعثتين . . !

* * *

ما أبى إلا أخٌ فارقتُــه	ودّه الصدقُ وودُّ الناس مين !
طالمـا قمنـا الى مائدةٍ ،	كانت الكسرةُ فيها كسرتين !
وشربنا من إناءٍ واحدٍ ،	وغسلنا بعد ذا فيه اليدين !
وتمشَّينا يدى فى يده ،	مَن رآنا قال عنـا أخوينْ !

* * *

رحم الله جدى ! رحم الله أبى !

على شوقى



احمد شوقي بك ونجلاه

في قصر الحمراء بالأندلس

أثنـــاء منفاه

قُبَيلَ المَنْفى

عند ما اعلنت الحرب الكبرى كنا مع والدى فى تركيا فبرحناها على الفور عائدين الى مصر إذ أن الاشاعات وقتئذ فى الاستانة كانت تدل على أن تركيا سوف تدخل فى الملحمة . . . ولكن الحال كان قد تبدل فى مصر ! كذلك نظام الحكم ، فصار يخشى لقاء والدى أصدقاؤه الذين كانوا بالأمس — فى أيام بأسه — لا يتركون له ساعة للراحة من كثرة طلباتهم وحاجاتهم حتى اضطر فى أواخر أيام حكم سمو الخديو السابق الى أن يفتح لنفسه غير الباب العمومى باباً صغيراً متوارياً فى الحديقة ليفر منه ! وقد ذكر لنا أن صديقاً حميماً له شهده — بعد عودته من الاستانة — سائراً فى الطريق فانتقل هذا الصديق الى الرصيف المقابل حتى لا يتهم بمصافحته أحد رجال النظام القديم! لذلك كم قابل والدى بارتياح حكم السلطة العسكرية فى ذلك الوقت حينما كلفته بمغادرة مصر لينجو من الدسائس ولا يتألم بمثل هذه المشاهد ، وهو الشاعر الشديد التأثر والاحساس ، وقد أشار الى ذلك فى قصيدته البائية التى نظمها بعد عودته من المنفى حيث قال :

وداعاً أرضَ أندلسٍ وهذا	ثنائى إنْ رضيتِ به ثوابَا
شكرتُ الفلكَ يومَ حويتِ رحلى	فيا لمفارقٍ شكر الغرابا!
فأنتِ أرحتنى من كل أنفٍ	كأنفِ الميت فى النزع انتصابا !
ومنظرِ كلِّ خوّانٍ يرانى	بوجهٍ كالبغىِّ رمى النقابا !

وأرى أن هذه الظاهرة التى لفتَ نظرى اليها والدى فى صغرى ما تزال باقية بل تغلغلت الى حدٍّ مؤلم وربما كانت مصر هى البلد الوحيد الذى يقبل الناس فيه بعضُهم على بعض بنسبة المنفعة التى يستطيعون أن يحصلوا عليها ؟

حسين شوقى





احمد شوقى بك

فى كهولته

اليوم الأخير

(عن صحيفة الجهاد)



استقبل « شوقى » يوم الخميس ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٢ كما كان يستقبل أمثاله من الايام ، وما درى أن شمس هذا النهار لن تطلع عليه مرة أخرى إلا وهو فى جوار ربه ، وقد رآه أصدقاؤه كما كانوا يرونه فى أيامه السالفة نشيطاً حلو البادرة وإن كانت السنون والاحداث قد أعيته باعبائها فبدا شاحباً كثير التحوط والتخوف. وقد تناول طعام غذائه واستراح متمدداً على كرسيه الى وقت الأصيل فاستقل سيارته للتنزه على سُنته وبرفقته وكيل أعماله وكاتب شعره الذى يلازمه فى السنتين الاخيرتين فى غدواته وروحاته . وقد طاب له ارتياد الاماكن الخلوية ، فما زالت السيارة تسير به الى ان وصلت طريق السويس فى صحراء مصر الجديدة فرأى أن يترجل مستنشقاً للهواء الطلق .

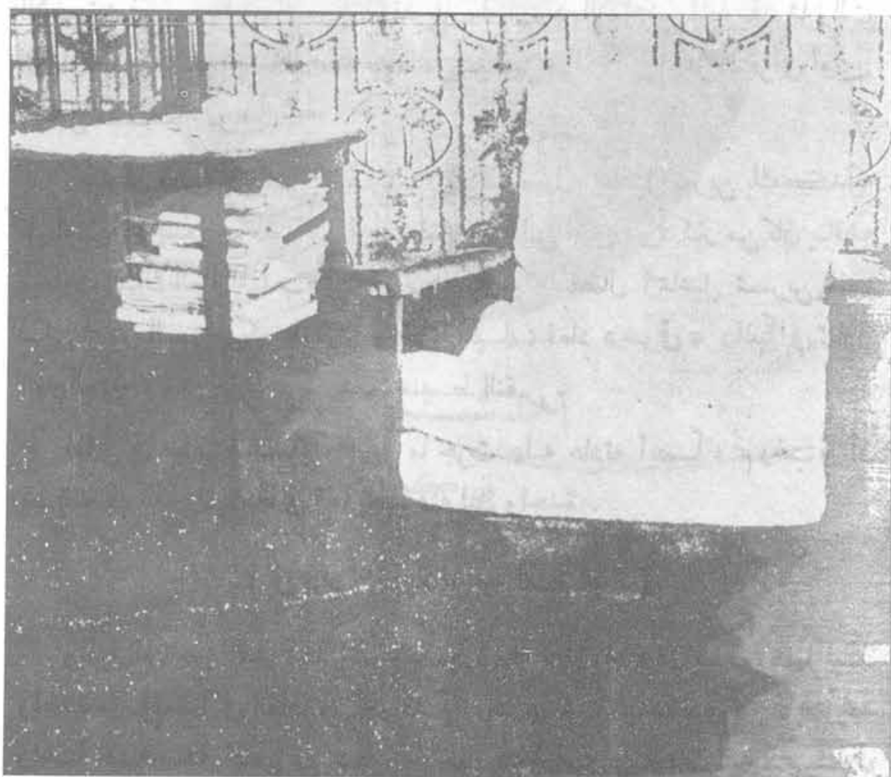
وبعد أن قضى أربه من النزهة ، عاد قاصداً منزل اسماعيل شرين بك كدأبه كل أمسية إذ يسمر مع نخبة من كرام القوم فى مجلس أنيق ، وأكثر من كان يناقشه ويحاوره هناك العالم المهذب فؤاد سليم بك والسيد المفضال اسماعيل شرين بك ، لكن مجلس السمر لم يكن منعقداً فى تلك الليله ، فعاد « شوقى » راغباً فى تناول طعام العشاء ، وهو منشرح الصدر ، منبسط النفس .

تعشى فى مطعم (سلستينو) على ما جرت عليه عادته أيضاً ، ثم رغب فى أن يتم بقية البرنامج الليلى الذى قلما يحيد عنه ليلة واحدة .

(فى دار « الجهاد » — ليلة الوفاة)

وبقية البرنامج الذى أخذ نفسه به زيارة دار « الجهاد » فلم ينقطع عنها ليلة واحدة ما دام مقيماً فى القاهرة بل هو قد يكررها فى الليلة الواحدة ، وهو لا يفتأ يجد راحة نفسه ساعة يجلس فى حجرة صاحب « الجهاد » ويتحدث اليه ، ثم يتناول قهوته ويستقل سيارته فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فيأوى الى فراشه .

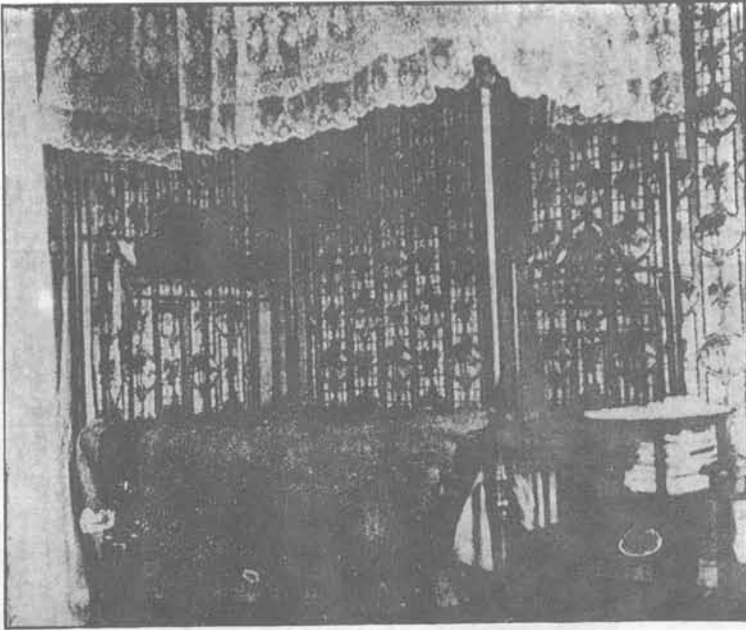
وصل دار « الجهاد » حوالى الساعة العاشرة من مساء الخميس، ولما رأى حجرة صاحب « الجهاد » تموج بالزائرين تلك الليلة رغب فى التحول الى حجرة سكرتيرية التحرير فجلس هناك . وفطن صاحب « الجهاد » الى جلوس « شوقى » فى الحجرة المجاورة فاستأذن من زوّاره وانتقل الى حيث يجلس « شوقى » وجعل يحييه ويسأله عن صحته فيحمد الله عليها ، ثم بدا « لشوقى » أن يدخن سيجارة وأن يقدم أخرى لصاحب « الجهاد » وجلسا يدخنان . وحانت التفاتة من صاحب « الجهاد » فلمح « شوقى » يعالج سعلة خفيفة فاستفسر منه عن أسبابها ورجا أن تكون آثار برد أو تسرب هواء ، فأجابه «شوقى» : انى أشعر بآثار برد فى قصبة الرئة وقد يكون مسبباً عن تغيير الأجواء بين الفصلين . ثم شرب القهوة ، ولم يبد على ملامحه ولا على قسماته شيء غير مألوف . انتهى حديث البرد ثم قال لصاحب « الجهاد » : لعلى أصيب دفئاً فى بيتى الآن فلأتأهَّب للذهاب . فودعه صاحب « الجهاد » كما يفعل



(الكرسى الذى اعتاد الفقيد الاستراحة عليه فى غرفة نومه وبجانبه منضدة كتب)

﴿ جانب من غرفة نوم الفقيد ﴾

وهى التى نظم فيها الكثير من شعره الأخير وكانت أيضاً بمثابة مكتبة له .
وقد قررت أسرة الفقيد استبقاء هذه الغرفة على حالها للذكرى التاريخية



(السرير الذى مات عليه الفقيد)

كل ليلة . ولما أشرف على اعتلاء السيارة قال للسائق : رويدك فى السير فان أمامك أربطة من الجنود فى منطقة الجيزة ، وقد شاهدتَ مايفعلون عند مغادرتنا للمنزل . وودّعه على باب « الجهاد » فريق من أسرة دياب بسنهوت ، وسارت به السيارة الى ما ينتظره بعد ساعات .

(فى كرمة ابن هانىء — نوم ويقظة)

بلغ « شوقى » منزله الساعة الحادية عشرة ، وصعد الى مخدعه ، وطفق خادمه الخاص يقوم بخدمته ويهىء له حوائج الليل ثم أرخى عليه سدول الكلة ، وذهب لينام . وما كاد الخادم يدخل فى النوم حتى سمع صلصلة الجرس يستدعيه الى حجرة سيده فقام مسرعاً ، وله عادة قد جرت على ذلك . فلما انتهى الى حجرة النوم رآه مستيقظاً وكانت الساعة الثالثة أو تزيد فشكا بعض ضيق فى التنفس ، وطلب ماء ساخناً وورق كافور ، فبادر الخادم وأحضرهما . غير أن « شوقى » رأى هذه النوبة لا تعالج بعلاجه هو الذى يباشره « بنفسه » ، فطلب الى الخادم استدعاء أحد الطبيبين اللذين يعلجانه دائماً ـ الدكتور برسكا ، والدكتور جلاد ـ

فذهب الخادم يستدعى بالتلفون الدكتور جلاد ، ثم عاد الى الحجرة ، فرأى سيده يطلب استدعاء أفراد الأسرة وايقاظهم ليراهم تلك الساعة ، فصدع بالامر ، ثم عاد اليه يخبره ان السيدة البارة قرينته ستحضر ، غير أن « شوقى » رأى الفترات الباقية تتلاحق ، وأن الحين وشيك ، فأراد ليقول الكلمة الاخيرة ولو لم يحضر أحد من أفراد أسرته ، قال لتابعه : — انى أشعر بانتهاء أمرى فبلغ يا « احمد » سلامى وتحيتى الى أصدقائى ، وقل ذلك لاحمد أفندى عبد الوهاب فهو يعرفهم . وهنا حضرت السيدة قرينته فاذا هو يسلم الروح الى بارئها . وقد حضر الطبيب ولكن لات حين علاج ، فقد حُمَّ القضاء ، وسكنت تلك الانفاس التى كانت تروِّح على الناس فى فترات الحياة كلما اشتدت نكباء الدنيا

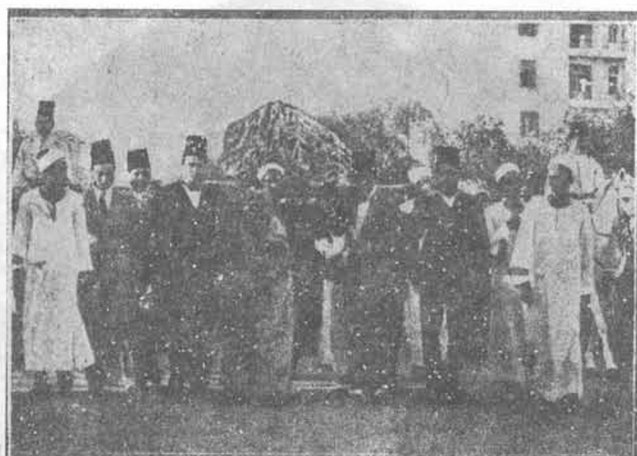




﴿ نعش الفقيد محمولاً من داره ﴾



جنازة الفقيد



نعش المغفور له شوقي بك

وَحَمَلَتُهُ من أعضاء (جمعية أبولو)

إثنى عشر عاماً
فى صحبة أمير الشعراء

سيدى الدكتور رئيس تحرير مجلة « أبولو »

أأشكرك أم أعاتبك ؟

أبت همتك الجبارة أن ترحم ضعيفاً مثلى فى ظرفٍ طار فيه لبه بدداً ، وحار فكره فزعاً ، فطلبت الىّ كلمة عن مولاى فى وقتٍ ليس بيسير علىّ فيه غير الجزع الذى عطل الذاكرة الا من أسبابه .

ومرت الأيامُ وما كنتُ بسبب هذه الحالة لك وفياً ، فحسبتَ ضعفى علىّ ذنباً وعددته جرماً ، والله يعلم أنى ما أذنبت ولا أجرمت وما كنت الا لرحمتك وتسامحك أهلاً .

عدتُ الى ذاكرتى استنجدها منك واليك فاذا هى تطالعنى بنباريس ذات هالات وأضواء ، أو هى أشعة من النور تقابل أشعة السماء ، وما كانت هذه الاشعة والاضواء الا سجايا مولاى أمير الشعراء .

فقد وعى رحمه الله فضائلَ الامم فى صدره وأبرزها عرائس حكمة وأخلاق ، ثم زفها الى عصره فاذا هى ثمرة الدهور وخلاصة الحكم فى كل العصور .

فاذا كنتَ ياسيدى الدكتور يريدنى أن أتكلم عما أعرفه من نواحى العبقرية فى مولاى وهى كما تعلم أنت ويعلم كل المعاصرين واسعة الأرجاء متعددة النواحى بعيدة الأطراف ليس من اليسير أن يُطاف بها فى كلمة قصيرة وانما يكون ذلك اذا فسح لنا الوقت فى كل ما يتطلبه الانصاف لهذه العبقرية الفذة فى التاريخ وأفسحتَ لنا جانباً من كرمك فى صحفك .

أما اذا كنتَ ياسيدى تريدنى أن أتكلم على ناحية خلقه العالى الرفيع فوالله لقد لازمتُه ملازمةَ الظلّ فلم أقع منه فى سرٍّ ولا فى جهرٍ على ما ينفر الذوق المكلل ويشمئز منه الطبع السليم .



احمد افندى عبد الوهاب

فقد كان رحمة الله عليه عفّ اللسان نقىّ الضمير وديع القلب مؤدب الظاهر والباطن باراً بأهله . كثير الحدب على الضعفاء والمساكين ، فما رأيتُه عبس فى وجه على ندرة ذلك جداً حتى أسرع الى استرضائه واستمالة قلبه ، وما رأيته الا مبتسماً يبعث النصح فى غير عنف فيقوى به الضعفاء ويثبت الاقوياء . أما قوله فلم يك قاصراً على ما يسطر فى صفحات الكتب وما يدبج فى القصائد . كلا ! وانما كان له فى مجالسه الخاصة ما تتشنف به الآذان وتتحلى به الأجياد وتسطره على شغافها القلوب .

ولن يفوتنى أن أختم كلمتى القصيرة هذه بشكر حضرات اعضاء (جمعيه ابولو) على ما قاموا به نحو فقيدنا العظيم ، وأعد حضرة رئيس تحرير مجلتها بالعودة اليه بكلمات فى الاعداد القادمة اذا تقبل عذرى الحاضر ووعدى القابل ؟

احمد عبد الوهاب

***

من مذكراتى عن الفقيد

﴿ فى ميدان البرج ببيروت ﴾

كنتُ ومولاىَ فى بيروت سنة ١٩٣٠ وفى صباح يوم من أيام شهر يوليـة حبّب إليه أن يجلس فى قهوة تجار بميدان البرج . ولم نـكد نأخذ مجلسنا حتى طلع علينا رجلٌ يهبّ الزهوُ من أردانه ونـكاد نلمس الغرور متورماً فى أوداجه ، وأبى هذا المخلوق إلا أن يأخذ مكانه على منضدة بقرب التى نجلس إليها ، ولم يستقر بهِ الجلوسُ حتى أطلق يديه بالتصفيق الصاخب حتى إذا جاء الجرسون أمره فى غلظة وخشونة باستحضار أرجيلة « شيشة » ! فاسترعى هذا الرجل وحركاته ونبراتُ صوته الجافةانتباه مولاىَ الذى كان يخيل إلىَّ ساعتئذٍ أنه يتأهب للنظم . فالتفت إلى وقال : يظهر أن هذا الرجل « سارق امرأة » ! قلت : وكيف ذلك ياسيدى ؟ قال : لأنى رأيته يشبه الرجل الذى سرق امرأته ؟ ثم ابتسم وقال : كنت هنا من عامين وكان معى سليمان افندى فوزى صاحب الكشكول والاستاذ عبـد الوهاب فدعانا أحدهم لزيارته فى قريته الواقعة فوق الجبل ووعدنا آننا إذا زرناه سيشنف آذاننا بسماع صوت امرأة حسنة الصوت ، وزاد فى ترغيبه لنا فقال : وهى المرأة التى سرقها زوجها الحالى من زوجها الأول وفرَّ بها من السودان عائديْن الى بلادهما الأصلية وهى لبنان ، فـكل هذا من أجل صوتها !

فرغبنا طبعـاً فى سمـاع هـذه المرأة المسروقة وفى سماع هذا الصوت الذى يغرى على سرقة امرأة من زوجها ! وفعلا ذهبنا الى زيارته وسمعنا المرأة ، وكان صوتها لا بأس به وإن كان لا يبعث على سرقتها ! وليس فى كل هـذا شىء ، ولـكن الأمر العجب هو أن المرأة كانت تغنى احدى قصائد « الشوقيات » ، فقال أحد رفاقنا: انها لطيفة الذوق باختيارها هذه القصيدة تحيةً لصاحب « الشوقيات » .

وحصل أنها أخطأت فى الالقاء خطأ أمّياً فالتمسنـا لها العذر وعزوناه الى الملحّن الذى حفّظها .

وبعد انتهائها من الغناء جاءت الى جانبنا فسألها أحد أصحابنا : منْ الملحن ؟ فقالت : « ابن عمى » تريد زوجَها ، فعجبنا ! فسألها آخر : ومَن المؤلف يا ترى ؟ فما كان أشدَّ دهشة رفاقنا حين أجابتهم : وأيضاً إبن عمى هو المؤلف !



﴿ شوقى بك فى أواخر عمره ﴾

صورة تذكارية بين صديقه الموسيقار محمد افندى عبدالوهاب

(عن يساره) وسكرتيره الخاص احمد افندى عبدالوهاب (عن يمينه)

وكان زوجها آخذاً كرسيَّه فى ناحية من الحجرة التى نسمر فيها جالساً عليه جلسةَ الزهو والفخار ، فسأله أحد الصحاب قائلا : هل هذه القصيدة من تأليفك ياسيدى ؟ فما كان منه إلا أن ألقى برأسه الى الخلف ونفث كلَّ ما فى فمه من دخانِ النرجيلة وهزّ برأسه أى نعم !

فالتفت إلىَّ صاحبى لفتةَ المتعجّب ! فقلت : إنه ليس ببعيد على سارق امرأة أن يسرق قصيدةً !

احمد عبد الوهاب

(هذه البنذة الشائقة من مذكرات احمد افندى عبد الوهاب عن المرحوم شوقى بك تنم عن قيمة هذه المذكرات من الوجهتين الأدبية والتاريخية . وستشمل بين محتوياتها العديدة آراء الفقيد فى بعض رجالات مصر وسوريا ، ورأيه فى خطته السياسية والوطنية ، ونظرته فى مؤهلات الزعامة ، ورأيه فى نقد خصومه ، وكيفية نظمه الشعر وأوقات ذلك ، مع صور عديدة له وقصائد لم تنشر من قبل . وسنعلق على هذا التأليف الشائق بعد صدوره وبعد اطلاعنا عليه — المحرر) .



﴿ شوقى بك فى شيخوخته ﴾

جالساً فى إحدى شرفات كرمة

ابن هانى بالجيزة



تأبين الفقيد يوم الوفاة

(١) مرثية محرر ابولو

(نشرت فى جريدة المقطم)

أهذا هو الجسمُ الذى كان انسانكْ ... أهذا هو الكنزُ الذى عُدَّ جثمانكْ ؟

أهذا هو الظلُّ الذى كنتَ ساكناً ؟ ... أهذا هو السفرُ الذى ضمَّ ديوانكْ ؟

أهـذا مآلُ العبقريةِ بعدَ ما ... أدمتَ لسحرِ العبقريةِ ألحانكْ ؟

فُجِعْـنا بهذا الخطبِ فيكَ ، وانّه ... عميمٌ ، وما استثنيتُ مَنْ أنكروا شانكْ

كأنْ لم نكنْ بالأمس نبسمُ للمُـنى ... لديكَ ، وكم خانَ الزمانُ الذى خانكْ

كأنا جُمِعْنا للوداعِ فيا أسًى ! ... ويا لَوعةَ الفنّان يشهدُ فقدانكْ

ختمتَ كتاباً للحياةِ وإنْ تكنْ ... خططتَ لسفرٍ آخرٍ منكَ عنوانكْ

وإنْ أسرفَ اللوّامُ لوماً فانني ... إذا سألَ التاريخُ أذكرُ احسانكْ

بكيتُ وقد جاء النَّعِىُّ يُثيرنى ... بكاءكَ فى المنفى تُسائل أوطانكْ

وانّى الذى يَنْسَى الاساءةَ راضياً ... وهيهات أن أرضَى كغيرىَ نسيانكْ

فواعجبى ممن برَى الحقدُ قلبَهُ ... وآثرَ حتى فى المنيةِ عُدوانكْ !

وما أنتَ بعدَ الموتِ الا كجنّةٍ ... فما تُلهبُ النيرانُ للحقدِ نيرانكْ

رحلتَ بايمانِ التّقىِّ فلم تَحُلْ ... وحَسْبُكَ للديّانِ أنْ صُنْتَ ايمانكْ

وما هدَّهُ استهتارُ عيشٍ مُنوَّعٍ ... كأنّكَ فى الحالَيْن حالفتَ ديّانكْ !

وفى ذمّةِ العرفانِ ما قد بذلتَهُ ... اذا رفضَ الحُسّادُ للمجد عرفانكْ

أحبُّ جمالٍ كنتَ تُسديه للورى ... صحائفُ للتاريخ أشبعْنَ ألوانكْ

وآياتُ أنغامٍ بلفظٍ مسلسلٍ ... فكلُّ قصيدٍ زفَّ كالراحِ أوزانكْ

إذا لم تُطِعهُ الرُّوحُ يَفتنُ مِسْمعاً ... ويُعطِى لموسيقى الملاحةِ وجدانكْ

ومَنْ ذا الذى يَنْسَى خيالاً موزَّعاً ... على الكونِ حتى صرتَ تخلقُ أكوانكْ ؟!

مواهبُ شتّى إنْ غُمِرْتَ بقدرِها ... وأكبرتَ مِنْ بعدِ التّفرُّدِ بنيانكْ

فهل أنتَ الا آدمىٌّ وإنْ تكنْ ... عظيماً ، وقد أثقلتَ فى الحُكمِ ميزانكْ ؟!

حكيمٌ بشعرٍ لا بِحُسْنِ سياسةٍ ... لذلك قد ضاعفتَ فى العيش أحزانكْ

فنمْ هانئاً ، بل طُفْ بدنيا جديدةٍ من الشّعرِ، وانظرْ فى خلودكَ شُهبانَكْ
وخلٌّ لنا فى حكمةِ الموتِ هذه كثيراً من الاعباءِ ما كُنَّ شُغلانَكْ
تَحَدَّ جَريئاً مَنْ تحدَّاكَ كى يفى الى الادب العالى بمافاتَ حُسْبانَكْ !
فهذا وهذا وَحْدَهُ صدقُ همَّةٍ والا فلقِّنْ راحةَ النَّومِ أجفانَكْ !
ودع تُرَّهاتِ الشانىء الساخطِ الذى يُجرِّدُ شعراً صُغْتَ مِنْ كل ما زانَكْ
ودعنى اكرِّرْ شكرَ قلبى وحسرتى ووداً على الايام لم أسْلُ سُلْوانَكْ
مَضَيْتَ كمُلْكٍ باذخٍ هُدَّ أصلُهُ ولكنْ له ذكرى تُصاحب إرْنانَكْ
وخلَّفْتَ صيتاً بين قدحٍ ومدحةٍ وحسبُكَ عُمراً حين تملأ أزمانَكْ
وكم مِنْ دَعِىٍّ منكرٍ فيكَ آيةً وغايتُه ألاَّ يُبَلّغَ أكفانَكْ !

احمد زكى ابو شادى



(٢) مرثية رئيس تحرير الجهاد

فى منتصف الساعة الرابعة من صباح اليوم ، (الجمعة ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ميلادية) أو قبل هذه الساعة بدقائق استأثر الله بأمير الشعراء .

وفى هذه الساعة عادت الى بارئها تلك الروح العبقرية التى أرقصت قلوب الامم العربية جيلين من الزمان بفنونٍ من الشعر أو نفثات من السحر لاتجود الفطرة بمثلها على أصحاب المواهب إلا فى قليل من العصور .

* * *

شوقى مات ! مات كما مات أخوه حافظ ولمّا ترقأ دموع البا كين على أدبه وعلى شمائله وصفاته ، فجاء موت أمير الشعراء جرحاً دامياً على جرح لم يندمل بعد .

مات كما مات حافظ على غير مرض سابق ولا علة قديمة . وهكذا أبت الاقدار الاان تسلب العالم العربى أنضر زهرتين كان يتضوّع أريجهما فى كل بلد ينطق بالضاد، وهكذا أبت الاقدار إلا أن تسلبنا أعظم درتين فى تاج الأدب ، وأن تسلبنا إياهما بغتةً وعلى غير أهبة لاحتمال المصاب .

***

ثكلت العربية شوقى صبيحة اليوم بعد ان ثكلت حافظاً . فواحرّ قلب العربية على الفقيدين ! مات شوقى فليبكه الفتيان والشيوخ ، ولتبكه الأوانس والسيدات فى مصر وفى أخواتها العربيات ، فقد كان شعره قطعاً موسيقية بارعة من وحى العبقرية يتغنى بها أبناء هذه اللغة العزيزة وبناتها فى كل حين وفى كل مكان .

ذهب شوقى فانقضى بذهابه عهد الفحول من الشعراء الذين أحيوا فى عصرنا الحديث مجدَ الاقدمين .

مات الذى أورث العربية مجداً تالداً ، وزادها فيضاً خالداً على فيض خالد . وهذا ديوانه الفخم فى مجلدين يملآن النفوس إكباراً والقلوب بهجة بما يحتويان من بدائع القول الخالد وأشتات المعانى الرائعة وأفانين الأسلوب الممتنع الا على أمراء الصياغة المطبوعين .

وهذه رواياته المسرحية الأخيرة يكفى بعضها برهاناً مبيناً على العظمة الباقية على وجه الزمان .

مات شوقى فانتظم فى سلك الخالدين . وكم يكون موت العباقرة ، نعم كم يكون فناء أشباحهم أول خطوة تخطوها أرواحهم فى سبيل الخلود بما تتوارثه الاجيال المتعاقبة من آثارهم التى لا تفنى ولا تنساها سلالات المستقبل مهما استحالت الاحوال وتطاولت الدهور .

ولعل معانى العظمة فى شوقى لن تزداد بعد موته الا وضوحاً وجلاء : ذلك ان ورثة آثاره من أبناء هذا الجيل والأجيال القادمة سيشتغلون بشاعريته الفذّة عن شؤونه العرضية الاخرى ، وذلك أن الناس لن يهمهم كيف كان يأكل شوقى ويشرب ، ولا كيف كان يلبس ويظهر بين الناس ، ولا ماذا كانت رغائبه ومطامحه ، ولا ماذا كان يحب من دنياه أو ماذا كان يكره . وانما الذى سيهم الوارثين لآثار شوقى من عشاق الأدب فى الامم العربية هو نفاسة ما ترك من كنوز عبقريته وذخائر أدبه . فهذه هى الباقية ، أما ماعداها مما كان لشوقى او عليه فى أيام العمر الفانية فقد انقضى أمره بانقضاء الاجل . ومن فضل الله ونعمته على الناس ان يجعل أسمى ثمرات المواهب البشرية ملكاً باقياً للانسانية لا تناله يد الفناء ، فى حين تنقضى الامور الثانوية العارضة بانقضاء أيام الحياة !

فليقل من يشاء فى دنيويات شوقى ما يشاء . ولـكن للادب دولة عالية العروش سينادي منادى الخلود من فوق منارتها العليا : لقد مات أمير الشعراء غير منازع ! لقد مات شوقى ! فليبكه المصريون ، وليبكه العرب فى كل بلد عربى أويقطنه عربى ، وليبكه المسلمون فى أنحاء المعمور ، فقـد كان شوقى شاعر العربية وشاعر الاسلام ، وكان أثمن درة فى تاج الادب ، وقد انتزعت هذه الدرة فى منتصف الساعة الرابعة من صباح اليوم !

الى عالم الخلود ! الى جوار حافظ ! لقد رثيتَه فكان مطلع مرثيتك :

قد كنتُ أوثرأن تقولَ رثائى يا مُنصفَ الموتى من الاحياء

والآن تنعمان باللقاء ولم يطل الفراق !

الى عالم الخلد يا أمير البيان ، تشيعك الأكباد الحرى والدموع الجارية والقلوب التى مهما خفقت بعرفان أياديك على أبناء العربية فى مـدى جيلين من الزمان ، فلن تؤدّى لك ما أنتَ أهله أيهـا الراحل العزيز ، أيهـا العظيم الخالد ، من الشكر والحمد والثناء .

رحمة الله عليك ياشوقى ورضوانه وبركاته الطيبات ؟

محمد توفيق دياب



(٣) مرثية رئيس تحرير البلاغ

من أيام قليلة ودَّعت مصر حافظاً واليوم تودّع شوقى ، فلا عجب إن هى فتّ الأسى فى عضدها وتخاذلت قواها وأحست كأن الردى يحاربها فى خير أبنائها وكأن قلبها من هذه الحرب يكاد ينخلع . وقد كان شوقى بيننا الى أمس ، بل الى شطر من الليل ، كأحسن ما يكون صحةً وأطيب ما يكون حديثاً ، تريض وزار وعقد مجالس الأدب التى يعقدها كل ليـلة ، ثم عاد الى داره لا يشكو ألماً ولا يفكر إلا فى ما قد ينفح به الأدب غـداً ، ثم نام هادىء النفس ونامت معه آماله فى الغد ، ثم ها نحن أولاء نفتقده فى صباح هـذا الغد فيقال لنا إن الردى عدا عليه فطواه ، فما ندرى

أنبكيه أم نبكى أنفسنا ، ونجزع من دنيانا هذه الخؤون أم نزدريها ! وهى فى الحق خليقة بأن تزدرى ، وشوقى خليق بأن نرسل من ورائه الدموع .

لم يكن شوقى شاعراً وكفى ، بل كان مجداً لمصر فى عصره كله . وعصره هـذا يمتدّ من أخريات عهد اسماعيل باشا الى اليوم ، فهو يبسط جناحيْه على نصف قرن كامل تقلبت فيه على الشعر والأدب أطوار ، منها اللين ومنها العنف ، فما ونى شوقى فى واحـد منها ، ولا كان الا السابق فيها جميعاً ، حتى اذا عقدت له رياسة الشعر بعد ذلك لم تكن هذه الرياسة مرتبة يرفع اليها بل كانت شهادة بالمرتبة التى وصل اليها. ولم تقف هذه الرياسة عند حدود مصر بل تجاوزتها الى كل بلد ، فصارت رياسته بذلك رياسة لمصر وصار مجده مجداً لمصر . وقد نبحث فى تاريخ الأدب العربى كله فلا نجد لوطننا من الرياسات فيه إلا القليل النادر ، وقد تكون رياسة شوقى أكثرها كلها إجماعاً وأشدّها بروزاً .

وقد كان شوقى فى أول نشأته شاعراً يمدح وينسب ، وكان قـد تعلق بالخديو السابق فجعل أغلب شعره فيـه . وكان الخديو يعمل لاذكاء الروح الوطنى فانطبع شعر شوقى بهذا الطابع وظهرت له حينئذ روائع سوف تبقى ما بقى فى الدنيـا شىء يسمى الأدب . أما نسيبه فى ذلك العهد فهو مما يمتزج بالقلب ويجرى مجرى الامثال . وتقلبت على مصر بعد ذلك احداث وأُبعد شوقى إلى الاندلس ثم عاد فشرع يشق بالشعر طريقاً جديداً فوضـع رواياته من ناحية وأغانيه من ناحية أخرى ، ففتح فى الأدب الحديث فتحين وأثبت أن الشعر العربى يستطيع أن يحاكى الشعر الافرنجى وأن يكون على المسرح لسان العاطفة والتهذيب كما هو فى القصائد لسان المـدح والرثاء والنسيب . وبهذا ملأ شوقى كل جوانب الأدب : ووضع على رأسه تاجاً لم يضعه شاعرٌ عربىٌّ قبله ، وحق لمصر أن تفخر بأن ابنها هو الذى كسب هذا التاج .

فهذا الجثمان الذى يحمله النعش اليوم هو جثمان رجل كان مجده الأدبى مدى خمسين عاماً مجداً لبلاده ، ومجداً للغته . وسوف يبقى هذا المجد لا تزيده الأيام إلا علواً ولا تزيد معدنه إلا نصوعاً ما بقى شعرٌ وأدبٌ . وسوف تتدارس الأجيال المقبلة رواياته كما يتدارس أبناء أوروبا الآن روايات شاكسبير وراسين وكورنيل . وسنذهب نحن ويذهب كل أصحاب الغنى والجاه فتطوينا الأيام جميعاً ويبقى شوقى علماً يذكر به العصر الذى عاش فيه .

فلينم شوقى هادئاً فى قبره فقد أدَّى واجبه ومرَّ فى الدنيا كما لم يمر قائد ولا فاتح، وهذه الدمعة عليه دمعة آسٍ لفراقه راثٍ لفجيعة بلاده فيه . فرحمه الله وأسكنه الجنة وخفف مصابنا فيه ؟

عبد القادر حمزة



(٤) مرثية الدكتور على العنانى

ألقيت على قبر الفقيد

الدوام لله وحده ، وكلُّ نفس ذائقة الموت ، وان الى ربك الرجعى ، وفى جواره خلود الطاهرين

. مات شوقى ولا نعلم رزءاً مثل رزئنا فيه ولا حزناً كحزننا عليه .

مات شوقى فصعدت روحه السامية الى عالم السعادة المحضة والخلود ، وواريناجثمانه فى باطن هذا الثرى يتجاذبنا ألمٌ لا حدَّ لقسوته بمواراة رفاته ، وشملتنا غبطة بصعود روحه الى جوار ربه فى عالم الخلد السعيد .

مات شوقى فاصبح للانسانية كهوميروس وهوراس وكتاليس وديكرت ، ولكن هؤلاء جميعاً يذكر كل واحد منهم بانه قد ابتدأ عصراً فى الادب أو الحكمة . وشوقى ابتدأ حياته الشعرية عصراً زاهراً فى تاريخ الادب العربى وابتدأ نهايته فى هذا اليوم وفى تلك اللحظة القاسية عصراً أدبياً آخر مشبَّعاً بروحه الصافية وخياله الشعرى والهامه الحكيم سيرويه التاريخ الادبى . وانا قد تلقيناه تراثاً خالداً ثميناً من شوقى العظيم تحافظ عليه وتنميه « جمعية أبولو » أوأسرة الشعر الحى ، وجميع الهيئات الأدبية فى العالم العربى وفى طليعتها « رابطة الادب الجديد » وفروعها فى الشرق .

نعم مات شوقى ! ففى ذمة الله أيها الراحل العظيم وفى وديعته يارب الشعر الحىّ ويازعيم النهضة الأدبية العربية ورئيس « جمعية أبولو » وركن « رابطة الادب الجديد » . اللهمّ الهمنا فيه الصبر ، ووفّقنا لخدمة ما تركه لنا من تراث خالد ثمين فى الأدب والحكمة ، وعظم الله أجركم ، وإنا لله وإنا اليه راجعون ؟

على العنانى

(٥) مرثية الدكتور ناجى

(ألقيتْ على قبر الفقيد)

قل للذين بكَوْا على (شَوْقى) النادبين مصارعَ الشُّهْبِ
والهفتاهُ لمصرَ والشَّرْقِ ولدولةِ الاشعارِ والأَدَبِ !
دنيا تَقوِّ اليومَ فى لحدِ وصحيفةٌ طُوِيَتْ من المَجْدِ
ومُسافرٌ ماضٍ الى الخُلْدِ سَبَقَتْه آلاءٌ بلاَ عَدِّ !
هـذا ثَرَى مصرَ الكريمُ ، وكمْ أكرمتَهُ وأشدتَ بالذكر
يلقاكَ فى عطفِ الحبيبِ فنمْ فى النُّورِ لا فى ظُلْمَةِ القبْرِ !
كم من دفينٍ رُحتَ تُحييهِ وبعَثْتَه وكففتَ غُرْبَتَهُ
فاحْلُلْ عليه مكرَّماً فيهِ يا طالما قدَّسْتَ تُرْبَتَهُ
يا نازلَ الصحراء موحِشَةً ريَّانةً بالصمتِ والعَدَمِ
سالتْ بها العَبَرَاتُ مجهشةً وجرتْ بها الاحزانُ من قِدَمِ !
هـذا طريقٌ قد ألفناهُ نمْشِى وراءَ مُشَيَّعٍ غالِ
كم مِنْ حبيبٍ قد بكيْناهُ لم يُمْحَ من خُلْدٍ ولا بالِ
لكنَّ يومَكَ فى فجيعتهِ هو أولُ الأيَّامِ فى الشَّجَنِ
وكأنَّما الباكى بدمعتهِ ما ذاقَ قبلكَ لوعةَ الحَزَنِ !
فاذهبْ كما ذهبَ الربيعُ مَضَى قد شيَّعَته مدامعُ الزَّهرِ
واهدأْ كما هدأَ النسيمُ قَضَى فى هدأة الأضواء والشِّعْرِ
ما كنتَ الا أمةً ذهبتْ والعبقريةُ أمَّةُ الامَمِ
أو شعلةً أبصارَنا خلبتْ ومَنارةٌ نُصِبَتْ على عَلَمِ
يا راقداً قد باتَ فى مَثْوَى بَعُدَتْ به الدُّنيا وما بَعُدَا
أين النجومُ أصُغْ كما أهْوَى شعراً كشعركَ خالداً أبداً ؟ !
لكنَّ حُزْنى لو علمْتَ بهِ لم يُبْقِ لى صَبْراً ولا جُهْدَا
فاعذرْ الى يومٍ نفيكَ بهِ حقَّ النبوغِ ونذكرُ المَجْدَا

ابراهيم ناجى

(٦) مرثية السيد التفتازانى

(ألقيتْ على قبر الفقيد)

اللهمَّ قدرنا على مقابلة القضاء بالرضا ، وارزقنا الاجر بالصبر ، وبصرنا بجلال الموت ، وأشرقْ علينا بنور عطفك حتى ينير ما غشيته الظلمة من أبصارنا بهول هذا المصاب الصادع !

مات شوقى ، فانطوى جيلٌ من أجيال العربية ، وأغمد سيفٌ من سيوف الاسلام ، وأنزل علمٌ من أعلام الشرق عن سارية العظمة والعبقرية ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

ليس شوقى بأمير الشعراء ومقدمهم فحسب ، ولا بذلك الينبوع الذى استقت منه يوانع الجيل المزدهرة ، ولا بذلك النور الذى ملأ الدنيا ، ولكنه بلا شك المظهر الاقدس لمنة الله فى عالم الأدب ، والحسنة الخالدة لمصر فى نهضتها الادبية ، بل هو الروح التى جمعت أشتات الجسد الواحد ، فهو الرباط الوثيق بين مصر وبين جميع الناطقين بالضاد ، بل هو فوق ذلك مجمع مفاخر أمة فى رجل .

سيوفّى الشعراء عميدَهم حقّه من رثاء وكذلك سيصنع الكتاب اذا ما استبقت اقلامهم الواجب يؤدونه لامام من أئمتهم ، ولكن موقفى أنا من شوقى ـ وقد لقى ربه ـ موقف المبشّر له بغفران الله ، فقد كان شوقى حسيباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعترته الطيبة الطاهرة ، إذْ لايخلو شعره الخالد من نفحة من نفحات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الاشادة بذكرى آله وعترته ، فقد شاطرهم فى نهج البردة مصابهم الخالد وصورهم فى مجمل شعره بالصورة الطبيعية لهم ، مباهياً بهم ، مفاخراً بأرومتهم ، مصوراً لمبلغ تضحياتهم فى سبيل الاسلام والمسلمين .

من هذه الناحية يعتبر أهل البيت فى انحاء الدنيا أنهم أصيبوا فى الصميم بفقدان شوقى ، فقد كان الفرد الجامع المنافح عنهم المتمسك بالعروة الوثقى فى محبتهم .

أما المسلمون فقد وجدوا فى شعر شوقى سوراً منيعاً وقاهم فى ظروف كثيرة عبثَ الهدّامين وثرثرة الدسّاسين الذين لا يرقبون فى الاسلام إلاًّ ولاذمةً ، وها كم ديوان شوقى ، بل ها كم سائر شعره ، استذكروه لتروا مبلغ ما وفى به للاسلام كدين وللمسلمين كاخوان فى الله .

أمّا أبناء العربية جميعاً ، فستعلمون مبلغ ما نكبهم به الدهر فى هـذا المصاب الصادع ، حين تتجاوب اصداؤه فى الشام والعراق واليمن وسائر انحاء المغرب من طرابلس الى أقصى مراكش ، وسيعتبر كلٌّ من لامسَ ذوق شوقى فى أدبه ، وكل مقدرٍ لشخصيته الفذة فى هذا الجيل انه أصيب بفقدان شوقى فى سويداء القلب .

أنزله الله منازل رحمته وحشره فى عـداد من أحبهم من الانبياء والمرسلين والشهداء والصالحين والعلماء العاملين ، وحسنَ اولئك رفيقاً .



نماذجُ منوعةٌ

مِن شِعرِ شوقى

(ومعظمها لم يسبق نشره)

نشيد النيل

النيلُ العذبُ هو الكوثرْ والجنّةُ شاطئُه الاخضرْ
ريّانُ الصّفحةِ والمنظرْ ما أبهى الخلدَ وما أنضرْ !

* * *

البحرُ الفيّاضُ القُدُسُ السّاقى الناسَ وما غرسُوا
وهو المنوالُ لما لَبِسُوا والمنعِمُ بالقطنِ الأنورْ

* * *

جعلَ الاحسانَ له شرْعاً لم يَخلُ الوادى مِنْ مرْعىَ
فترى زرعاً يتلو زرعاً وهنا يُجنىَ ، وهنا يُبذَرْ

* * *

جارٍ ويُرَى ليس بجارٍ لاناةٍ فيه ووقارِ
ينصبُّ كتلٍّ مُنهارِ ويضجّ فتحسبه يَزْأرْ

* * *

حبشيُّ اللونِ كجيرته مِنْ مَنبعهِ وبُحَيْرَتِه
صَبَغَ الشّطّين بسُمْرَته لوناً كالمسكِ وكالعنبرْ!



الوطن

عُصفورتانِ في الحِجا زِ حلّتا على فَنَنْ
في خاملٍ من الرِّيا ضِ، لا ندٍ ولا حسَنْ
بَيْناهُما تَنتَجيا نِ سَحَراً على الغُصُنْ
مرَّ على أيْكِهما رِيحٌ سَرَى من اليَمَنْ
حَيَّى وقال: دُرَّتا نِ في وعاءٍ مُمتَهنْ!
لقد رأيتُ حولَ صنْعا ءَ وفي ظلِّ عدَنْ
خمائلاً كأنّها بقيّةٌ من ذى يَزَنْ
الحَبُّ فيها سُكَّرٌ والماءُ شَهْدٌ ولَبَنْ
لم يَرَها الطيرُ ولم يَسمَعْ بها إلاّ افْتَتَنْ
هيّا اركبانى نأتِها في ساعةٍ من الزمنْ
قالتْ له إحداهما والطيرُ منهنَّ الفَطِنْ:
ياريحُ أنت ابنُ السَّبيـ ـلِ، ما عَرَفتَ ما السَّكَنْ
هَبْ جنّةَ الخُلْدِ اليَمَنْ لا شيْءَ يَعدِلُ الوطَنْ!





﴿ صورة فنيّة لشوقى بك فى أوج نضوجه الأدبى ﴾

البحر الابيض

امِنَ البحر صائغٌ عبقريٌّ بالرِّمالِ النَّواعمِ البيضِ مُغرَى
طاف تحتَ الضُّحَى عليهنَّ والجوْ هرُ فى سُوقِهِ يُباعُ ويُشرَى
جِئنَهُ فى معاصمٍ ونحورٍ فكسا مِعصَماً وآخرَ عرَّى
وأبى أن يقلِّدَ الدُّرَّ والياقوتَ نحراً وقلَّدَ الماسَ نحرا
ونَرَى خاتماً وراءَ بنانٍ وبناناً من الخواتمِ صِفرا
وسواراً يَزِينُ زَنْدَ كَعابٍ وسواراً من زندِ حسناءَ فرّا
وترى الغِيدَ لُؤلُؤاً ثَمَّ رَطْباً وجُماناً حوالَى الماءِ نَثرا
وكأنَّ السماءَ والماءَ شِقَّا صَدَفٍ حُمِّلا رفيفاً ودُرّا
وكأنَّ السماءَ والماءَ عُرْسٌ مُترَعُ المَهْرجانِ لَمْحاً وعِطرا
أو رَبيعٌ من ريشةِ الفنِّ أبهَى مِنْ ربيعِ الرُّبى وأفتنَ زَهْرا
أو تهاويلُ شاعرٍ عبقريٍّ طارحَ البحرَ والطبيعةَ شعرا
يا سَوادَيْ فيرُوزَجٍ ولُجَيْنٍ بهِما حُلِّيَتْ معاصِمُ مِصْرا
فى شُعاعِ الضُّحَى يعودانِ ماساً وعلى لَمْحَةِ الأصائلِ تِبرا
ومَشَتْ فيهما النُّجومُ فكانت فى حوَاشِيهِما يواقيتَ زُهْرا
لكَ فى الارضِ مَوْكِبٌ ليس يألو الـ رِّيحَ والطيرَ والشياطينَ حشرا
سرْتَ فيهِ على كُنوزِ (سُلَيْما نَ) تعدُّ الخطَى اختيالاً وكِبْرا
وترنَّمْتَ فى الركابِ فقُلْنا راهبٌ طاف فى الأناجيلِ يَقرا
هو لَحْنٌ مُضَيَّعٌ لا جواباً قد عرفنا له ولا مُستَقَرّا
لكَ فى طَيِّهِ حديثُ غرامٍ ظَلَّ فى خاطرِ المُلحِّنِ سِرّا
سَيِّدَ الماءِ كم لنا من (صلاحٍ) و (عليٍّ) وراءَ مائكَ ذِكْرَى
كم مَلأناكَ بالسَّفينِ مَواقيرَ كشُمِّ الجبالِ جُنداً وَوَفْرا
شاكياتِ السلاحِ يَخرُجْنَ من مصرَ بمَلْمُومةٍ ويَدْخُلْنَ مِصْرا
شارعاتِ الجناحِ فى ثَبَجِ الما ءِ كَنَسْرٍ يشدُّ فى السُّحْبِ نَسْرا
وكأنَّ اللُّجاجَ حينَ تَنَزَّى وتسدُّ الفجاجَ كرّاً وفرّا
أُجُمٌ بَعْضُهُ لبعضٍ عَدُوٌّ زَحَفَتْ غابةٌ لتمزيقِ أُخْرَى!
قَذَفَتْ ههُنا زَئِيراً ونابا ورَمَتْ ههُنا عُواءً وظُفْرا
أنتَ تَغْلِى الى القيامةِ كالقِدْ رِ، فلاحِظْ يَوْمُها لكَ قَدْرا

الخلفاء الراشدون

الخلفاء الراشدون أربعهْ ... مَرضيّة سُنّتهم مُتّبعهْ
فى الذّكر لم يُغفل لهم حديثُ ... وذِكْرُهم سيَّرَهُ الحديثُ
العُمَران(١) وابن(٢) أروى وعلى ... فى الذّروة الشماء والأوج العلى
خلائفُ الله أئمةُ الهدى ... وطَّأ للحقّ بهم ومهّدا
كلّهمو ابنُ أمسه ويومه ... عمادُ داره عميدُ قومه
هُمُ النجومُ فى سماء غالبِ ... ومطلع الهادى المنير الغالبِ
نماهمو كما نماهُ فِهْرُ(٣) ... فبينهم واشجة وصِهرُ
معادنُ الوفاء والاخاء ... صَحابةُ الشدَّة والرّخاء
ما مَنعوا اللهَ ولا نبيّهْ ... قِيادَ نفس سَمْحة أبيّهْ
وما الحَواريّونَ خَلْفَ عيسى ... أحثّ منهم للنجاة عيسا(٤)

* * *

رُعاةُ شاءٍ وتِجارُ مال ... كالرُّسْل فى هذا وفى الكمال
قد كفلوا الاسلامَ فى صباهُ ... فأيّهم نادى دعى أباهُ
بالنفس والنفيس أيّدوهُ ... وبالقنا والرأى شيّدوهُ
وأمّنوا ديكَ الهوى فصاحا ... وآمنوا بفجره مُنصاحا
كلهمو فيه الحبيبُ الأوّلُ ... أعطوه غاياتِ الرضى ونوّلوا
فاسبقْ إذا الحقُّ دعا مستنصِرا ... وكنْ إذا عُدَّ الحماةُ الخِنصَرا
ما حمّل النفسَ على الأشقّ ... كقائل الصدقِ وحامى الحقّ

* * *

حتى جبا الأرضَ اليهم مَنْ جبا ... وملكوا الدنيا فكانوا أعجبا
حدّثْ عن الخليفة الخميص(٥) ... والملكِ المخرّقِ القميص
مثل الجوارِ زانه الاضمارُ ... والشمسِ زادت حسنَها الأطمارُ
لا يعقدون فى الجباه العسجدا ... بل الترابَ للمليك سُجّدا
وتحتَ أقدامهمْ التيجانُ ... يندبُها اللؤلؤُ والمرجانُ
كِسرى ببطن الأرض عطلُ المفرق ... وقيصرٌ يندبُ تاجَ المشرقِ !

---

(١) ابو بكر وعمر . (٢) عثمان . (٣) هو ابو غالب سيد قريش ومن اجداد الرسول .
(٤) العيس الابل ، اى هربا من الدنيا وطلباً للآخرة . (٥) الجائع .

اخوان الدهور

حينما قُتِل المغفور له بطرس غالى باشا فى مصر برصاصة من يد ابراهيم ناصيف الوردانى فى سنة ١٩١٠ هاجت النفوس واستاء كثير من الاقباط لوقوع الجريمة على زعيم ووزير قبطى ، فأوحت ربة الشعر لشوقى بك ابياتاً فى ذلك ولكن هذه الابيات بقيت مطوية لم تعلن حينئذ ولم تنشر فيما طبع من شعره وهذا نصها :

بنى القبط إخوانَ الدهور رُوَيْدَكُمْ ... هَبُوهُ « يَسُوعاً » فى البَرِيَّةِ ثانيا
حَملتُمْ لحكم الله صلبَ (ابْنِ مَرْيم) ... وهذا قضاءُ الله قد غَالَ (غالياَ)
سديدُ المرامى قد رماهُ مُسدَّدٌ ... وداهيةُ السوَّاسِ لاقى الدواهيا
ووالله لو لم يُطلِقِ النارَ مُطلقٌ ... عليه لأَوْدَى فجأةً او تَداويا
قضاءٌ ومقدارٌ وآجالُ أنْفسٍ ... اذا هىَ حانتْ لم تُؤخّرْ ثوانِيا
نبيدُ كما بادت قبائلُ قبلَنا ... ويَبْقى الأَنامُ اثنيْنِ : مَيْتاً وناعيا
تعالَوْا عسى نطوِى الجفاءَ وعهدَهُ ... ونَنْبُذُ أسبابَ الشِّقاقِ نواحيا
ألَمْ تكُ (مِصْرٌ) مَهْدَنا ثمَّ لَحْدَنا ... وبينهما كانت لكلٍّ مَغانيا
ألمْ نكُ من قبل (المسيح بن مريم) ... و (موسى) و (طهَ) نَعْبُدُ النيلَ جاريا
فهلاَّ تساقَيْنا على حُبِّهِ الهوى ... وهلاَّ فدَيْناهُ ضِفافاً وواديا
وما زال منكم أهلُ ودٍّ ورحمةٍ ... وفى المسلمين الخيرُ ما زال باقيا
فلا يَثْنِكُمْ عن ذِمَّةٍ قتلُ (بطرسٍ) ... فقدْماً عرَفْنا القَتْلَ فى الناسِ فاشيا

الجـدَّة

لى جدَّةٌ ترْأفُ بى ... أحْنَى علىَّ مِنْ أبى
وكلُّ شىْءٍ سرَّنى ... تَذهبُ فيه مَذْهَبى
إنْ غضِبَ الأهلُ علىَّ كُلُّهمْ لم تَغْضَبِ
مَشَى أبى يَوْماً إلىَّ مِشْيَةَ المؤدِّبِ

غَضْبانَ قد هدَّدَ بالضَّربِ وإن لم يَضرِبِ
فلم أجدْ لى منهُ غيرَ جَدَّتى مِنْ مَهْرَبِ
فجعلَتْنى خَلفَها أنجو بها وأختبي
وهى تقولُ لأبى بلهجةِ المؤنِّبِ:
وَيْحَ له! وَيْحَ لهذا! الوالدِ المُعذِّبِ!
ألم تكُن تصنَعُ ما يَصنَعُ إذْ أنتَ صَبي؟



الهرة والنظافة

هِرَّتى جِدُّ أليفَهْ وهى للبيْتِ حليفه
هى ما لم تَتَحرَّكْ دُمْيَةُ البيْتِ الظريفهْ
فإذا جاءتْ وراحتْ زِيدَ فى البيْت وَصيفَهْ
شُغْلُها الفارُ تُنقِّى الرَّفَّ منه والسَّقيفَهْ
وتقومُ الظُّهْرَ والعَصْرَ بأورادٍ شريفَهْ
ومِنَ الأثوابِ لم تَمْلِكْ سِوَى فرْوٍ قطيفَهْ
كلَّما استَوسَخَ أو آوَى البراغيثَ المُطيفَهْ
غَسَلَتْهُ وكَوَتْه بأساليبَ لطيفهْ
وحَدَتْ ما هو كالحمَّا مِ والماءِ وظيفهْ
صَيَّرَتْ ريقَتَها الصَّا بونَ والشاربَ ليفَهْ
لا تَمُرَّنَّ على العَينِ ولا بالأنف جِيفهْ
وتَعَوَّدْ أن تُلاقِى حَسَنَ الثوبِ نظيفهْ
إنما الثَّوْبُ على الانسانِ عُنوانُ الصحيفهْ

أنس الوجود

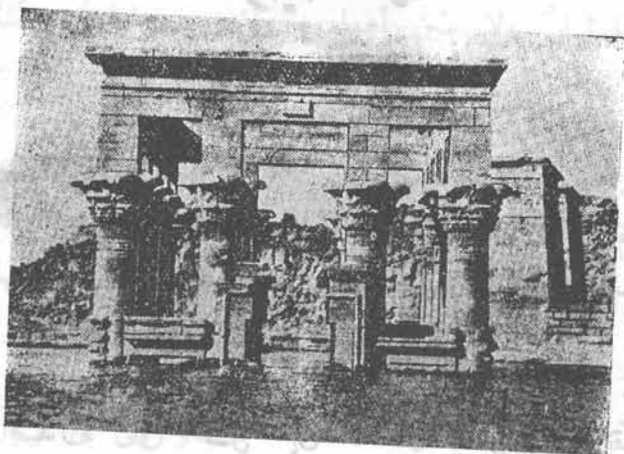
قِفْ بتلك القصورِ فى اليمِّ غَرْقَى ممسكاً بعضُها من الذعرِ بعضا
كعذارى أخفَيْنَ فى الماء بَضًّا (١) سابحاتٍ به وأبدَيْنَ بَضَّا
مُشرفاتٍ على الزوالِ وكانتْ مشرفاتٍ على الكواكبِ نَهْضا
شابَ من حولها الزمانُ وشابتْ وشبابُ الفنونِ ما زال غضَّا
رُبَّ نقشٍ كأنما نفضَ الصا نعُ منه اليدَيْن بالأمس نفْضا
ودهانٍ كلامعِ الزيتِ مرَّتْ أعصُرٌ بالسراج والزيتُ وضَّا (٢)
وخُطوطٍ كأنها هُدْبُ ريمٍ (٣) حَسُنَتْ صَنعةً وطُولاً وعرْضا
وضحايا تكاد تمشى وتَرْعَى لو أصابتْ من قُدرةِ الله نبْضا
ومحاريبَ كالبروج بَنَتها عزَماتٌ من عزمةِ الجِنِّ أمْضَى (٤)
شيَّدَتْ بعضَها الفراعينُ زُلْفَى (٥) وبنى البعضَ أجنبٌ يترضَّى (٦)
ومَقاصيرَ أُبدلتْ بفُتاتِ الـ مسكِ تُرْباً وباليواقيت قَضَّا (٧)
حَظها اليومَ هدَّةٌ وقديماً صُرِفَتْ فى الحُظوظِ رَفْعاً وخَفْضا
سَقَتْ العالِمين بالسعدِ والنحـ سِ الى أن تعاطتْ النَّحْسَ مَحْضا (٨)
صنعةٌ تُدْهِشُ العقولَ وفَنٌّ كان إتقانُهُ على القومِ فَرْضا !

***

يا قصوراً نظرتُها وهى تَقْضِى (٩) فسكبتُ الدموعَ والحقُّ يُقضَى
أنتِ سطرٌ ومَجْدُ مصر كتابٌ كيف سام البِلَى كتابَكِ فَضَّا
وأنا المحتفى بتاريخ مصرٍ مَنْ يَصُنْ مَجْدَ قومهِ صان عِرْضا
رُبَّ سِرٍّ بجانبيكِ مُزَالِ كان حتى على الفراعين غمضا

---

(١) بضا ، البض : الرخص الجسد . (٢) وضا : وضاء . (٣) ريم : غزال : (٤) امضى : احد .
(٥) زلفى : تقرباً . (٦) يترضى : يطلب الرضا . (٧) قضا : حصى . (٨) محضا : خالصاً
(٩) تنهد .



هيكل انس الوجود

قُلْ لها فى الدعاء لو كان يُجدِى : يا سماء الجلال لا صِرْتِ أرضا !

حار فيك المهندسون عقولاً وتولَّتْ عزائمُ العلمِ مَرْضَى

أين مُلكٌ حيالها وفريدٌ من نظام النعيمِ أصبحَ فَضًّا (١) ؟

أين فرعون فى المواكب تَتْرَى يركضُ المالكين كالخيل ركضا ؟

ساق للفتحِ فى الممالك عَرْضاً وجلا للفخارِ فى السِّلم عَرضا

أين (إيزيسُ) تحتها النيلُ يجرى حكمَتْ فيه شاطئَيْن وعَرْضا

أسدلَ الطرفَ كاهنٌ ومَليكٌ فى ثَرَاها وأرسلَ الرأسَ خفضا

يُعْرَضُ المالكون أسْرَى عليها فى قيودِ الهوانِ عانين جَرْضَى (٢)

ما لها أصبحتْ بغير مُجيرٍ تشتكى من نوائب الدهر عَضّا ؟

هِىَ فى الأسرِ بين صَخْرٍ وبحرٍ مَلْكَةٌ فى السُّجونِ فوق حَضَوْضَى (٣)

أين (هُورُوسُ) بين سيفٍ ونَطْعٍ أبهذا فى شرعهم كان يُقضَى ؟

ليت شعرى قَضَى شهيدَ غرامٍ أم رماه الوشاةُ حقداً وبغضا ؟

رُبَّ ضربٍ من سوطِ فرعون مَضٍّ دون فعل الفراق بالنفسِ مَضّا

وهلاكٍ بسيفهِ وهو قانٍ دون سيفٍ من اللواحظِ يُنضَى (٤)

قتلوه ، فهل لذاك حديثٌ أين راوى الحديث نثراً وقرضا ؟

(١) فضا : مفضوضاً . (٢) جرضى : مغمومين . (٣) حضوضى : جبل فى البحر (٤) ينضى : يسيل .

رواية عنترة

المشهد التاسع

ضرغام :سيدَ الحيّ
مالك .: ألف لبيْكَ ضِرْغامُ تكلّمْ ! أثمَّ شيءٌ تقولُ ؟
ضرغام : سيدَ الحيّ عبلةُ اختارهاالقلبُ فهل لى إلى الزّواجِ سبيلُ ؟
مالك : والمهرُ يا ضِرْغامُ
ضرغام : مهرُ عبلةَ ؟ إقترحْ تَرَهْ
قدّرْهُ أو خلّ إلى عبلةَ أن تُقدّرَهْ
وغاليا ما شئْتُما فيه وظُنّا المقدرَهْ
مالك : المهرُ يا ضِرغامُ غالٍ فاجتهدْ أن تحذَرَهْ
ضرغام : سلْ تاجَ كسرى واقترحْ عمامةَ المناذرَهْ
سلْ سُبْحةَ القيصرِ اوْ فاطلُبْ صليبَ القيصرَهْ !
مالك : المهرُ فوقَ ذاكَ
ضرغام : قُلْهُ لا تخفْ أن تذكرَهُ
مالك : إسمعْ إذنْ ! أصخْ لهُ ! المهرُ رأسُ عنترَهْ !
ضرغام : (لنفسه)
له الويلُ ماذا قالَ ؟
مالك : قد وجمَ الفتى
ضرغام : أبا عبلةَ اذكرْ هولَ ما أنت سائلُ
مالك : جبُنتَ ؟!
ضرغام : معاذ الله ما الجبنُ فى دمى
مالك : فلِمْ ضِقتَ ذرْعاً ؟
ضرغام : مَهرُ عبلةَ هائلُ
أأمشى الى الفلْحاءِ أخطفُ رأسَهُ فِداهُ الذى أمشِى اليه القبائلُ
كريمٌ لعمرى ، والكرامُ قدِ انقضوا شجاعٌ ، وشُجعانُ الرجالِ قلائلُ
إذا قال بذّ القائلينَ رنينُهُ وما بذّهُ فى أيْكةِ البِيدِ قائلُ

هزارُ البوادِي طارحتْه بشجوِها رُباهُ وغنّتْ فى صداهُ الخمائلَ
وما بيننا ثارٌ ولا بين أهلهِ وأهلِى عداواتٌ خلتْ وطوائلُ
مالك : وعبلةُ يا ضرغامُ ؟
ضرغام : ما شأنُ عبلةٍ ؟
مالك : أليس فِداها فى الحِجازِ العقائلُ ؟
ضرغام :
أجلْ وفِداها الشمسُ ما التفتِ الضُّحَى عليها وما رفّتْ عليها الأصائلُ
مالك :
أأنتَ تخافُ العبدَ ؟
مالك : لِمْ لا أخافُهُ تخافُ وتُرجى فى الرجالِ الفضائلُ
وإنّ ابنَ شدادٍ وإنْ ذاعَ بأسُهُ فتىً مِلءُ بُرديهِ عفافٌ ونائلُ
من العُصبةِ المسطورِ فى البيتِ شعرُهم قصائدُهم أستارُهُ والوسائلُ
مالك :
فمالكَ مصفرّاً كأنّكَ هالك من الخوفِ قبلَ الطعنِ والضربِ زائلُ؟
تعال زهيرُ أسمعْ حِسبناهُ حائطاً (يقبل زهير)
زهير : فما هوَ ؟
مالك : ركنٌ فى العواصفِ مائلُ
وأمّلْتُهُ سيفاً فلمّا لبستهُ إذا هو عودٌ أنكرتهُ الحمائلُ
وقلتُ غماماً يمطِرُ الحيَّ فى غدٍ فكانَ جهاماً مالنا فيهِ طائلُ
وقلتُ كليبٌ نستطيل بصهرهِ اذا هوَ كلبٌ !
ضرغام : ضلَّ ما أنتَ قائلُ !
وأقسمُ لولا ظبيةٌ تحتَ خيمةٍ وغصنٌ حوتْه فى الحجالِ الغلائلُ
لما رُحتَ إلا جثّةً فى الثّرى لقىً نالتْك من قبلِ المغيبِ الغوائلُ !
مالك : تجرأتَ يا ضرغامُ
ضرغام : ما تلكَ جرأةٌ ولكنْ كما قد كِلتَ لى أنا كائلُ !
مالك :
كفى حسبُ يا ضرغامُ حسبُ وقاحةً فما أنتَ إلا مُكثرُ الزّهوِ خائلُ
لقد قلتَ قولاً شفّ عما وراءهُ وقامتْ على لؤمِ النّجارِ الدلائلُ

ولا يرفعُ الابطالَ أنك مِنهمُو فما هذهِ للباسلين شمائلُ
وما لكَ كالأبطالِ سيفٌ تُجيلُهُ ولكنْ لسانٌ بالسفاهةِ جائلُ
أيُذكَرُ عبدُ السوءِ فى كلِّ قفرةٍ وذكرُكَ يا ضِرغامُ فى البيدِ خامِلُ
أما أنت كالفلْحاءِ صِنديدُ قومِهِ ! أما لَكَ كالفلْحاءِ سيفٌ وعامِلُ ؟
ألا حَسدٌ للعبد؟

ضرغام : لا ! لستُ حاسداً ولا أنا للنّارِ الأكولةِ حامِلُ
أأحسِدُ مَن يحيى العُفاةُ بمالِه ويأوِى اليتامى ظلّهُ والأرامِلُ؟
أأحسِدُ من لا يَعصِمُ البيدَ غيرُه إذا زَحفتْ مَن أرض كسرى الجحافلُ
أأحسِدُ من يُرجىَ لتأليفِ قومِهِ اذا افترقتْ تحتَ الملوكِ القبائلُ ؟

مالك :
يؤلفنا عبدٌ ، أما ثمَّ سيِّدٌ عن العبد يغنينا ؟ ! أما ثمَّ عاهِلُ؟
إذنْ فليسُمْنا الخسْفَ كِسرى وقومُه وقيصرُ والرومُ الجفاةُ الأراذِلُ
أيمنعنا عبدٌ ؟ إذنْ نحنُ عُزّلٌ ! فأينَ عوالينا وأينَ المَناصِلُ؟

ضرغام :
لقد عِيلَ صبرى للّذى أنا سامعٌ

مالك : إذا الصبرُ لم ينفَدْ فما أنتَ فاعِلُ ؟

ضرغام :
عقابٌ يُنسّيكَ الوقاحةَ عاجلٌ وآخرُ متروكٌ الى الغدِ آجلُ

مالك :
رويدكَ يا ضِرغامُ مالكَ هاذِياً ومالكَ قد ضاعتْ لديكَ المنازلُ ؟
فما العبدُ إلا كالدُّخانِ وإن علا الى النّجمِ مُنحطٌّ الى الارضِ سافلُ

ضرغام :
تعالَ ! تأهّبْ !

(يمسك بكتفيه فيهزّه هزاً)

مالك : كاهلى ! خلّ كاهِلى !

ضرغام : أقالَبُ زُبْدٍ ذاكَ أمْ ذاكَ كاهلُ؟

زهير (صائحاً):

هلُمُّوا سَراةَ الحىّ هاتُوا رجالَكم
إلىَّ فعبسٌ فاجأتْها النوازلُ!

مالك :

مالك : يا عبْسُ

(ويرى عنترة قادماً فيجرى نحو الحى هو وابنه زهير)

عنترةٌ ؟

المشهد العاشر

عنترة (من وراء الستار) :لبيكَ ما بكُم؟ خوْفٌ من السيْل أم خوْفٌ من النارِ؟
أللهُ أمّنَ بالفلْحاء سِربَكمو أفعَى الصّريمِ وليثِ القفْرةِ الضارِى

(يظهر عنترة)

المشهد الحادى عشر

مَن الفتىَ من أرى؟ ضرامُ أنتَ هُنا! أغارةٌ ؟ أين عهدُ الجارِ للجارِ ؟
أجئتَ تَسبي مَهاتى

ضرغام : حيثُ أخْطُبُها

عنترة : ما أجلَ الصّدْق لم يُلْبَس بإنكارِ

فما جرى ؟

ضرغام : نال مِنا مالكٌ وبَغى عليكَ بالشتم هذا العائبُ الزّارِى
حتى انصرفْتُ اليه كى أؤدّبَهُ

عنترة : ياليتَ أدّبتَهُ تأديبَ جبّارِ

ضِرغامُ

ضرغامُ : عنترةُ

عنترة : اسمعْ بيننا شَرَكٌ في حبِّ عبلةَ قد يدنو من الثارِ
فاجعلْ لنفسِك أنثى غيرها أرَباً فإنَّ عبلةَ آرابى وأوْطارِى

ضرغام :
وأنتَ فاعبُدْ سِواها إننى رجلٌ جعلْتُ عبلةَ أوثانى وأحْجارِى
تعالَ نذهبْ الى شمْس النهارِ معاً نقولِ عبلةُ قد خُيِّرتِ فاختارِى
فما ترى أنْتَ ؟

عنترة : رأيى أن نَصير إلى جمالِ تضْحيةٍ أو فضلِ إيثارِ
رأسى ورأسُك فى الميزان قد وُضِعَا وحُكم سُيفِك أوسيْفى هو الجارِى
مَن ماتَ منا قضىحقَّ الهوَى كرماً وليْس بالموْتِ دون الحبِّ من عارِ

ضرغام :
رأيتَ عنترَ رأياً لستُ أتْبعُهُ يأباهُ حُبِّى وإعجابى وإكبارِى
واللهِ لا جمعتْنا ساحةٌ

عنترة : لِمَ لاَ ؟ الحربُ تجمع مغواراً بمغوارِ

ضرغام :
هبْنى قتلْتُكَ

عنترة : ماذا ضرَّ

ضرغام : كيف إذنْ تكونُ فى البيدِ أنبائى وأخْبارى؟
ألستُ شِبْلاً فتيّاً من شبولتها فهلْ أجرِّبُ فى الرئبالِ أظفارِى ؟
وكيف أفلِقُ رأساً ملؤهُ شرفٌ أحقٌّ من جَبَهَاتِ الرومِ بالغار ؟
وكيف أضربُ عُنْقاً فى أمانتِها كرامَةُ القوْمِ من بَدْوٍ وحُضَّارِ ؟
وكيف أدمى لِساناً طالما سُقِيتْ بشهدِهِ البيدُ من شرْبٍ وسُمّارِ ؟

عنترة ينادى : يا عبلَ

عبلة (من وراء الستار) : لبيكَ ياابن العمِّ

(تقبل عبلة)



شوقي الشاعر

هذا شاعر نبه الجيل باسمه ، وعقد شعره على جبين مصر تاج الزعامة فى الشعوب العربية ، وكانت قصائده بالأمس القريب متطلع أدباء الشرق ومرتقب كتابه وشعرائه .

شاعر تهيأ له من أسباب الشعر ما لم يتهيأ لغيره ، وحبته العنايات بما لم تحبُ به شاعراً عربياً قبله من مواهب فنية خصه الله بها ، وحظوظ سعيدة مقدرة سمت به الى منزلة سامقة من المجد وذروة شاهقة من الشهرة والصيت الذائع .

ولقد عبر شاعرنا محيط الحياة بين عبرىْ الميلاد والموت محوطاً باعجاب الكثيرين من الخاصة والعامة ، وشهد بعينه تألق نجمه فى سماء البيان، وهو ما لم يتح لأفذاذ الادباء والفنانين فى هذا الشرق العريق فى أدبه وفنه . وبلغ ببعض الصحف فى مصر منذ سنوات قلائل أن خصت كل قصيدة يختصها بنشرها بمائة من الجنيهات ، وذلك ما لم نسمع به أيضاً من عهد ملوك العرب حتى فى أوساط الغرب الأدبية وهى التى لم تضن على العلم والأدب والفن بالجليل من التقدير الأدبى أو المادى .

ولقد عجل القضاء بشوقى الى نهاية كل حى وهو لا يزال ينفح الأدب بنفحات شعره ، وحطم الموت يراعه وهو ممسك بها بين قرطاسه ومحبرته فى فترة مرض غير رفيق وضعف شيخوخة ما كدّرا من صفاء تلك القريحة اللماحة ، ولا خدشا مرآة ذلك الذهن المشرق الوقّاد .

وفوجئنا بنعيه بعد أيام قلائل جلسنا واياه على مائدته فى رفقة من صفوة أدباء مصر نتحدث فى شؤون الأدب ونعدّ للشعر مستقبلا ذهبىّ الاحلام ، فراعنى نعيه وجزعت لمصابنا فيه بعد أن فقد الشرق به وبحافظ ألمع كوكبين فى سماء الشعر انكدرا متعاقبين قبل أن يتم عامٌ دورته .

ورحتُ أسائل نفسى: « هل أدىّ شوقى رسالة الشاعر الى عصره ؟ » ذاك سؤال أحاول الآن أن أضع جوابه فى حيرة رجعت بأسبابها الى قصر الزمن الذى مضى على انقطاعه عنا ونحن الناس نتأثر بحياة الحى الزائل ولو إلى حين ، وقد تلابسنا من حياته الماضية القريبة أحوال يكون لهـا فى أحاديثنا وكتاباتنا أثر لا نفطن اليه اليوم وقد لا تقرّ أنفسنا فى الغد على ما أصدرناه من أحكام واستسغناه من آراء .

ورجال الأدب فى مصر لا يزالون فى مضطربِ أفكارٍ لا تعرف هديها الى ما تصبو اليه من المثُل العليا ، ولا يزال معترك الجدل حامى الوطيس بين دعاة المدرستين الحديثة والقديمة بل بين أنصار المدرسة الواحدة فى تعريف مقاييس الشعر وتكييف صوره وتحديد ألوانه .

بيد أنى أدفع برأى غير فطيرٍ نمّاه شعور برىء أقرت أحكامه دراسةٌ ترجع الى أدب لا يتعصب لقديم ولا لجديد .

* * *

من دلائل الشاعرية فى الشاعر إفصاح بيانه عن فكرته ووضوح مراميه فى شعره وأداء ألفاظه لمعانيه أداءً وافياً لا اضطراب فيه ولا غموض .

فاذا وُفّق الى ذلك كله فى أسلوب رشيق وديباجة صافية وسياق مرتب فهو شاعر بطبعه وسليقته .

وكان شوقى رحمه الله أقدر شعراء عصره فما ظفر بمعنى جيد الا وأفصح عنه بألفاظ مختارة تقع فى الأذن موقع النغم الساحر والصوت الرخيم . فاذا ما كان المعنى مبتكراً رائعاً فقد نفذ بأنغامه وموسيقية بيانه الى قرارات النفوس وشغاف القلوب وهذا ما لم يتوفر فى شعره كثيراً .

وديباجة شوقى أشرق ما تكون حتى لكأنك تقرأ المختار لفحول شعراء الجاهلية والاسلام ، وأسلوبه جامع لمحاسن الاساليب الشعرية البديعة وإن لم يبلغ شأو البارودى فى قوة الحبك ودقة الاحكام .

يترسل شعر شوقى فى سبعة جداول شعرية: (١) شعر المديح والرثاء و(٢) شعر الحب و(٣) الشعر الوصفى و(٤) الشعر الاجتماعى و(٥) الشعر التاريخى و(٦) الشعر الدينى و(٧) الشعر القصصى . ونمر على شعر المديح لأن الشاعر انقطع عنه من أمدٍ بعيدٍ

وليس فيه ما هو جدير بالدراسة أو النقد ، وإن حوى ألواناً من الوصف والغزل والنسيب .

أما الرثاء فقد أجاد شوقى فيه وأبدع، بل لا أعدو الحقيقة اذا قلت إنه المتفرد فيه منذ كان شعرٌ عربىٌّ الى اليوم ، أما شعر الحبّ فهو شعر تضجّ له النفس ساخطة وتشارك الوجدان فى استهجانه والنفرة منه، والحق أن شوقى بعيد عن الحب بعد الباطل عن الحق وليس فى بعضه الا القليل النادر الذى يترسل مع النفس ويرضى به الوجدان، وهو لا يعد فى شعره الا بنسبة الماس الى حجارة الأرض. أما شعر الوصف فبعضه شعر تجديد والبعض الآخر شعر تقليد تغلب فيه الصنعة ويبدو التكلف واضحاً جلياً . ومن الغريب أن تجد للشاعر فى هذا الباب صورتين مختلفتين كل الاختلاف : إحداهما تمتّ ببيانها وألفاظها الى الشعر العربى القديم والاخرى تتجه بمعانيها الى الشعر الغربى ، وقصيدته فى شكسبير جمعت الصورتين فجاءت آية من آيات الشعر العصرى الحديث . بيد أن شوقى لم يوفق مرة واحدة فى وصف صورة من صور الطبيعة ، وهى فى رأيى ينبوع صفاء الشاعرية وروحانيتها والمعين الذى لا ينضب للجمال والملهم الخالد الفن الذى يجدد بريشته وأصباغه شباب الحياة ويملأ كتابها من سحره وفتونه وعبقرية خياله ، وترى فى قصيدة وصف الربيع أو غيرها ما لا تهتز له نفس زاولت مهنة الحياة الشعرية وشغفت بالفن والجمال .

أما الشعر الاجتماعى والشعر التاريخى فتفوقه فيهما تفوقه فى شعر الرثاء ، وقصيدته فى صدى الحرب العثمانية ويربو عدد ابياتها على الثلاثمائة من وزن وقافية واحدة تعدّ من معجزات الشعر الحديث . وهى ملحمة رائعة تفيض بشتى مظاهر الحماسة والوطنية والخوالج الانسانية فى بيان متين ومعان سامية وألفاظ تسيل ماء وتؤجّ ناراً .

أما قصائده فى التاريخ فلا أرى شاعراً لحق غباره فيها وقصيدته فى حوادث النيل أو سينيته الاندلسية أو قصيدة النيل أو غيرها تتحدّى الزمن بخلودها .

أما الشعر الدينى فقد كان لشوقى فيه نفحات طيبات وآيات رائعات وكثيراً ما ضمن شعره فى مناسبات جميلة إيماناً قوياً بما أنزله الله من أديان وشرائع وكم تغنى بجمال السيد المسيح وتمجيد رسالته من حب وسلام وإخاء ، وأرى أنه بزّ الأباصيرى فى قصيدته نهج البردة وله فى ميلاد النبى (صلعم) قصيدة رائعة المعانى تفيض بموسيقيتها ومعانيها جلالا وجمالا وزهادة وتصوفاً .

ويُعدّ شوقى الشاعر الموفق فى هذا النوع من الشعر ممايدلنا على صفاء قلبه وقوى ايمانه . وأما شعره القصصى فلى فيه رأى وهو ان شوقى وإن كان من البادئين بوضع الحجر الأول فى هذا النوع من الشعر فى لغة العرب إلا انه اتجه ناحية واحدة فجعل ينضح من اناء التاريخ دون غيره فاخرج لنا كليوباترا وقمبيز وعلى بك الكبير ومجنون ليلى .

وأرى أن هذا النوع من القصص لا يفيد كثيراً فى ترقية مستوى الشعر العربى ولا يكسب الأدب مادة قوية ولا يعد من نفائس التأليف ، وأرى أن الشعر القصصى المنشود ذلك الذى يستقى خياله من نبع الحياة ويستمدّ وحيه والهامه من حوادث عصره وأخلاق ناسه وصور حضاراته ، غير أنى لا أغمط شوقى فضل نبوغه فى هذا المضمار ولا انقص من عظيم جهده وكفى أنه فى طليعة من وضعوا القصة العربية شعراً وفى مقدمة من أخرجوا الرواية من سفر التاريخ .

***

وأرى أن شوقى قد أدّى رسالة الشاعر الى عصره بقدر ما هيأه الله وأتاح له ذكاؤه وأدبه وعلمه وشاعريته . وإنْ قصّر شوقى فى بعض النواحى الشعرية كما أسلفنا القول عنه فجاءت دواوينه الثلاث خلواً من شعر الوجدان فهذا لا يفوّت عليه حسناته فيما بقى لنا بعد ذلك من شعره . وحسبه أن يكون شاعر الاجتماع أو التاريخ فهذا رديرد كبلنج شاعر الامبراطورية البريطانية لا تجد الانسانية فى شعره ظلا تتفيؤه أو نبعاً تبل من مائه صدى أحشائها ، شعرٌ لا أثر للوجدان ولا للعاطفة الانسانية فيه ومع هذا فهو شاعر الامبراطورية وحامل جائزة نوبل . فما لنا اذن نستعدى على شوقى الأقلام وليس من شوقى كثير لدينا ؟

أجل ، كان شوقى مقلداً فى بعض شعره ولكنه كان منتجاً وقد أردناه أن يبدل نهجه فى الشعر ويبدأ من حيث بدأنا نحن ولكننا لم نذكر أننا ابتدأنا من حيث انتهى هو !

لقد أدّى شوقى رسالته إلى عصره غير مقصّرٍ ونفض راحتيه من هذه الدنيا ، وأتم رحلته فى الحياة ، فليؤدِّ كلُّ شاعرٍ منكم رسالته ولتكونوا مخلصين للأدب والفن فان فى أعناقكم أمانة القادة فوجّهوا الجيل إلى الكمال وأنبتوا منه لمصر نباتاً صالحاً ناضج الجنى طيب الثمر ؟

على محمود طه
المهندس

شوقى وأنداده

اذا كان الشعر حسب تعريف ليخ هنت هو موسيقى وإقناع وخيال وصور فهل هذه الاوصاف مجيعها فى شعر شوقى ؟ وهل هو شاعر كامل ؟ وما نصيب مطران من هذه النواحى ؟ ثم ما نصيب حافظ أيضاً ؟

أولاً ما هى الموسيقى فى الشعر ؟ ان اول ما نصف به شعر شوقى انه موسيقى وأول ما نصف به شعر الزهاوى مثلا أنه لا موسيقية فيه فما معنى هذا ؟ ذكرت احدى الجرائد الفرنسية مقارنة بين شوقى وبول فاليرى شاعر فرنسا الاكبر فى العصر الحاضر ، فذكرت هذه الموسيقية ، وهى على حق . ان شوقى وفاليرى اتفقا فى هاته الصفة ، ولا أعرف شاعراً سبقهما فى ذلك غير بودلير . هذه الموسيقية هى البراعة فى اختيار اللفظ ، وانسجامه ليؤدى المعنى المطلوب . قرأتُ فى ماكبث لشكسبير سطراً تقوله اللادى ماكبث ويدها ملوثة بالدم ، فشعرت ان روحها تهبط وتعلو كعاصفة ، شعرت من هذا السطر بنفس مجرمة تتنازعها الاهواء . وشعر حافظ موسيقية فقط ، والثلاثة الباقية : الاقناع والخيال والصور غير موجودة ، ومطران لا يعنى بالموسيقية كثيراً ، ويعنى بالخيال والصور .

والموسيقية من حيث أنها تحتاج الى اللفظ والصياغة والانسجام ، فهى اذاً فى حاجة الى الالمام العظيم باللغة ، هذا الى ذوق خاص لا يمكن اكتسابه بسهولة والى اذن تحسن الاستماع وتمييز الانغام !

ولا بدع انه ليس من موسيقية فى اللفظ كموسيقية القرآن .

أما الاقناع ، فهو قوة خاصة فى الشعر ، بحيث يضطرك الشاعر الى متابعته ، والى السير وراء رأيه والايمان به ، ويملك عليك مشاعرك ، بدون أن يُملّك ، او يشعرك انه يقودك ، وأنت تتبع ساحراً جباراً لا خلاص لك منه .

ولعل المثل الأعلى فى ذلك هو الشاعر راسين . أما شوقى فقد كان على جانب كبير من هاته القوة ، وإذا اقتنع هو نفسه ، وراح يدافع عن قضية هى جزء من حياته او حياة أمته ، وراح يصف شيئاً له فى نفسه مكانة ، فانه احياناً يبلغ الذروة ، ويصعدك معه ، الى حيث تقتنع بما رأى وتؤمن بما حدثك عنه .

اما الخيال ، فهو الناحية التى قصر فيها شوقى ، وأبدع فيها مطران وانعدمت من شعر حافظ ، ومن الخيال مايسمونه باللغة الانجليزية Fancy وفى هـذا يجود شاكسبير ويمتاز أو لايشق له غبار ، ولا أدرى مقارباً له فى الادب العـربى الا فى قصيدة شوقى حيث يخاطب توت‌عنخ آمون شاعره بنتاآور ويشكو له ضجة الموسيقى حول قبره :

مصر الفتاة لم توقّر جدّها   دقّتْ وراء مضجعى جازبندَها

فهذه الروح الساخرة التى يداعب بها توت عنخ « حفيدته » مصر ويشكو بها ضجره لانها تضرب جازبندَها خلف قبره ـ هذه الروح التى تكسو الحبيب ، او البطل الذى نتكلم عنه ، ثوباً من السخر الرقيق ـ هـذه قليلة ، قلة متناهية فى الشعر العربى ، كثيرة فى شكسبير وكولردج وبيرون . على ان الخيال واطلاق العنان للتصورات العالية لا للاستعارات والكنايات اللفظية كثير فى شعر مطران ، يزخر به ويعلو الى آفاق هائلة . اما حافظ فلا خيال له وذلك لحرصه على الموسيقية فقط ، ولعدم المامه بالادب الغربى .

اما الصور الشعرية فقليلة كذلك فى شعر شوقى : نعنى بذلك انك تقرأ قطعة للشاعر فلا تملك الا ان ترى الشىء مرسوماً أمامك بوضوح جسماً قوياً بارزاً . وشعر شوقى الاخير موفق فى ذلك ، ظاهر فى شعره المسرحىّ . أما شعره الأول فى المديح وفى الغزل الذى يبدأ به قصائده فهو بالطبع ألفاظ مرصوصة مصوغة لا تؤدى صورة ولا ترسم شيئاً . والمشهور عن شكسبير ان الفرق بينه وبين غيره من الشعراء ومؤلفى الروايات المسرحية ان كل لفظة ترسم صورة ، فما بالك بالسطر او بالقصيدة ، واننا فى اذهاننا نختزن ألفاظاً وهو يختزن ويبرز صوراً واضحة قوية ! ويقول اكبر نقاد المسارح ان المؤلف المسرحى الذى يملأ روايته بالالفاظ التى ترسم الصور بسرعـة فى ذهن الجمهور هو الذى يظفر باكبر قسط من النجاح .

وهـذه الميزة كانت على أتمها فى شعر ابن الرومى : خـذ مثلا قصيدة حريق بغداد ، وفى شعر البحترى احياناً : كقصيدة الايوان .

أما مطران فى شعراء العربية فهو ممتاز فى هذا : فله قصائد منفردة منقطعة النظير فى الصور ترسمها وتنقلها الى الاذهان . خذ مثلا قصيدة فتاة الجبل الاسـود ، أو قصيدة الجنين الشهيد .

فانت ترى فى الختام ان شوقى تميز بكثير من صفات الشاعر الكامل ، ولو مدّ الله فى أجله واستمر فى المنهج الذى انتهجه أخيراً لبلغ مدًى لا يُجارَى . وبارك الله فى مطران ، وفى أدبه المشرق العالى المطبوع بطابع الخلود؟

ابراهيم ناجى



جولة فى أدب شوقى

قد تقسو الحيـاةُ على الأديب فتلفظه وتئد من نواحى عبقريته : ذلك بأن كل ذى نعمة محسود ، والناس أعداء ما جهلوا فلا يزال يتنقل فى سر من الحياة على غير مسمع من الناس يتبرم بالحياة ويزهد فى الدنيا ويتهم الفضيلة ويتجنّى على الأدب . فاذا أراد نفسه على الوصف لم يجد منها غير مرآة صدئة ونفس لاغبة وخيال لايتراءى غير أشباح مبهمة. فاذا انتقل إلى المدح لم يجد خلاقاً حسناً بين القلوب المدخولة المُضِبّة له على حقد فيأتى بالمتكلف المسترذل . والجانى عليه فى ذلك بيئته وجفاف الثرى بينه وبين قومه . على هذا النحو درج الالوف من الادباء وقضوا فما نبـه لهم ذكر ولا عظم لهم خطر .

وقد يولد الأديب فى بيئة رافهة ناعمة لا يتصل بذنابى الناس وأوشابهـم فاذا تناول بؤس الحياة وشظفها نزل إلى لُجَّـةٍ لا يهتدى إلى مناطها ولا يسبر غورَها وعزت عليه الحقيقة ونضب أمامه الخيال . وهكذا تستطيع ــ لو حاولت ــ أن تتلمس للشاعر مهما سمت منزلته سقطاتٍ وهفواتٍ بل نواحى مبتورة لا يمضى فيها المجيد فى غيرها حتى يكون ناظماً متشاعراً .

أما شاعرنا فقد طُبع على غرار خاص ونشأ نشأة متباينة المنازع فواتاه التوفيق من يوم مدرجه ، وأتاه التوفيق لأنه كان أديب الخاصـة بل سمير الملوك والأقيال فنبت كما نبت ابن المعتز : بديع الوصف ، رائع التشبيه ، سامى الخيـال ، شريف العبارة ، جيد الأسلوب ، متين السبك ، تحسّ حين يطالعك شعره أنك فى حضرة العظيم . يظهر لك ذلك بوضوح حين يذكر السيدة مريم طريدة قومها فيأبى إلا أن يجعلها خيالهُ السامى فى صولة ودولة وحاشية لاتجدها لغير الامراء والملوك إذيقول:

« ضربت فى طول الأرض وعرضها ، يوسف حاديها وجبريل هاديها ، والقدس ناديها ، والطهارة أرجاء واديها » . وتراه فى نجائه لأبى الهول يتصور فيه سمير الدهر ونديه ومناجى العصور حيث يقول :

أبا الهولِ أنت نديمُ الزما   نِ نجىُّ الأوانِ سميرُ العُصُرْ

ولو رجعت ألبصر فى رائيته فى الانقلاب العثمانى وسقوط السلطان عبد الحميد لرأيت من شوقى عظيما يستعرض اعمال عبد الحميد استعراض من يحاسبه على أعماله فى عَتْبٍ عليه كأنه ندٌّ له فى جلاله وجبروته بعد أن قدم لعتبه هذا وصفاً ليلدز قلما يتفق لشاعر مثله .

شاعرية شوقى

ومن ينكر على العظيم عبقريته ويجحد فضله وقد نفخ فى الشعر من روحه وأمدّه من وحيه فأيقظ الأدب العربى وخَلع عليه خِلعاً غربية موشاة بثقافة جامعة فكان الابن المتحضر البار الذى أرضى القديم وأنصف الجديد فشعر شوقى صورة ناطقة عن عبقرية مخلده . كثرةٌ فى إجادة وابتكار للمعانى المحدثة مع إصابة للرأى فى كثيرها. وهو فى قوله مصور بارع يتابع الوصف متمهلاً مترفقاً فى موضع الرفق ،ولا أدل على ذلك من شعره الغنائى الذى يكاد يسيل له صلد العواطف وتَنْماث له الجوانح مما سار وتناقله الناس وتغنوا به وهو رقيق فى عتبة حزين كل الحزن فى رثائه كأنما يواسيك بأفلاذ قلبه فتراه يناجى اسماعيل باشا صبرى نجاءً تحسّ فيه باللوعة يضطرم نارها فى قلبه يستحلفه فيها بعهوده القديمة وعوارفه إذ يقول .

قلْ لى بِسابقةِ الودادِ : أقاتلٌ   هُوَ حِينَ يَنزلُ بالفتىَ أمْ شاف ؟

وتراه يأتى على ذكر العلة التى انتابته حين يقول :

لجَّت على الصَّدْر الرحيبِ وبرّحَتْ   بالكاظم الغيظِ الصفوحِ العافى

ما كانَ أقسَى قَلبَها مِنْ عِلةٍ   عَلقَتْ باكرَم حَبَّةٍ وشِغافِ

ذلك ما تحسّ به فى وجده على أديب رِئْدٍ له .

وتراه يشتد فى موضع الشدة فيخرِج لك صوراً حسية تكاد تلمسها باليد: صوراً لها قوة الأخذ ومتين التناسق والترتيب . ولا غرو فالعقل الراجح والطبع الملهم والتمكن من القريض كل أولئك كانت عوامل مجتمعة على موافاته بالحكم الرائعة وبث الحمية واستنهاض الهمم فى أسلوب راقٍ ممتع .

أذكرْ له إن شئتَ مثال التضحية وكيف أنها أساس الحرية وبها توطد العروش:

تاجٌ ترَى فيه إذا قلَّبْتَهُ جُهْدَ الشَّريفِ وهمَّةَ الصُّعلوكِ
خرَزاتُه دمُ أُمَّةٍ مَهضومةٍ وجُهودُ شعبٍ مُجْهَدٍ مَنهوكِ

وتراه يبدع فى ضرب الامثال للجاهل الاحمق إذ يقول :

يا طيرُ والامثَالُ تُضرَب لِلَّبيب الأمثَلِ
دُنياكَ مِنْ عاداتِها ألاَّ تَكونَ لأعزَلِ

وما أحرصه على أن يكون باحثاً عن الحقيقة ولكن فى مناط العقل ، فتراه فى وصف نابليون يبالغ ولكن فى احتراس إذْ يقول :

كِدْتَ مِنْ قتْلِ المنايا خبرةً تعلم الآجالَ أيانَ تحينْ

وإذا كان لنفس الشاعر خطرات وجموح تندّ عن الحقيقة وتعجب بالخيال لأنه الخيال فقد كان الرجل كأنما أعجب بقول القائل :

وأخفتَ أهلَ الشّركِ حتى أنه لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخلقِ !

فكان عند هذا الخيال الشارد يجاريه بقوله :

تُعَلِّمُ حِكْمَتُهُ الحاضرينَ وتُسْمِع فى الغابرينَ النُّطَف !

شوقى الأول

وما كان الفقيد ليجحد نعمة تقلب فى اكنافها وجر مطارفها فى قصر مولاه . وما كان ليرضى بولائه له كسائر رعيته فحسب دون أن يصوغ له بُرُدَ الثناء فى كل مناسبة ، بل رأى أن يقف شاعريته التى كفلها مولاه وأحاطها بحدبه ورعايته على البيت الكريم وآله .

وما كان لشاعر مهما سمت بيئته وزكت أرومته أن يتخذ لوناً واحداً فى معظم شعره يستطيع فيه أن يزاوج ويباين فى عباراته ويجدد فى أساليبه حتى يأخذه الأَين ويعيا بمـا أخـذ . أما شوقى فقد خضع لهذه النظرية على الجملة فى دوره الأوّل ولكنك تحسّ بروح عالية وعبقرية وفية تطالعك فى شذرات تَقْدُرُ فيها ملكه الشاعر وتتوسم لهذا الشعر اليافع حياةً أحفل وأروع . ذلك اللون من الثناء والمدح

والوصف الراق الذى قدَّمتُ لك قد انتظم الجزء الأول من ديوانه فى جل منظوماته إذْ كان يتلمس لها السبيل ويستطرد اليها فى كل مناسبة .

شوقى الثانى

حتى اذا تطور الزمنُ وعصفت بالبلاد هوجُ الحوادث لفّتْ فيما لفّتْ هذا الشاعر وكان ذلك بداءة فتح جديد لشوقى الجديد .

على أن ذلك الشيخ الشاب انما كانت تسعده الحوادث ويمده حدثان الدهر فى أخريات أيامه . وتلك فرص إن كانت لم تواته فى مقتبل حياته فانها أَمْلَتْ له حتى يستجمع قواه ليخرج لنا درر المنظومات ومنظومات الدرر موسومة بطابع جديد يتلاءم مع نهضة فكرية علمية ، فما كان لشوقى الموالى للبيت الكريم وآله أن يظل قابعاً فى مجثمه والزمن يمر من حوله سراعاً دون أن ينزل منه فى المعقد والإزار . بل آثر أن يمرح فى جناب الأدب الخصيب، فتفنن ما شاءت له روحه الفياضة وما عنَّت له شاعريته حيث كانت تدفعه بعنف إلى مطابقة الحياة فى ألوانها ، وإلى موافاة كل حدث جَلّ أو صغر بخلجات نفسه ووحى وجدانه وشعوره الحى نحو نهضة العالم عامة وأمته خاصة، فترى له طاقات ومجاميع من نفثات قلبه فى المؤتمر الشرقى الدولى ، فى مشروع القرش ، فى تخليد ذكرى الدرويش ، فى نجاء توت عنخ آمون ، فى خلع السلطان عبد الحميد ، فى الدستور الجديد ، فى مؤتمر الائتلاف ، فى كل لون من ألوان الحياة التى لايستوعبها الحصر .

وما كان للشاعر المفرد أن يكثر كل هذا الاكثار فتكثر عليه المآخذ وتتخلف بالرغم عنه سواقط فى عجلته هذه ويكون من التاريخ موضع البحث والتمحيص لولا أن الفقيد لم يشأ أن يخدع العالم فى شاعريته وأن يحتجن دون الناس ماهم فى مسيس الحاجة اليه نخاض غمار الأدب مدجَّجا بالعزيمة مليئاً بالثقة من نفسه يحاول أن ينهض بالأدب وحده ويؤثر أن يتحمل أعباء طوره فكان عصراً حافلا بالأدب وحده .

نثره أخيراً

على أن ربَّ القريض أنف أن يكون صاحب راية القريض بينما تخفق الراية الأخرى فى العُدْوَة الثانية لغيره. كبر عليه ذلك فرأى أن يَلِجَ بابه ولوجاء مصلياً

وارتاح إلى ثرائه وذيوع شعره وإشادة الدنيا بذكره فاستمدَّ المعونة من قريضه لمنثوره وأتى بشذرات صاغها اسماطاً وقلائد، وهى وإن كانت فى جمهرتها قوية حفيّة بالأكبار إلا أنه كان يركب أحياناً مَتن الاعتساف فترى المـاء الصافى السلسال الذى تتذوقه فى شعره يكاد يغيض ، وترى نفاراً بين مسجوعه فى قوله فى الموت :

« وإذا الملك والسوقة سواء . حقيبة المنية كل يوم فى ركاب ، من مناكب ورقاب ، تحمل الشيب والشباب الى رحى البلى فى اليباب ، فيدور عليهم الدولاب ، فاذا هم حصى وتراب ! »

حفله بالحوادث التاريخيـة

أما اضطلاع الرجل بالتاريخ والمامته بالعلوم فكانت جل عنايته فى شعره ونثره فتراه يطالعك فى مستهل قصيدة بقوله :

اللهُ أكبرُ كم للفتْح مِنْ عَجبِ يا خَالد التُّرك جَدِّدْ خالدَ العربِ

وتراه ينتقل فى موضع آخر يذكرك بحديث يوشع وشمسه بقوله :

قِفى يا أختَ يوشع خبرينَا أحاديثَ القرونِ الغابرينَا

ثم هو فى موقف آخر يبيح للعـالم الضليع البحث والتمحيص ، يشبهه فى ذلك بأهل بدر حيث يقول : « والعـلم بدرىّ أُحِلّ لأهله ما يصنعون » .

ولم ينس أن يغترف من التاريخ الحديث ما يضمنه شعره المحدث حيث يقول فى رثاء نابليون :

حول استرليز كانـ الملتقى واصطدامُ النسر بالمستنسرينْ

ذلك ما نعدُّه مخلداً للتاريخ وما نَعُدهُ التاريخ مخلداً له من ناحية أخرى .

إلا أنه قد يُحسُّ الشاعر بثورة فى نفسه ووخز ضميره تناله منهما اللوعة والحسرة فتفيض نفسه بالحوادث يستروح بها فى كلامه ويخفف من لواعجه فتراه يسرف فى ذكر سلسلة منها للشيء الذى يتناوله حتى ليداخلك الشك أنه موكل بذكر فذلكة تاريخية لهذا الشيء ، وماذلك الا نفثة المصدور وزفرة الملىء . فتراه يسرد لك فى وصف قناة السويس بعد مطلع بديع شيئاً عن اسمعيل والتقاء الأحمر بالأبيض وموسى الكليم ويوسف وروح الله والعـذراء والاسكندر وعمرو بن العاص ونابليون . وتراه فى موطن آخر يسوق هذا الحشد حين يأتى على مناجاة الأهرام يقول : « فى هذا الحرم

درج عيسى صبياً ، ومن هذا الهرم خرج موسى نبياً ، وفى هذه الهالة طلع يوسف كالقمر وضياً ... »

مسرحياته

عرف الناس فى شوقى الشاعر النابه المجدد فذهبوا يلهجون بذكره ويكبرون شعره ونثره حتى ذهب بهم الغلو الى حد تقديسه وتمجيده! وكلما طالعهم بقول عَدُّوه نسيج وحده وبهرتهم جدته فأنستهم قديماً قِيلَ وراعتهم صَبْوَةُ الانتصار لشوقى فرانت على قول غيره من الشعراء السابقين . وما كان ذلك إلا حافزاً للرجل يهيب به إلى الدأب والاجادة ليحقق للتاريخ ما أشاد به قومه ، فأخرج الغريب من الروايات المسرحية مما عُدَّ مفخرةَ العصر الحديث ورأى أن قد سبقه الى فكرته سيد القريض الشاعر الضليل وقفى على نسجه شاعر الحب والغزل ابن ابى ربيعة وترسم من أتى بعدهما طريقهما . رأى ذلك ثروة حازت الاعجاب فجعلت لهم ناحية مفردة فى التاريخ فعمل على ان يضيف الى هذا التراث ثروة خصبة حضرية عصرية فاستعدى على المجنون شاعريته وخياله تترضّاه فى ان يخرج من شعره الخالد قصصاً تمثيلياً مفرداً فى بابه فكان قريضاً أرضى المجنون برصانته وجدته وكثرة مائه ، وما عتم أن تابع ذلك برواية قمبيز التى قامت لها قيامة النقاد . فلم توهن من عزمته فأخرج رواية عنترة وأميرة الاندلس وما كان حين أخرج مصرع كليوباتره أو على بك الكبير إلا مخرجاً للقصة الدرامية فى مغزى رائع التأثير أَخَّاذٍ بالنفوس .

تفاعله الأدبى

قلما ينبه العظيم فيُسْعِدُ الامة بنباغته ويَسْعَدُ هو على حساب ثروته إلا أن يكون فوق اجادته لما أخذ به نازلا من أهل الأدب عند ما يرضى الناس والأدب ، وذاهباً مع الساسة والمفكرين بما يرتاح له الفكر وتصبو اليه النفس اذا فنيت فى حب الوطن . وما كان أخلق شوقى ان يكون ذلك الانسان فقد سعد لا بالثراء يحوز منه الكثير لأنه ما طمحت نفسه إلى ثراء المال وحده بل ليكون رب الدولتين ، وكأننى بروحه الجياشة بالآمال وبُهمَامَةِ نفسه التى ما فتئت تلج به ان يكون فوق ما يمكن ان يكون تدفعه دفعاً الى الغاية التى لا يقدر مناطها غيره فما وجدناه متطامناً مرتاحاً لما وصل اليه من إمارته لدولة الأدب فى جميع ألوانه ، وما قنع الناس منه على ثرائه وجدّته بما أخرج لأنهم رأوا فيه معيناً لا يَنْضُبُ فسعدوا وسعد ، وما أدوم سعادتهم وما أخلد سعادته ؟

محمد رزق الرهشانه

احمد شوقى

ذكريات [١]

لقد يكون من مفاخر حياتى الصحفية أنى لقبت احمد شوقى بك فى سنة ١٨٩٩ على صفحات « الاهرام » وأنا حديث العهد بتحريرها بأمير الشعراء ووصفت قصائده « بالشوقيات » ، وكانت « الاهرام » يومئذ الميدان الوحيد لخياله الراق . وكان المرحوم صاحبها بشارة تقلا باشا الذى رثاه احمد شوقى بالبيت المشهور الذى ذهب أحد شطريه مذهب المثل : « رجل مات والرجال قليل » من أكبر المعجبين بشوقى وبشعره وبذكائه وحصافته .

ولا أدعى جواز اطلاق هذا اللقب على شوقى أكبر شاعر فى عصرنا على ما اعتقد وقد يكون أكبر الشعراء فى العصور الخوالى أيضاً لأنه جمع بين الحضارتين القديمة والحديثة والأسلوبين العتيق والجديد ووفق بين الطارف والتليد . ولكن متابعة الكتاب والادباء للاهرام فى ذلك حتى اليوم أعطت للقب مكانته وأحلته المحل الذى أريد منه وأريد له وكذلك وصف قصائده ، ولما ظهر حافظ ابراهيم بشعره الرائع أطلقت عليه « الاهرام » لقب « شاعر النيل » فأقر الكتاب والصحف ذلك اللقب. ولا أدرى من الذى لقب خليل مطران بعد ذلك بشاعر القطرين وامام الصناعتين ولكن أدباء تلك الأيام وشعراءها كانوا يضعون احمد محرم فى هذا الصف صف الثلاثة ، وكان المرحوم اسماعيل باشا صبرى الذى كانوا يلقبونه بحق وصواب باستاذ الشعراء يتغنى بشعر هؤلاء الاربعة ويطيب له التحدث عنهم، واذا نظم أحدهم معنى مبتكراً يهتز له طرباً ويُهزّ به مدحاً وترديداً . وكان يقول إن شيطان الشعر يحلق بشوقى حتى يغيب عن مداركنا وخيالنا . أما السبب الذى دعا الى تلقيب احمد شوقى بأمير الشعراء فهو أن الخديوى عباساً كان يهمل شوقى بعض الاهمال لاعتقاده ، بل لأنهم أدخلوا على نفسه ، أن أحمد شوقى «شاعر» فقط . وانه هو بحاجة الى رجل سياسى لما كان بينه والانكليز من الكفاح والجلاد فاجتمع لازالة هذا التوهم من صدره المرحومون بطرس باشا غالى (وقد كانت به نزعة للأدب والادباء) وبشارة باشا تقلا ومصطفى باشا

(١) آمل من القراء اغتفار كلمة الانانية لان مجلة (ابولو) تطلب منى ملحة ذكريات شخصية بحتة .

كامل. وكان بطرس باشا يطلب من الخديوى أن يسمح له بتوظيفه شوقى فى الخارجية بضعفى مرتبه الذى كان يتناوله من قلم الترجمة فى السراى، وكان بشارة تقلا باشا يعرض على سموه مثل هذا العرض ليوليه تحرير «الاهرام» فتأييداً لذلك وضع شوقى فى مكانه من الأدب وامارة الشعر الى أن قربه الخديوى وناط به كثيراً من المهام فقام بها خير قيام . فأولاه ثقته وقدمه على جميع رجاله وطرد من خدمته حسين زكى وزامر الذى قال صاحب « مصباح الشرق » يومئذ فى وصف خروجه من السراى : «إن خروج زامر من المعية ألذ من خروج البرغوث من الاذن » . وبعد أن كان الكتاب يلقبون شوقى بأمير الشعراء أعطاه الخديوى بعد انعاماته الكثيرة التى غمره بها لقب « شاعر الأمير » .

* * *

كان احمد شوقى بك يسكن داره فى حى الحنفى والشيخ زكى سند مؤسس «جماعة مكارم الاخلاق » يسكن فى حارة السقايين وكنت أسكن فى ذلك الحى . فكنا متجاورين وكنا فى كل صباح نلتقى فى الطريق فيذهب شوقى الى سراى عابدين والشيخ زكى الى مدرسة اليسوعيين للتدريس وأذهب أنا الى ادارة جريدة « المحروسة » . فكان الكثيرون من الأزهريين الذين لا يصدقون ان خريجاً من خريجى مدارس فرنسا كاحمد شوقى يستطيع قرض ذلك الشعر الراقى كقصيدته فى الخديوى توفيق :

لك مصر يجرى تحت عرشك نيلُها ولك البلادُ عريضُها وطويلُها

وكقصيدته فى مؤتمر جنيف :

همتْ الفلُك واحتواها الماءُ وحداها بمن تقلّ الرجاءُ

وكلتا القصيدتين كان الطلبة يحفظونها . فكانوا يقولون أن الشيخ زكى سند صديقه هو الذى يساعده فى نظم هذه القصائد لما يرونه بين الاثنين من الصداقة ولاجتماعهما كثيراً لأنّهما من حىٍّ واحدٍ .

كان شوقى لايتعرض للسياسة فى شعره ، فلما قربه الخديوى ووكل اليه الكثير من الشؤون السياسة تحولت قصائده من الخيال البحت والحكم والوصف الخ. الى السياسة التى كان يتأثر بها كمدحه السلطان عبدالحميد لأنه شاعر أمير مصر ولحملته على رياض باشا فى حادثة الحدود وقد زار الخديوى الجيش وانتقد نظام إحدى الأورط فعدّ اللورد كرومر ذلك اهانة لكتشنر باشا طلب من أجلها الترضية، وكان رياض باشا رئيس الوزارة فتبرأ من عمل الخديوى وذهب الى الفيوم حيث قابل سموه واستصدر منه

تلغرافاً الى كتشنر باشا يثنى فيه عليه وعلى نظام الجيش وكحملته على هذا الوزير عند افتتاح مدرسة محمد على الصناعية لأنه ألقى خطاباً قال فيه للورد كرومر أنه يعتمد عليه فى انجاح الجمعية والمدرسة . وقبل أن يطلع صباح اليوم التالى طلع شوقى على الجمهور بقصيدته التى يقول فيها :

كبيرَ السابقين من الكرامِ برْغمى أن أنالك بالملامِ
مقامُك فوق مازعموا ولكن رأيت الحق فوقك فى المقامِ
خطبتَ فكنت خطباً لاخطيباً أُضيفَ الى مصائبنا العظامِ !

وكقصيدته فى اللورد كرومر يوم وداعه وكانوا قد عقدوا له اجتماعاً فى الاوبرا ليتمكن من الخطابة . وحضر الاجتماع الامير حسين كامل فألقى اللورد كرومر خطابه الشديد اللهجة فذم عصر اسماعيل على مسمع من ابنه وحمل على المصريين لأنهم لم يقدروا عمله فى تحريره أصحاب الجلاليب الزرق ، فنظم شوقى قصيدته المشهور التى يقول فى مطلعها :

أيامُكم أم عهد اسماعيلا أم أنت فرعون يسوس النيلا ؟!

فقابلها الرأى العام بالارتياح العظيم لان اللورد كرومر آلم المصريين فى كرامتهم حتى أن السيد حسن موسى العقاد الذى كان يقف فى وجه الخديوى مستنداً الى ذراع اللورد كرومر أرسل اليه تلغرافاً وهو يركب الباخرة من بورسعيد ضمّنه أشد اللوم للورد على كلامه القارص .

ولما عاد احمد عرابى من منفاه هزت روح عودته وهو على ما كان عليه من الكبرياء شاعر السراى شوقى فقابله بقصيدته :

صَغارٌ فى الذهابِ وفى الايابِ أ هذا كل شأنك يا عرابى ؟!

على أن تحول شوقى الى السياسة وتحول شعره اليها لم يحوله ولم يحول شعره عن بعض الصداقات العالقة بشغاف قلبه كصداقة المرحوم مصطفى كامل فانه رحمه الله قطع صلته بالسراى الخديوية بعد اتباع الخديوى سياسة الوفاق مع السير الدن غورست ووجه مصطفى كامل يومئذ كتاباً مفتوحاً على صفحات الصحف الى الخديوى وكان هذا الكتاب شديد اللهجة، ولكن ذلك لم يقطع ما بين شوقى ومصطفى كامل حتى أن شوقى كان المواسى الوحيد لمصطفى فى ابان مرض الموت وقصيدته فى رثائه من أروع الشعر. نظمها شوقى فى الليل ونشرت فى الصباح وذهب مذهب المثل قوله فيها :

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له إنّ الحياة دقائقٌ وثوانِ

كانت الحادثة من الحوادث تقع صباحاً فلا يحل المساء حتى تذاع بين الجمهور وبقصيدة شوقى لأنه كان للحوادث تأثير شديد عليه يهز اعصابه ويستثير نفسه ويحفز خياله . وكان أكثر ما ينظم الشعر وهو ماش أو واقف أو جالس الى أصحابه يغيب عنهم بذهنه وفكره . فقلما يجلس الى مكتبه للتفكير وعصر الذهن ، فاذا جلس الى المكتب فلتدوين ما يكون قد نظمه واستوعبه فى ذاكرته . فبين سيكارة وأخرى يجد فكرته وبين كلمة وأخرى يجد الظرف الموافق لهيكل الفكرة وكان شديد الحذر ينتقى ألفاظه كما ينتقى معانيه ، لأنه كان شاعراً سياسياً فى كل أشعاره وفى كل أطواره الشعرية .

ولو أن قصائد شوقى ومنظوماته جُمعت بالتتابع مع مراعاة زمن نظمها والظروف التى دعت الشاعر الى النظم وبيان ما فيها من اشارة وتلويح وتلميح لكان من ذلك فى نظرى وعقيدتى أجل ديوان ولكان هذا الديوان أصدق تاريخ لحوادث مصر منذ عهد الخديوى توفيق الى اليوم. وأما جمع ديوانه على الطريقة التى جمع فيها بعض شعره فى العهد الأخير فعمل لا يفى شعر شوقى مقامه من الشعر والتاريخ معاً .

ولربما كان الامر سهلا بعض السهولة اليوم ، ولكنه يصير مستحيلا بعد بضع سنين إلا إذا كان شوقى قد دون ذلك بيده كما كان يعد ؟

داود بركات



صورة من شوقى

لست متعنتاً ولا مسرفاً اذا قلت : ان شوقى آخر حسنة فى الشعر العربى جادت بها الطبيعة ، وسلبنا الموت اياها . ولم أرم بذلك القول باطلا وذلك لان الدنيا أصبحت عقيماً فى الرجال ، بل استطيع أن أقول إنها تستطيع ان تلد للنبوغ أعظم من اكنر و لندنبرج وغيرهما من أفذاذ المادة ، ولكن هيهات ان تطلع أفذاذاً من ابطال الروح والخيال السامى كشوقى ، لان الفن الخالص من المادة قد تقلص من هذه الدنيا وطغى عليه الفن المادى ، وان رجال الجمال من هذا الفن اذا اخترم الموت منهم واحداً فلن تعوضنا الدنيا عن مثله ، وناهيك بشوقى الذى كان فى الطليعة من هؤلاء الرجال .

ولستُ مسرفاً اذا قلت ان قصيدة شوقى فى النيل أروع قصيدة عرفها الشعر العربى من لدن امرىء القيس بن حجر الى عصرنا هذا .

لست متعنتاً اذا حدثتك أن شوقى بزّ المتقدمين من أمثال أبى تمام و البحترى و أبى العلاء فى عيون قصائدهم .

فقد جارى الاول فى بائيته ففاته ، والثانى فى سينيته فسبقه ، والثالث فى فائيته نخلفه وراءه . وانك لجد مشدوه اذا علمت ان هذا الرجل الذى تحسّ وأنت تحادثه أنه نصف أوروبى يأتى بهذا الشعر الذى يعجز عنه هؤلاء الفحول فى عربيتهم .

عرفتُ أمير الشعراء بشعره وكنت فى الخامسة عشرة ، وكنت وقت ذاك فى اقليم من الصعيد أجلس فى أويقات الاصيل مع صديق من سنى قبالة دارنا ، وكنت أحسّ بالشعر كما يحس طفل فى سنى ، وكنت أقرأ أنا وصديقى فى الشوقيات فيفوتنى اكثرها واتفهم أقلها ، ولكنى كنت معجباً بشوقى كما يعجب الطفل بأبيه وكنت أروى منها أبياتاً لأترابى مجرّحة فى عربيتها ورويها . ولا زال اعجابى بالرجل يكبر معى حتى طرحتنى الطوارح ولزتنى السنون ، ولا زلت أذكر يومى السعيد يوم تقدمت الى أمير الشعراء للتعرف به ، وكان ذاك عقب قفوله من منفاه فى سنة ١٩٢٠ . كنت فى دار للخيالة رفقة أستاذ كريم ، من رجال الجامعة القديمة، وكان الظلام قد بدأ يغشانا ، وقد أخذ دوىّ الآلة فى أزيزه منذراً بابتداء عرض الصور ، فاذا بصاحبي ينبهنى الى رجل قصير ضاوٍ ممسك بعروة سترته ، يسير رافع الرأس ، وخلفه ثلاثة يميلون الى الطفولة أكثر من ميلهم الى الشباب ، ويقول : شوقى ! فتشوقت فى كثير من الفضول وأدمنت النظر حتى حلّ الرجل فى كرسيه يتبعه هؤلاء الثلاثة ، ثم عم الظلام مطبقاً وعرضت الصور ولكنى لم أتبين منها شيئاً فقد ظلت نفسى منصرفةً الى هذا الداخل ، وأخذتُ أعمل الرأى ، كيف استطيع التعرف الى هذه الشخصية الفذة ؟ فقر رأيى على التقدم اليه فى نهزة الراحة بين عرض الصور ، وأخذنى زمعٌ شديد ، حتى أنى لم أكاشف صاحبي ببغيتى ، فما تكشف الظلام حتى بادرتُ اليه تاركاً صاحبي مدهوشاً ، وكشفت له عن نفسى ، وأعلنت أنى ممن ينظم الشعر ، وأود ان يسمع منى بعض ما قلت ، فتبسم رحمه الله ونظر الى كبير هؤلاء الثلاثة وقال : ياعلى ! ما مواعيد الغد ؟ فأجابه من ورقة صغيرة عنها . فالتفت الىّ وقال يسرنى ان تزورنى غداً فى الرابعة بعد الظهر فى المطرية . فسلمتُ شاكراً وعدت ، وحدثت صاحبي بما حدث فهنأنى .

أشرق علىّ الغد ، وكان يوما صائفا ، وقد بكر الحر فى شهر مايو وحل الموعد فأدركتنى حيرة : هل أتخلف لمكان هذا القيظ لانى رأيت انه لا يليق ازعاج شاعرنا العظيم فى قيلولته ، أم أبادر بحثنى هذا الشوق الذى ينتابنى للمكث لحظة مع أمير شعرائنا ؟ فاعتزمت قطار الضواحى وعرجت على كرمة ابن هانى ، وأرسلت مع الخادم بطاقتى فدعانى رحمه الله الى الطابق الثانى ، فاذا أنا بهذا الشاعر الذى قد أتى بالمعجز يكاد لا يبين فى كرسيه اللين وقد انتضى عنه سترته . فرحب بى برقة أنستنى الفارق العظيم الذى بينى وبينه ، فاسمعته من نظمى قصائد استحسنها رحمه الله رقة منه وعطفاً.

ثم تحادثنا فى شؤون أخرى ، ولن اكذب الله فقد أدركنى شيء من خيبة الامل فقد كنت أحسب ان شوقى لا ينطق الا شعراً ، ولا يتحدث الا شعراً ، ولا يسير الا بالشعر فاذا به غير ذلك ، مثلى ومثلك ! اوكان يتنكب الشعر فى كلامه ولا يشير اليه فى حديث . وكنت احفظ من قصائده الكثير ، فكنت أسأله فى بعض معانى هذه القصائد فكان يجيبنى إجابة رجل لم يقل هذه القصائد ، ولم ينظمها ! فحضرتنى عند ذلك كلمة لفولتير ، قالها عن نفسه : وهى أنه عند ما كان يكتب يخيل اليه ان آخر كان يتولى ذلك عنه ، وكان يتهم نفسه عند قراءة كلامه !

ثم اتصلت بعد ذلك بشوقى اتصال ولىّ او قريب ، كنت ألقاه كل ليلة فأحسّ بروحه الشعرية تظلل المكان .

كنت اعرّج على مكتبه بين الخامسة والسادسة مساء ، حيث كنت ألتى ولديه وهما صديقان حبيبان لى ، وكنا لا نفترق ، وكانت هذه احدى حسناته الىّ رحمه الله ، فكنا نجلس يؤلفنا الشباب بمرحه ، وكنا نتنادر طوراً ونجدّ طوراً آخر حتى اذا أظلتنا السابعة طرق آذاننا صوت حذاء يحتك بالارض فنحذر جميعاً أنه هو ، فلم نلبث طويلا حتى يطل علينا ببسمة حلوة ، ما ذكرتها اليوم الا وجدت على قلبي منها غمزاً ، ثم يفيض معنا فى شؤوننا حتى تحسبه كأحدنا ، ثم ينقطع كل هذا فجأة ، ويرجع الى نفسه فيصبح كأنه ليس معنا ، فهناك تسمع غمغمة كأنها آتية من غور بعيد ، كما يقول أستاذنا مطران ، ثم لا يزال بين ذلك يمسح على جبينه بيده ، ونحن عند ذلك سكوت ، فاذا بلغ آخر مناجاة نفسه ، هبّ واقفاً وتركنا من غير ان يسلم أو يبتسم .

وكان رحمه الله لا يذكر ما نظمه من قصيد رائع فى زمنه الخالى . حدث أنى كنت أماشيه يوماً وكنت قد قرأت فى صبيحته قصيدة فى «عكاظ» نسبها صاحبها اليه وكانت القصيدة لمطران ، وهى فى بعلبك ، فحدثته فى ذلك وتلوت عليه مستهلها فقال : لا أعلم ربما تكون لى ، لأنى قد نظمت كثيراً . فقلت إنها لمطران وقد التبس على صاحبه «عكاظ» ، فأجابنى مبتسماً : لقد ضاعت على مطران المسكين ! ولم نلبث فى مسيرنا طويلا حتى طلع علينا صاحب «عكاظ» مسلماً، فحاجّه رحمه الله فى هذه القصيدة ، فأصر صاحب «عكاظ» أنها له ، وأن رقتها وسلامة لفظها أخلق به، فأصررت أنا أنها لمطران ، وقد قرأتها فى ديوانه ، فاستطال علىّ صاحب «عكاظ» عفا الله عنه، وألح فى تأييد رأيه ، فقال له : ياشيخ فهيم ، ارجع الى مصادر هذه القصيدة وتبينها فانى لا أحب أن أغصب أحداً حقه ؟ وانصرفنا ، فاذا بكتاب من صاحب «عكاظ» يعتذر فيه الىّ من الغد وقد أصلح ما تورط فيه من خطأ فى العدد التالى لظهور هذه القصيدة .

ولو شئت ان أعدد من حسنات شوقى الكثيرة لملأت كتباً فقد كان رحمه الله فريداً فى كل شىء ، فى خلقه وفى مروءته وفى برّه ، ولن نظفر بمثله بعده .

طيب الله ثراه ورحمه رحمة تعادل ما أحسن به الى اللغة والأدب والخيال ؟

احمد محفوظ



شوقى امام التاريخ

شخصيته وحكمته المطبوعة

تمهيد

اتفق الى أن كتبتُ فصولاً مطولة عن شعر شوقى فى سنة ١٩٢٥ وهى فصول منزهة عن الغرض يجدها القارىء فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين . ويعزّ علىّ أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية، وكان شوقى عوّدهم التطلع الى مائدته الفاخرة وجيبه الثقيل ! وكانوا كلما احتاجوا الى «بره ومعروفه» طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من نقائص وعيوب ، وكان الرجل يغار على شعره غيرة الكريم على عرضه ،

فكان يخرس ألسنتهم ، ويقصف أقلامهم ، بالهدايا والهبات . وقد ظن أولئك أولئك المساكين أنى أكتب عن شعر شوقى لنفس الغرض الذى يسوقهم ويحفزهم الى الكتابة عن شعره ، فكانوا يتقدمون الىّ ناصحين ، وكان نصحهم يتلخص على اختلاف ألوانه فى هذه الكلمة الطريفة : « ان شوقى لا يحترم من ينصفه ! »

والاحترام الذى يفهمونه هو السخاء والكرم والجود ، وهذا النوع من الاحترام يبدو لعينى بغيضاً ممقوتاً لا يتطلع اليه إلا سفلة الناس . وليت شعرى كيف يحتاج الرجل الى هبات الاغنياء ورغيفٌ واحدٌ يكفيه يوماً وليلة ، وليس بطن الانسان إلا وعاء حقيراً لا يستحق أن تذل فى سبيل ملئه النفوس ! ولكن هذا هو الذى وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف الموجع ، وقد استطاع أولئك المرتزقون أن يشوهوا النقد الأدبى أبشع تشويه ، وأن يقلبوا الحقائق الادبية قلباً كريهاً ، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقول كلمة الحق إلا مأخوذاً بغرض دفين.

وقد عرفتُ بالتجربة أن شوقى كان كما وصفه أولئك الواصفون لا يحترم من ينصفه ، وتجلت لى حقيقة ذلك فى سنة ١٩٢٨ يوم قدم طاغور مصر وأقام له فى داره حفلة استقبال . كنت يومئذ مدرساً بالجامعة المصرية وكنت صديقه وكان الدكتور طه حسين من خصومه الألداء ، فدعا الدكتور طه لاستقبال طاغور فى منزله ولم يدعنى ، لأن الدكتور طه كان موظفاً فى الدرجة الثانية وكنت موظفاً فى الدرجة السادسة ، وفرق ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التى يفهمها جيداً أمير الشعراء الذى عودته الحياة الرسمية أن يحترم الرسميات ! ثم وقع يومئذ ما هو أبشع من ذلك : فقد كان دعا المسيو ساروليا ثم علم أن الجمهور هاج على ذلك الاستاذ لكلمة ندّت فى محاضراته بالجامعة المصرية ، فكتب اليه شوقى ينبئه بأنه « سحب الدعوة » وانه يرجوه ان يريح نفسه من الحضور لدار الكرم والجود « كرمة ابن هانىء » على أيامها وأيامه تحية وسلام !

وكانت هذه أيضاً فرصة طيبة عرفت فيها أخلاقى : فان تلك الهفوة لم تنقص تقديرى لشوقى ، شوقى الشاعر . أما شوقى الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة ، وعدتُ لا أقابله حين ألقاه مصادفة إلا بنفس الزاهد العيوف . وقد اتفق أن تلاقينا عفواً فى بهو الكونتننتال فى ربيع سنة ١٩٢٩ وكنت مع الدكتور منصور فهمى ، فسألنى شوقى عن انصرافى عنه ، فأجبته بكلمات فيها جفاء ، فالتفت الى الدكتور منصور وقال : إن شوقى بك والد الجميع ، وأنشد :

نميــــل على جوانبه كأنّـا نميـل إذا نميل على أبينَـا
نقلّبه لنخبـر حالتيه فنخبر منهما كرماً ولينَاً

ثم توالت الأيام ، وكانت تزيد فى يقيننا بأن شوقى الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقى الذى يعرفه الناس كانسان اجتماعى يخطىء ويصيب بين الحق والواجب ، وكان أن رأيته لآخر مرة فى مسرح حديقة الازبكية يوم اجتمعنا لمعاونة الأديب محمود أبو الوفا ، وأسرعتُ اليه أحييه ، وأقبل أبو الوفا يسلم عليه . وكدت أصرخ فى وجهه : قبّـل يد الشاعر أيها الجاحِد فقد شرّف قدرك بشعره ! وكانت عاطفة طبيعية : فقد كان شوقى فى ذلك اليوم وهو محطّم مهدودٌ يبدو لعينى فى وقار الصّدّيقين . ولما علمتُ أنه سيقيم حفلة شاى فى داره لأعضاء (جمعية أبولو) خطر ببالى أن أسعى لحضور تلك الحفلة ، خشية أن تكون آخر مرة يرى الناس فيها أمير الشعراء ، ولـكنى رفضت أن أذهب بدون دعوة ، ثم كان ما مرّ بالبال صحيحاً ، وكانت آخر مرة يستقبل فيهـا شوقى رجال الأدب فى داره ، فياحسرتا على ما ضَيّعتُ من تلك اللحظات الطيبات !

لم أسىء يوماً الى شوقى الشاعر ، والحمد لله ، وإن كنتُ بعت حظى من شوقى الصديق ، وقد عانيت فى سبيل إعجابى بشعره نـكبات عديدة ، فان ناساً كانوا يودون لو هدموه ، ومن أولئك الناس رجالٌ احترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ، ولـكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلـكوا الى هدمه شتى الشعاب ، وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً وكان أصلب من أن تنـال منـه معاولُ الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخُلق والوطنيـة ، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان . والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقودٍ ، وستظل الاخلاق والوطنية دعامة يستند اليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع الى أدعياء الوطنية والاخلاق !

الخُلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقى أخلاقه ووطنيته ، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائعة .

الحكمة فى شعر شوقى

اول ظاهرة واضحة فى شعر شـوقى هى التماس الشاعر لغرائب الحكمة فى جميع القصائد والمقطوعات ، وقد آثرتُ أن أقف هذا المقال التقديرى على تلك الظاهرة البارزة فى شعره وهى ليست ملحوظة فى شعر الـكهولة وحده ، وانما ترجع الى ميل

في نفس الشاعر منذ صباه . ومن الجميل أن يكون الشاعر حكيماً ، ولكن الأجمل ان ترد الحكمة عفواً بلا تكلف ولا افتعال . وقد وقع لشوقي ان عقّ اسلوب القَصَص أحياناً كثيرة في سبيل الحكمة ، وغالب سياق القصائد رغبة في تدوين الكلام الحكيم . من ذلك قصيدته الهمزيه التي أنشأها منذ نحو ثلاثين عاماً لتلقى في المؤتمر الشرقي الدولي الذي انعقد في مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ . وهي قصيدة مطولة وصف فيها مصر وحكوماتها وأهلها منذ العهد القديم ، وجرى القصَصُ فيها مسلسلا لم يعقه الا التنقل الى الحكمة التي كانت تطرد أحياناً الى نحو خمسة أبيات مع أنه كان يكفي أن تقع في شطر بيت لتكون لفتة طريفة لاينقطع بها سياق الحديث . مثال هذا كلامه عما لحق مصر من الذل بعد عهد فرعون ، فقد وصل به هذه الابيات :

إن ملكتَ النفوس فابغ رضاها   فلها ثورة وفيها مضاءُ
يسكن الوحشُ للوثوب من الأسـ   ـر فكيف الخلائق العقلاءُ ؟
يحسب الظالمون ان سيسودو   ن وان لن يؤيَّد الضعفاءُ
والليالي جوائرٌ مثلما جا   روا وللدهر مثلهم أهواءُ

ثم عاد الى القصص فنظم ثلاثة عشر بيتاً عن رمسيس وسيزوستريس الذي وصفه بالتواضع وكره الكبرياء ، ودعاه هذا الى القاء الحكمة فقال :

يُولد السيدُ المتوّج غضّاً   طهّرته في مهدها النعماءُ
لم يغيره يوم ميلاده بؤ   سٌ ولا ناله وليداً شقاءُ
فاذا ما المملقون تولّو   ه تولى طباعه الخيلاءُ
وسرى في فؤاده زخرفُ القو   ل يراه مستعذباً وهو داءُ
فاذا أبيضُ الهديلِ غرابٌ   واذا أبلجُ الصباحِ مساءُ

وقد تطرّد الحكمة عند شوقي لغرض مقصودٍ فتأتي رائعة : مثال هذا قصيدته في مشروع ملنر ، وهي قصيدة كان يجب بترها من الديوان لولا حرمة التاريخ ، ومشروع ملنر كان فتنة من أخطر الفتن ، وكان ناس دعوا له واستدرجوا شوقي الى الدعوة له ، فكتبت ألومه في جريدة «المحروسة» ، فلما تلاقينا اعتذر بأنه قال القصيدة مأخوذاً بالحاح بعض الناس . والقصيدة دعوة الى الرضا بالضعف ، ولكنها من اظرف ما يُنوّم به الضعفاء ، ولم أجد في حياتي كلمة باطل صيغت في مثل هذا الاسلوب الطريف :

قد صارت الحالُ الى جدّها وانتبه الغافل من لعبهِ
الليث والعالمُ من شرقه فى هيبة الليث الى غربه
قضى بأن نبنى علــى نابه ملك بنينا وعلى خلبه
ونبلغ المجــد على عينه وندخل العصر الى جنبه
ونصــل النازل فى سلمه ونقطع الداخل فى حربه
ونصرف النيل الى رأيه يقسمه بالعدل فى شربه
يبيح أو يحمى على قدرة حق القرى والناس فى عذبه
أمر عليكم أو لــكم فى غدٍ ما ساء أو ما سرّ من غبه
لا تستقلوه فما دهــركم بحاتم الجــود ولا كعبه
نسمع بالحق ولم نطّلع على قنى الحق ولا قضبه
يَنال باللين الفتى بعضَ ما يعجز بالشدة من غصبــه
فان أنستم فليكنْ أنسكم فى الصــبر للدهر وفى عتبه
وفى احتشام الأسد دون القذى اذا هى اضطرت الى شربه
قد أسقط الطفرة فى ملــكه من ليس بالعاجز عن قلبه
يا رُبَّ قيــدٍ لا تحبونه زمانــكم لم يتقيــدْ به
ومطلب فى الظن مستبعد كالصبح للناظر فى قــربه
واليأسُ لا يجمل من مؤمن ما دام هذا الغيب فى حجبه

أليس يرى القارىء أن هذا باطلٌ صُوِّر فى أبرع اسلوب ؟ ومع هــذا فالشاعر حكيم فى طبعه حتى حين يتأنق فى تصوير الأباطيل ، فاننا مهما رميناه بالدعوة الى الضعف واللين لا نستطيع ان ننكر أنه كان أحكم الناس حين قال :

يا رُبَّ قيــدٍ لا تحبونه زمانكم لم يتقيدْ بهِ

فان الزمان قد يفك القيود حين يرى فيها مغالبة لطبيعة الحياة وحقوق الاحياء كما بدأ يفعل فى معاهدة فرساى .

وكان يطيب لشوقى أحياناً أن يبدأ قصيدة بالحكمة ثم يطيل كأنما كانت الحكمة غرضه المقصود ، وأكثر ما كان يقع ذلك فى قصائد الرثاء . ومن اوضح الشواهد فى هذا ما ابتدأ به قصيدته فى كارنارفون :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابِهِ كلُّ امرىء رهن بطىّ كتابِهِ
أسد لعمرك من يموت بظفره عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع أو لم ينم فالطب من أذنابه
داء النفوس وكل داء قبله هم نسين مجيئه بذهابه
النفس حرب الموت إلا أنها أتت الحياة وشغلها من بابه !
تسع الحياة على طويل بلائها وتضيق عنه على قصير عذابه
هو منزل السارى وراحة رائح كثر النهار عليه فى إتعابه
وشقاء هذى الروح من آلامها ودواء هذا الجسم من أوصابه !

تلك ثمانية أبيات فى الحكمة يجد بعدها القارىء أحد عشر بيتاً حاول الشاعر صبغها بصبغة الكلام الحكيم ، وهذه المقدمة الطويلة تبدولنا مستثقلة بعض الشيء لأننا نلمح فيها آثار الافتعال ، ولكنا نقف خاشعين حين نصل الى قوله فى وصف ذلك العالَم المجهول الذى يُسمَّى عالم البقاء :

يا صاحبَ الأخرى بلغت محلةً هى من أخى الدنيا مناخُ ركابه
نُزُلٌ أفاق بجانبيه من الهوى من لا يُفيق وجدّ من تلعابِهِ
نام العدو لديه عن أحقاده وسلا الصديقُ به هوى أحبابِهِ
الراحةُ الكبرى مَلاك أديمه والسلوة الطولى قِوام ترابِهِ !

وللقارىء أن يتأمل البيت الأخير فهو من أجود ما قيل فى وصف ما بعد الموت من قرار وسكون .

ولشوقى قصائد دعت اليها ظروف وقتية، ضمَّنها كذلك حِكماً وقتية ! فقصيدته فى العمال منظومة مفتعلة تحدث فيها عن الانتخابات البرلمانية لأن ظروفها اقتضت ذلك ، واسمع كيف يقول :

أيها الجمعُ لقد صر تَ من المجلس قابا
فكنْ الحرَّ اختياراً وكن الحرَّ انتخابا
انّ للقوم لعيناً ليس تألوك ارتقابا
فتوقع أن يقولوا : مَنْ عن العمال نابا ؟
ليس بالأمر جديراً كلُّ من ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو قدّ مَ جاهاً وانتسابا
أو رأى أمية فاخـ ـتلب الجهل اختلابا

والقوم الذين يعنيهم شوقى هم الانجليز ، والعمال مدعوّون ان يراقبوا الانجليز حين ينتخبون النواب ، والمطلوب ان ينتخبوا الدكتور محجوب ثابت ! ولكن هذه المنظومة لم تخل مع ذلك من أبيات حكيمة سبقت اليها فطرة الشاعر الحكيم حين أخذ يقول :

انّ لى نصحاً اليكم إن أذنتم وعتابا
فى زمان غَبِيَ النا صحُ فيه أو تغابى
اين انتم من جدودٍ خلدوا هذا الترابا
قلدوه الأثر المعجزَ والفنّ العجابا
وكسوه أبدَ الدهر من الفخرِ ثيابا
أتقنوا الصنعةَ حتى أخذوا الخلد اغتصابا !
انّ للمتقن عند الله والناس ثوابا
أتقنوا يحببْكمُ اللهُ ويرفعْكم جنابا
أرضيتم أن تُرى مصر من الفن خرابا
بعد ما كانت سماءً للصناعات وغابا ؟

وبساطة هذا الشعر من سِماتِ جماله وخصوصاً اذا لاحظنا انه يخاطب به طبقات العمال ، وخطابهم يفرض اليسر واللين فى العرض والأداء .

وليس من الغلو فى شىء ان نصرح بأننا معجبون أفتن الاعجاب بقوله فى هذه القصيدة يوصى بالادّخار اتقاءً لحوادث الأيام :

انما العاقل من يجعل للدهر حسابا
فاذكروا يومَ مشيبٍ فيه تبكون الشبابا
انّ للسنّ لهمّاً حين تعلو وعذابا
فاجعلوا من مالكم للشيبِ والضعف نصابا
واذكروا فى الصحة الدا ءَ اذا ما السقم نابا

وقد تبدو هذه الأبيات عاديةً عند من لا يتأمل فيما تشير اليه من اعقاب شيخوخة ذات الويل والعذاب ، ولنذكر دائماً انه يخاطب العمال الذين تغلب عليهم الغفلة عن مصائر من يهرمون وهم مُعدِمون .

ولا ينبغى ان تفوتنا هذه الفرصة فنهمل التنويه بهذه الظاهرة الغريبة فى حكمة شوقى : فان الرجل فيما يظهر من شعره ومن اخلاقه الحيوية كان مأخوذاً بالحرص على طيبات العيش ، وكان مشغوفاً بمعاودة التفكير فى الأخلاق المعاشية ، والأخلاق المعاشية هذه كلمة نراها انسب ما يُصوَّر به حرص شوقى على اسباب الحياة . وانظر قوله فى النحل :

مخلوقةٌ ضعيفةٌ من خُلُقٍ مصوَّرَهْ
ياأما قل ملكها وما أجلَّ خطره !
قفْ سائل النحلَ به بأىِّ عقلٍ دبّره
يجبْك بالأخلاق وهى كالعقول جوهره
تُغنى قوى الأخلاق ما تُغنى القوى المفكره
ويرفع الله بها من شاء حتى الحشره !

ليتأمل القارىء فى قوله « من خُلق مصوَّرة » ووصفه الأخلاق بأنها جوهرة كالعقول ، يريد انها هبة دقيقة خفية لا يعلم أسرارها غير علاّم الغيوب ، وهذا معنى لا يدرك الا بدقة التأمل ، فان الخلق الصالح خُلق العيش والحياة من الأسرار الخفية ، فكم ناس يُوَفَّقون فى حياتهم المعاشية ، وليست هناك أسباب ظاهرة لما رُزقوا من توفيق ، غير أن الخبير بأحوال العيش يعرف أن هناك دقائق نفسية وخلقية يتيسر بها العيش والرزق ، وإن كان أصحابها فى ظاهر الأمر من العابثين الماجنين . ولينظر القارىء ايضاً قوله :

أليس فى مملكة النحل لقومه تبصرهْ ؟
مُلكٌ بناه أهله بهمة ومجدره
لو التمست فيه بطا ل اليدين لم تره
تُقتل أو تُنفى الكسا لى فيه غير منذره !

وهذه صورة صحيحة لحياة النحل ، وفيها عبرة لمن يرون اختلال الجماعات الانسانية ثم لا يعرفون أن أسباب ذلك الاختلال ترجع الى مهادنة اهل البطالة والفراغ.

* * *

لننتقل بعد هذا الى الحكمة الفطرية فى شعر شوقى ، ونريد بها الحكمة التى تقع فى ثنايا القصيد من غير تكلف ولا افتعال . وشواهد ذلك كثيرة ، منها قوله يخاطب الخليفة مهنئاً بالعيد :

أمثلك يمنع الأوطان خيراً وانت خُلقت من خيرٍ طباعا ؟
شجاعاً كنت فى يوم عصيب توقّيها المحبـة والدفاعا
جنحتَ الى السلام فكان حلماً وقدماً زيَّن الحلمُ الشجاعا
ومن صحب الحياة بغير عقل تورَّط فى حوادثها اندفاعا

فان البيت الأخير وقع موقعاً طبيعياً لم يشنه تصنع الحكمة ولا اختلاق أسباب القول الحكيم .

وقصيدة نهج البردة تفيض بشواهد الحكمة الفطرية ، ولنقرأ هذه الأبيات :

رمى القضاء بعينىْ جؤذر أسداً يا ساكنَ القاع أدركْ ساكن الأجمِ !
لما رنا حدثتنى النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رُمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى جرحُ الأحبة عندى غير ذى ألم
رزقتَ أسمح ما فى الناس من خلق اذا رزقت التماس العذر فى الشيم
يا لائمى فى هواه والهوى قدَرٌ لو شفَّكَ الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك اذناً غير داعية ورب منتصتٍ والقلب فى صمم !

والأبيات الأربعة الأخيرة مضمخة بعبير الحكمة ، وأرقّها عندى وأوجزها قوله : « والهوى قدر » . وقد حدّثت الدكتور طه حسين عنها مرة فابتسم وقال : « وعدٌ مكتوب علىّ ومقدَّر على الجبين ! »

ولنقرأ قوله فى وصف الدنيا :

يا نفسُ دنياك تخفى كل مبكية وإنْ بدا لك منها حسن مبتسم
فضّى بتقواك فاهاً كلما ضحكت كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة من أول الدهر لم ترمل ولم تئم !
يفنى الزمان ويبقى من اساءتها جرح بآدم يبكى منه فى الأدم
لا تحفلى بجناها أو جناياتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحَم !

وقوله فى فخار الأصل بالفرع :

قد أخطأ النجم ما نالت أبوته من سؤدد باذخ فى مظهر سَنِم
نموا اليه فزادوا فى العلا شرفاً ورب أصل لفرع فى الفخار نُمى

وقوله فى شمائل الرسول :

محبة لرسول الله أشربَهـا ... قعائد الدير والرهبان فى القمم
ان الشمائل إن رقت يكاد بهـا ... يُغرى الجماد ويُغرى كل ذى نسم

وقوله فى صاحب البردة :

مديحـه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشهد أنى لا أعارضـه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم؟
وانما انا بعض الغابطين ، ومن ... يغبـط وليك لا يذمم ولا يلم

وقوله فى يتم النبي :

ذكرت باليتم فى القرآن تكرمة ... وقيمة اللؤلؤ المكنون فى اليتُمِ!

وقوله فى المفاضلة بين محمد وعيسى :

أخوك عيسى دعا ميتاً فقـام له ... وأنت أحييت أجيـالاً من الرمم
والموت جهل فان أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل أو فابعث من الرجَم

وقوله فى حرب من لم يغن فى تقويمهم السلم :

لما أتى لك عفواً كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهّـال والعمَم
والشر إن تلقه بالخير ضِقتَ به ... ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم!

وقوله فى فضل الحرب :

دعوتَهم لجهادٍ فيه سؤددهم ... والحرب أسُّ نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات فى زمن ... ما طال من عَمَـد أوقرّ من دعَم
تلك الشواهـد تترى كل آونة ... فى الأعصر الغُـرّ لا فى الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش واعتلت سُرُرٌ ... لولا القذائف لم تثلم ولم تُصَم

والحكمة هى قوله: « والحرب أس نظام الكون والأمم » ، ومابعدهذا الشطر جرى مجرى الشرح والتقرير ، وقوله فى فضل العدل على القوة :

واترك رعمسيس : ان الملكَ مظهرهُ ... فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرَمِ

ويطول القول لو مضيناً نستقصى ما اتفق لشوقى من روائع الحكمة الفطرية ، وانها لتقع لهسائغة مستطابة كالورد النمير. وانظرقوله يخاطب من شيدواقبر نابليون :

حصّنوا ماشئتمو موتا كمو ... هل وراء الموت من حصن حصين؟!

وقوله فى ذكرى دنشواى :

شهداءُ حكمك فى البلاد تفرَّقوا ـ هيهات للشمل الشتيت نظامُ !

وقوله فى صلة مصر بالسودان :

فمصر الرياض ، وسودانها ـ عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه ـ وريد الحياة وشريانها

وقد جرى الشاعر فى هذه السبيل حين ألف رواياته المسرحية ، فليتصفحها القارىء ليرى صحة ما نقول .

* * *

وبعد عرض هذه النماذج فى صور الحكمة ومواقعها فى شعر شوقى يحسن بنا أن نقرر ان ذلك الرجل استقى تلك الحكم من تجاريبه اكثر مما استقاها من مطالعاته : فقد عاش زمناً عيشة محرجة مضجرة لا يعرفها الا من ابتلى بمثلها أو بما يقاربها ، وماظن القارىء بمن يعاشر الملوك ويذوق ما فى كؤوس السياسة من علقم وصاب؟ لهذا نراه صادقاً غير متكلف حين يقول :

أخا الدنيا ، ارى دنياكَ أفعى ـ تبدل كل آونةٍ اهابا !
وأن الرُّقط ايقظ هاجعات ـ واترع فى ظلال السم نابا
ومن عجب تشيّب عاشقيها ـ وتغنيهم وما برحتْ كعابا !
فمن يغترّ بالدنيا فانى ـ لبست بها فأبليتُ الثيابا
لها ضحك القيان الى غبى ـ ولى ضحك اللبيب اذا تغابى !
جنيتُ بروضها ورداً وشوكاً ـ وذقتُ بكاسها شهداً وصابا

زكى مبارك





﴿ لوحـة الرخام التذكارية ﴾

وهى من عمل المثال المسيو سيمان وستُعـلق فى كلية الآداب بالجامعة المصرية

ذكريات

عن حياة المدرسة ومدرسة الحياة

— ١ —

أود أن أرفع جانباً يسيراً من الستار الذى أرخاه تطاول الزمان على بعض النواحى من تلك العبقرية التى تألق نورها فى سماء العروبة حيناً من الدهر ، لا يقل مداه عن ١٩٠ يوماً و ١٧٠٠٠ يوم ، أى من أول اكتوبر سنة ١٨٨٥ الى اليوم الرابع عشر من مثله فى عامنا الحاضر .

ولعلى أتمكن من إرسال شعاع ضئيل على ما أحرزه «شوقى» من سعود متواصلة، وتوفيقات متوالية ، منذ كان يتلقى العلم الى أن بويع بامارة الشعر .

سأقصر كلامى على طائفة قليلة من ذكرياتى عن الخالد « شوقى » فى حياة المدرسة وفى مدرسة الحياة .

— ٢ —

فلنرجع الى سنة ١٨٨٣ . وهى السنة التى تشرّفتُ فيها بدخولى الفرقة الرابعة (أى السنة الأولى بالاصطلاح الحديث) من مدرسة الادارة التى صححوا (فى سنة ١٨٨٦) اسمها هذا المغلوط فجعلوه مدرسة الحقوق (وهو اسم مغلوط أيضاً . ولذلك بيان ليس هنا محله) .

كانت المدرسة قد انتقلت من مقرها القديم المعهود فى سراى مصطفى باشا فاضل (بدرب الجماميز) الى دار البدراوى الباقية الى اليوم بشارع سوق الزلط (من قسم باب الشعرية) على مقربة من دار السادة الاشراف الاماجد آل العروسى، الذين آلت الى أحدهم مشيخة الازهر .

وفى العام التالى أقبل فوج جديد من التلاميذ للحلول محلنا فى الفرقة الرابعة . وفى الذى بعده جاء فريق آخر ممن أسعدتهم المقادير بالانتظام فى سلك هذه المدرسة العالية .

من الطبيعى أن يتطلع أبناء الدار بشىء من الزهو والخيلاء الى الطارئين عليهم والمنضمين اليهم .

كان فى جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ ، فتى نحيف نحيل ، هزيل ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة (تقريباً) ، بعيون متألقة (تحقيقاً) ولكنها متنقلة (كثيراً) . فاذا نظر الى الارض دقيقة واحدة ، فللسماء منه دقائق متمادية . وإذا تلفت صوب اليمين ، فلا يلبث أن يومى ببصره نحو الشمال . وهو ، مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة ، هادىء ساكن وادع كأنما يتحدث بنفسه الى نفسه أو يتلاغى مع عالم من الارواح . ما كان يلابسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمرح ، ولا يتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الطعام .

هذه صورة مصغرة لاحمد شوقى عند أول عهدى به فى حياه المدرسة .

— ٣ —

كان المرحوم الشيخ محمد البسيونى البيبانى من علماء الازهر المعدودين .

وقد آتاه الله بسطة فى الجسم والعلم فكان بديناً فطيناً ، وكان قصيراً فوق قصير لانه كان طويلاً مكيراً ، لا تخطئه النكتة البارعة اللاذعة . وكان يدرس لنا فنون البلاغة فى كتاب من تصنيفه هو « حسن الصنيع فى المعانى والبيان والبديع » . أما خارج المدرسة ، فكان متخصصاً بنظم القصائد فى مدح الخديو توفيق ، كلما حلّ موسم أو أطل عيد . وكان إماماً له فى الصلوات ، إلا صلاة الفجر .

ما لبث أن رأى فى تلميذه شوقى بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية . فأنشأ الاستاذ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها الى المعية السنية فالى « جريدة الوقائع المصرية » وغيرها من الصحف العربية . وكان شوقى ، ببساطة التلميذ الناشىء ، يشير بمحو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية وحذف هذا البيت وتعديل ذياك الشطر . والاستاذ يغتبط بقوله وينزل على رأيه .

وأحسن ما أذكره للاستاذ البسيونى ، رحمة الله عليه ، انه كان يتحدث بذلك الينا والى الفرق المتقدمة علينا (وفيها أصحاب السعادة عثمان باشا مرتضى وابوبكر يحيي باشا وعلى ثاقب باشا وشاكر بك احمد) دون أن تأخذه العزة بالاثم أو أن تغريه الكبرياء الملازمة للمدرّس ، بانكار الفضل الذى منحه الله للدارس .

فهذه أول سعادة أحرزها شوقى .

على أن الاستاذ البسيونى تحدث بهذا النبوغ الباكر الى صاحب العرش ، وأفهمه أن بين أثواب الصغير احمد شوقى براعة نادرة وذكاء رائعاً ، وانه خليق برعايته العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها فى مشارق الارض ومغاربها .

وكانت هذه الشهادة من أكبر الاسباب التى حفزت الخديو توفيق فى سنة ١٨٨٧ الى إرسال شوقى على نفقته الخاصة لاتمام الدراسة العلمية فى باريس ولتغذية مواهبه الغريزية بما يراه فى الغرب من روائع البدائع . وقد تحققت له وفيه الآمال . فكانت هذه ثانية السعادات .

— ٤ —

عاد شوقى الى مصر .

فكان فى جملة المستخدمين فى ديوان المعية السنية . وظهرت له فى الخديو توفيق تلك الامداح التى سارت بها الامثال وتغنى بها الركبان .

لكن الله اختار الخديو توفيقاً الى جواره فى أواخر سنة ١٨٩١ .

وجلس على الاريكة ولده وولى عهده صاحب السمو الخديو عباس الثانى ، (فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢) وكانت نزعته افرنكية ، لانه تلقى العلم فى « أكاديمية ترزيانوم » بعاصمة النمسا ، أُدْرِج وأمضى زمان الصبا فى ربوع أوربا . فلم يكن لصاحبنا شوقى سوق رائجة عنده ، بل أدرج فى سلة المهملات الذين يصح عليهم رأى المرحوم محمد بك عثمان جلال ، حينما كتب على باب غرفة شاعر الخديو إسماعيل : « إنما نطعمكم لوجه الله » .

هكذا ، أخذت منزلة شوقى فى التدلى وأخذ نجمه فى الأفول . حتى انه كان كثيراً ما يطلب متى أن أُوصى به صديقى المفضال حمزه بك فهمى الذى كان انتقل من نظارة الداخلية الى رياسة « أقلام عربى ديوان خديوى » . وهو من أهل الفضل الصحيح ومن ارباب الأدب المتين ، وصل الله فى حياته .

— ٥ —

دار الزمان دورته .

وبعثت الظروف السياسية الخديو عباساً إلى أن يتذوّق الادب العربى . فعاد شوقى يتدرج فى الرجوع الى مكانته حتى وصل الى الذروة العليا ، بل الى الغاية التى

ليس وراءها غاية . فاصبح من اقـرب المقربين ومن اصحاب الـكلمة المسموعة والرأى النافذ .

وإذا بى أرى صديقى المفضال حمزة بك فهمى يخاطبنى فى استرعاء شوقى إياه ! والحياة مبادلة ، والدهر أخذ وعطاء .

— ٦ —

كان شوقى يسكن فى دار أبيه ، وهى التى انتهت اليها كل الثروة الضئيلة الباقية عن اجداده . فكان فى اول أمره يرى من تمام سعادته انه لا يجيئه الجابى اوصاحب الملك فى آخر كل شهر لمطالبته بكراء البيت ! وهذه الدار القديمة لا تزال قائمة وراء مسجد الشيخ صـالح ابى حـديد فى خـط الحنـفى . ويا بعـد ما بينـها وبين ما أنشأه هو من كرمـة ابن هانى فى المطرية ، تتلوها الـكرمات الثلاث فى الجيزة ، الى عش البلبل فى طريق الاهرام .

وكان بجوار تلك الدار القديمة رجل من اهل الثروة واليسار ومن ارباب الفضل الصحيح والوقار التام ، هو المرحوم حسين بك شاهين . رزقه الله بثلاث بنات هن عنوان الصيانة والأدب والـكمال . وكان الشباب الذهبى من « ابناء الذوات » الذين ذهبت ثروتهم بفعلهم اوبفعل آبائهم الاقربين، يتهافتون عليه . فيتأبى ويتعذر. ويقول لى وللمرحوم محرم بك رستم (صهر صديقى بل أخى الابر الا كمل لبيب بك البتانونى) ان هؤلاء المتهافتين لايخطبون الفتيات، ولـكنهم يترمقون الثروة الطويلة العريضة التى ستؤول الى كل واحدة منهن بعد حين قريب أو بعيد .

وشاء ربك ان يفوز ذلك الماجد المفضال بمصاهرة ثلاثة من افضل الناشئة المصرية :احدهم شوقى ، والثانى احمد بك عمر المهندس البارع النزيه المستقيم،وثالث الثلاثة السرىّ المرحوم يعقوب حلمى بك .

هكذا أنعم الله على شوقى بالزوجـة الصالحة بكل معانى الـكلمة . فاستراح من متاعب الحياة البيتية ، ومن مصاعب العيشة المادية.فتفرغ لاستمداد الفيض النورانى وتلقى الالهام الربانى ، حتى تفرد بالبراعة التى ليس بعدها براعة .

وانبت لمصر ، والحمدلله ، نباتاً حسناً .

— ٧ —

من السعادات التى أنعم الله بها على « شوقى » سعادة لم يشركه فيها شاعر آخر . لم يهج احداً ، ولم يقل هجراً ، وكان من أ كابر أنصار العروبة ومن اعاظم خدّام

الاسلام . بذلك تنطق قصائده وتشهد مواقفه . وذلك خارج عن دائرة هذه الذكريات ، فأترك الكلام عليه لغيرى .

بيد انى لا أرى بأساً بالاشارة الى القصيدة التى تقرب بها الى الله والى رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام . فقد نظم « نهج البردة » ونزّهها عن خرافات القصّاص وأكاذيب المُدّاح .

طالما عارض الناس « بردة » البوصيرى فى القديم وفى الحديث بمئات ومئات من المنظومات . لكن الصيت بقى لهذه « البردة » وحدها الى الآن . على أن قصيدة شوقى ، وإنْ لم تزحزحها عن مكانتها ، فانها قد نالت شرفاً ليس له نظير . ذلك بان الاستاذ الاكبر شيخ الازهر وخاتمة المحدثين فى مصر ، الشيخ سليم البشرى رحمة الله عليه ، مع جلالة قدره وسمو مركزه ورفيع مقامه ، قد تولى بنفسه وبقلمه شرح هذه القصيدة . وقد صاغها شوقى وهو لا يزال فى سن الفتوة . لكن براعته فيها جعلت شيخ الشيوخ يعرف فضلها ويقدر ناظمها ثم يتوفر على شرحها . وما رأى الناس لذلك مثيلا قبل شوقى .

— ٨ —

عند ماجلس المغفور له السلطان حسين كامل على عرش مصر ، كان السواد الاعظم من ابنائها يعاديه ، بسبب الظروف السياسية التى احاطت ارتقاءه الى الاريكة . لكنه ما لبث بكياسته وحسن سياسته ان جعل كل من فى مصر مخلصاً فى ولائه ، يترنم بمحامده ، ويأسف على أن ولايته للأمر جاءت عند الاقتراب من نهاية العمر .

وتلك من نعم الله التى لا يظفر بها إلا الأقل من قليل من الناس .

فكان شوقى اشجع انسان بمصر فى ذلك العهد المملوء بالمخاوف والأهوال ، والذى كانت السلطة العسكرية البريطانية قابضة فيه بيد من حديد على كل النواصى والاقدام ، بل على الافكار والاوهام . فقد صارح شوقى السلطان حسيناً بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان ، إذ أرسل اليه قصيدته المشهورة التى أشار فيها الى الحال القائمة بقوله :

(ان الرواية لم تتم فصولا)

والتى يقول فيها :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ولقد وُلدتُ بباب اسماعيلا ؟

قامت قيامة السلطة العسكرية البريطانية لهذا النذير واضطربت كل الاضطراب ، لانها خشيت أن تنتشر بقعة الزيت فى رقعة مصر بسبب هذه الصيحة الشوقية التى كان لها أثرٌ بعيد فى النفوس ووقع فعّال فى القلوب ، فأمرت بنفيه . فتخير الاندلس مُقاماً .

فكان فى عمل السلطة إحسانٌ له وللشعر وللعروبة من حيث قدّرت الاساءة واطفاء النور .

من هناك كاتبنى شوقى يطلب كتباً يستعين بها على تعرف مجد الاسلام وفخر العروبة فى الاندلس . فبادرتُ وارسلت اليه « نفح الطيب » و «المعجب بتلخيص أخبار المغرب » و «قلائد العقيان» وأيضاً . . . كتاب رحلتى « السفر الى المؤتمر ».

ماذا أقول عن دهشتى بعد أسبوع ؟ أعاد لى الرقيب العسكرى تلك الكتب ومعها كلمة فيها ملاحظة على أن هذا الصنيع من موظف بالحكومة قد لا يتّسق لواجبات الوظيفة !

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة ، جاءنى الصديق عديل شوقى بك وهو احمد بك عمر لأتوسل الى المرحوم رشدى باشا حتى يسعى عند السلطة فى عدم إعادة المال الذى كان ارسله الى شوقى ليعيش به فى بلاد الغربة . فكأنها كانت تريد أن يتكفف شاعر الشرق رغم ثروته الطائلة أو أن يموت هو وأولاده من الجوع فى بلاد الغرب !

وشاء ربك تكليل مساعى رشدى باشا بالنجاح . فاخذ احمد بك عمر يبعث بشىء من مال شوقى الى شوقى فى منفاه ، ولكن فى اوقات معلومة وبمقادير محدودة .

— ٩ —

لا أريد ان اتحدث هنا عما كان المرحوم السلطان حسين يوالينى به من أسباب الحفاوة والالتفات ، حتى انه اختارنى بمثابة مستشار فنى لكريمته النبيغة ، صاحبة السمو سيدتى الاميرة قدرية هانم .

لكننى أتحدث الآن عن امر يخصّ شوقى ايام منفاه .

فقد كان السلطان حسين يدعو الذين استخلصهم لوده ، فرادى وجماعات ، لتناول الغداء معه من حين الى حين فى سراى عابدين . وحسبى ان اقول إنه بعد الفراغ من الطعام ، تفضل فدعانى الى تناول القهوة بالبهو الكبير . فجلس فى الركن الشمالى الشرقى والمرحوم محمود شكرى باشا الكبير على يمينه ، وصاحب هذه الذكريات على يساره .

أخذ يتحدث عن النهضة العلمية وعن التطور فى الحركة الادبية. فاستعرض الرقى الذى حدث فى الصحافة وفى الاغانى القوميـة . ودار الـكلام بنوع خاص على المرحوم اسماعيل صبرى باشا وعلى ما أُوتى من الفتوح فى هذه الابواب التى جعلته إمام الناظمين فى كل فن من فنون العهد القديم ، وفى كل مطلب من مطالب العصر الحديث .

ثم سألنى — رحمه الله — عن ترجمة كلمات كثيرة ، ومنها لفظة Mentalité . فقلت له ان هذه الصيغة قد استحدثها القوم لمعنى خاص يقاربه فى العربية قولنا « ذهنية » ، « عقلية » .

وحينئذ ، انتقل الى الـكلام عن طرافة التفنن عند شعراء الافرنج . ثم سألنى : أيوجد بين العرب الآن من فى قدرته أن يماشيهم مع هـذه « العقلية » الجديدة وهذه « الذهنية » الحديثة ؟

فقلت : ان هذه المزية قد تفرقت فى كثير من شعراء العصر ، ولـكنها اجتمعت كلها فى شوقى . . .

وهنا ظهرت لى إشارة من المرحوم محمود شكرى باشا ، فتشجعت بها على المضىّ فى الـكلام ، وقلت لمولانا السلطان :

ان شوقى ممن تزدان بهم الدول ، وإن مثله لو كان فى زمان الخلفاء لتخاطفتـه دمشق وبغداد وقرطبة ...

فتكررت الغمزات من ناحية شكرى باشا ... بالموافقة والمطابقة .

فاندفعت أتغنى بمحاسن شوقى ، وبمـا أفاضه على العروبة والاسـلام من نفثاته ، وبمـا منحه للشعر والادب من نفحاته ، وان هذه وهذه حسنات باقيات وآثار خالدة.

وهنا تزايدت الاشارة الرقيقة الدقيقة من المرحوم شكرى باشا ...

فعاودت الهجوم على الموضوع ، سيما وقد آنست من السلطان ما يشعر بالرضى والقبول . فقد التزم الاطراق والاصغاء فى سكوت وسكون .

وهكذا تماديت حتى الى كلمـة فيها جـراءة . شجعنى عليها ما رأيتـه من موقف السلطان . فقد قلت ما معناه بالاختصار :

أيصح أن تبقى مصر محرومة فى عهدك السعيد ، ببلبلها الغريد ، وان يرفرف هذا الطائر الفريد الوحيد بجناحيه على قرطبة وطليطلة وعلى اشبلية وغرناطة ، بعد ان خرجت منهـا العروبة خروج الأرواح من الابدان ؟ ان الذى تترمقه الثقافـة

العربية والقومية المصرية من ابن اسماعيل ومولى النيل ان يعمل بالخطة الكريمة التى رسمتها اريحيته النبيلة لنفسه التى صاغها الله من الخير للخير ، فيعيد الى القاهرة رونقها المجتمع فى أثواب شوقى .

وهنا تكررت الاشارة وتوالت الغمزات من محمود باشا شكرى . فأدركت أننى قد أكون تجاوزت الحد . ولكن السلطان ما زال مصغياً ، كأنه يطلب المزيد من الكلام . وماذا عسيت أن أقول بعد أن قد استوعبت كل ما فى الصدر ، بل كل ما يجيش بالخاطر ؟ فبقيت ساكناً منتظراً تحول الحديث الى موضوع آخر من السلطان نفسه ، او صدور اشارته بالانصراف .

وقضى ربك بالخلاص من هذا المأزق .

فبعد برهة قصيرة ، وقف السلطان . فوقفنا . ثم تقدمت فقبلت يده الكريمة وانصرفت .

وقابلت فى الردهة الصديق المفضال احمد بك احسان . وفيما أنا أرفه عن نفسى بمحادثته ، وأتنفس الصعداء لخروجى من ذلك الموقف ، إذا بالمرحوم شكرى باشا يهرول ورائى . ثم طفق ينهال بتعنيفى على اندفاعى فى تقريظ شوقى رغم الاشارات المتوالية التى كان يبديها لى من حين الى حين للتخفيف من غلوائى فى الحديث ! فلم يكن من سبيل للاعتذار سوى ان السلطان كان مصغياً تمام الاصغاء ، وأننى فهمت من اشاراتك انك راض عن صنيعى تمام الرضاء ، بل أنك قد تكون سبقتنى الى تقرير هذه فهذا عذرى ، وما فعلت سوى نصح السلطان بما انطوت عليه سريرتى واستقر فى صدرى .

* * *

لست أدعى ان كلامى كان له أثر فى نفس السلطان . ولكن الذى أعرفه ان الله سبحانه وتعالى جعله يضيف حسنة كبيرة الى حسناته الكثيرة ، فأصدر أمره بعد ايام الى المرحوم رشدى باشا ليسعى باسمه الكريم لدى السلطة فى ارجاع شوقى الى وادى النيل . وقد كان .

— ١٠ —

أكبر سعادة نالها شوقى ، بل سعادة السعادات التى أفاضها الله عليه فى الثروة والجاه وكل مطالب الحياة ، ان الشعراء المتعادين فى كل زمان ومكان قد اتفقت كلمتهم فى جميع

أقطار العروبة وفى عصرنا هذا على تمجيد شوقى ومبايعته فى حياته بالامارة عليهم .

فصار باقرارهم جميعاً (أمير الشعراء) حقاً . وهو لقب لم ينله قبله إنسان ، وهيهات ، هيهات ان يتجدد مثل هذا الحادث فى مستقبل الايام !

فالبيعة الصحيحة بشروطها المعتبرة شرعاً وسياسة ، قد انعدمت فى كل بلاد الشرق. ورأينا الخلفاء فى ثنايا التاريخ يتلقفون هذا اللقب وهذا المنصب بطريق الوراثة ، يضاف اليها صيغة صورية للبيعة ، الى ان انعدمت هذه الصيغة الشكلية أيضاً ، باستيلاء السلطان سليم العثمانى على مصر وملحقاتها واغتصابه الخلافة فى اوائل القرن العاشر للهجرة .

ثم تمادت السنون والقرون الى ان أتاح الله لنا ان نرى البيعة فى أعلى مظاهرها ومعانيها ، وعلى اكمل مشاهدها ومجاليها فى الحفلة النادرة المثال التى توارد الشعراء اليها من سائر الاقطار وبايعوا فيها شوقى بك مبايعة رسمية جهرية باعتماده اميراً لهم . فقد خاطبه حافظ عن نفسه وعنهم بقوله :

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفودُ الشرق قد بايعت معى

وهذا اللقب كان قد اطلقه عليه الناس قبل تلك البيعة الصحيحة بزمان طويل . ولا غرو ، فان « ألسنة الخلق اقلام الحق » .

— ١١ —

فى انتظار أمير الشعر الجديد ، الذى قد لا يأتى به الزمان ، يحق للجيل الحاضر أن يفاخر الاجيال الماضية ويباهى الاجيال الآتية بانه حاز الشرف الاكبر بظهور امير الشعراء فيه . وفى ذلك ما فيه من معانى المجد الدائم لمصر فى هذا العصر .

وسبحان الحى الباقى لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

— ١٢ —

والى الله تعالى نتوجه بقلوبنا داعين ان يديم لمصر مولانا الملك المعظم فؤاد الأول ، فقد اصبح عصره زينة العصور بما يتواثب فيه من النهضات وما يترادف من وجوه الاصلاح فى أسباب الحياة وفيها الأدب العربى القومى . وذلك كله بعنايته العالية ، وبارشاده الكريم أقر الله عينيه بسمو ولى عهده آمين .

احمد زكى باشا

الاخلاق فى شعر شوقى

قالوا إن سيدة ذهبت لتوديع ولدها ، وقد اعتزم سفراً طويلا ، فلما تحرك القطار ودعته بأبلغ قصيدة شعرية عـبّرت بها عن آلامها وتباريحها القاتلة .

على أنهـا لم تنظم فى هذه القصيدة الرائعة بيتاً واحـداً ، ولم تنطق فيها بكلمة واحدة .

ولكن قصيدتها كانت — رغم ذلك — لا تقل عن أبلغ قصيدة قالها شكسبير أو المعرى ، ولم تكن قصيدتها تلك إلا زفرة زفرتها ودمعة ترقرقت فى عينيها .

ولا زلت أجدنى فى موقف وداع هذا النابغة الراحل إلى دار الخلود ، لا أستطيع أن أودعه بغير هذه القصيدة الصـامتة التى تتلخص فى زفرة حارة ودمعـة مترقرقة وذهول يستولى على النفس حتى ليكاد ينسيها كلَّ واجب .

ولقد هممتُ مراراً أن أكتب شيئاً عن الزعيم الراحل الجليل ، فلم استطع الى ذلك سبيلاً ، فان الكتابة عن شوقى وتحليل شعره ودرس أدبه تتطلب وقتاً ويقظة ودقة .

أما الوقت فأصدقائى الأدباء يعلمون بأننى أستطيع أن أظفر بكل شىء فى هـذه الأيام إلا الوقت . وأما اليقظة فقد حل محلها الذهول بهذا الخطب الجلل . وأما الدقة فلا سبيل اليها فى مقام تستولى فيه الدهشة ويستبد الذهول بالعقول .

وقد هممت بكتابة كلمة عن روايات شوقى بك ثم ارجأت كتابتها إلى حين ، وهممت أن أصف آخر ليلة قضيتها مع شوقى بك فمنعنى الأسى والحزن عن كتابة شىء ، وأرجأت ذلك كله إلى الظروف والمناسبات التى أرجو أن تكون قريبة .

وقد حفزنى إلى كتابة هذه الكلمة السريعة القصيرة عن الأخلاق فى شعر شوقى بك أن كثيراً من الأدباء نعوا عليه الاكثار من ذكر الأخلاق فى شعره وعدوا ذلك عليه من المآخذ والعيوب ، وظن بعضهم أن شوقى كان يذكر الأخلاق فى شعره بمناسبة وبغير منـاسبة ، وقد كان جديراً — فى زعمهم — أن يقتصر على ذكرها مرة أو مرتين . ولهم العذر فى ذلك فان اكثر من عابوا عليه ذلك قوم لا يفهمون الأخلاق إلا فهماً سطحياً . ولو أنك سألت أكثرهم أن يعرف لك

الاخلاق كما يفهمها لما زاد على تعريفها بأنها مجاملة الناس وارضاؤهم والرضوخ لتقاليدهم ومصطلحاتهم الحقيرة التى يتقنها أبعد الناس عن الاخلاق .

ولو أن شوقي كان يُعنى بهذا النوع الحقير من المواضعات والمجاملات التى تعجب الناس وترضيهم لما كان لشعره أية قيمة .

بلى ان شوقي كان يشيد بذكر الاخلاق ويرى أن الأمم لا ترتقى بغيرها . ولو وقف أكثر شعره على تقرير فضل الاخلاق لما كان مبالغاً ولا مكثراً .

وليس شوقي وحده هو الذى عنّى نفسة وملأ شعره بذلك فقد شغل المعرى نفسه ووقف أكثر لزومياته على نعى الأخلاق ، وقلما تمر بك صفحة من اللزوميات من غير أن تسمع فيها صرخة داوية تكاد تصم الآذان فى نعى الأخلاق والتبرم بلؤم الناس وصغار نفوسهم فتراه مرة يقول :

جنوا كبائر آثام وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلد فى النار !

أو يقول :

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطاً لما تحصل شيء فى الغرابيل !
أوقيل للنار : «خصى من جنوا» اكلت أجسادهم ، وأبت أكل السرابيل
هل ينظرون سوى الطوفان يغمرهم — كما يقال — أو الطير الأبابيل
سبحان من ألهم الاقوام كلهم أمراً يقود الى خبل وتخبيل !

أو يقول :

كتاب محمد ، وكتاب موسى وانجيل ابن مريم والزبور
هدت أمماً فما قبلت ، وبارت نصيحتها ، فكل القوم بور !

أو يقول :

والحق يهمس بينهم ويقام للسوءات منبر

أو يقول :

اذا قلت المحال رفعت صوتى وان قلت اليقين أطلت همسى !

أو يقول :

ينفون منىَ معنىً لست أحسنه فان صدقت عرتهم أوجه عبس

أو يقول :

هم أسارى منايام ، فما لهمُ اذا أتاهم أسيرٌ لا يفكون

أو يقول :

فأفٌ لعصريهم - نهار وحندس - وجنسى رجال منهم ونســاء

أو يقول :

ربيت شبلا ، فلما أن غدا أسداً عدا عليك ، فلولا ربه أكلك !

ثم ماذا ؟ لو شئت لملأت صفحات هذه المجلة وهى كثيرة بشعر المعرى وحده فى التبرم بأخلاق الناس ، وقد ذكرت من ذلك شيئاً فى « رسالة الغفران » ، والمعرى بعد شاعر واحد له أشباه كثيرون فى العربية وغيرها من اللغات ، فهل نرى أحداً من هؤلاء قد أسرف حين ملأ أكثر شعره بالأخلاق وتغنى بها ورأى بحقٍ أن الأمم لا بقاء لها بغير الأخلاق :

وإنما الأمم الاخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الأمم الأخلاق ! صدق شوقي بك الذي خبر عصره وبلى أخلاق معاصريه وعرف نقائصهم ورذائلهم وبرم بصغار نفوسهم وتألم من دسهم ونفاقهم وقد رأى بعض الأدباء يلتمسون معونته المادية والأدبية ، فاذا ظفروا بها فضلوه على كل شعراء الدنيا من قدماء ومحدثين ، ونحلوه أسمى ألقاب العبقرية والخلود ، فاذا انقطع عنهم فيض معونته نقضوا كل كلمة كتبوها ثناء عليه وملأوا الدنيا ازراء به وتحقيراً من غير أن يستشعروا أيَّ خجلٍ فلا غرو أن نسمع هذه الصرخة تدوى من فم شوقي فتملأ الآفاق وهو يقول :

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها بقاتلاتٍ اذا الاخلاقُ لم تُصِب

وقد كان شوقى يؤمن إيماناً وثيقاً لا يتسرب اليه لمحة من الشك ان الاخلاق هى كل شئ ، وأن كل مصيبة مهما جلت هينة ميسورة يسهل المتغلب عليها اذا كانت عدة الامة أو الفرد الخلق المتين .

فهو يقول فى رواية « أميرة الأندلس » (ص ١٠٣) : فكم من تاجر بمنزلة أبي الحسن قد نكب فذهب عنه كل شيء الا الخلق ، ثم لم تمض مدة من الشهور أو الاعوام حتى سمع الناس وتحدثوا ان التاجر فلاناً تغلب بالخلق على نكبته فعاد دولاب تجارته

كأمس عظيم الحركة عميم البركة ، ومثل أبى الحسن فى خلقه وأمانته وشرف اسمه فى الأسواق لا يبعد أن يقوم من هذه السقطة ورجلاه فى العافية ».

على أن شوقى لم يشغل نفسه بالاخلاق فى شعره ونثره فحسب بل شغل أكثر مجالسه بالتحدث عنها .

وقد كان شوقى يرحمه الله — يحدثنى فى آخر ليلة قضيتها معه عن ألمه الشديد وحزنه العميق على فساد الاخلاق وصغار النفوس ، فأنت تراه قد شغل شعره ونثره ومجالسه بهذه الرسالة العالية التى أدّاها أحسن أداء ، ولم يغفل أداءها فى أية فرصة سنحت له ، وما أروع قولة فى نشيده الخالد :

على الاخلاق خُطوا الملكَ وابنوا فليس وراءها للعزّ ركنُ

كذلك قامت نهضات الامم الحقيقية وأفلح دعاتها وقادتها بالاخلاق ، وبالاخلاق وحدها نجحت دعوة الرسول ، فلم يتردد حين لامه عمه عبد المطلب على ثباته فى دعوته التى ألبت القبائل عليه ، فأجابه الرسول من غير تردد ولا رهبة :

« والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الامر أو أهلك دونه ما تركته » .

وبهذا الخلق المتين مدحه الله فى كتابه الكريم فقال :

« وانك لعلى خلق عظيم »

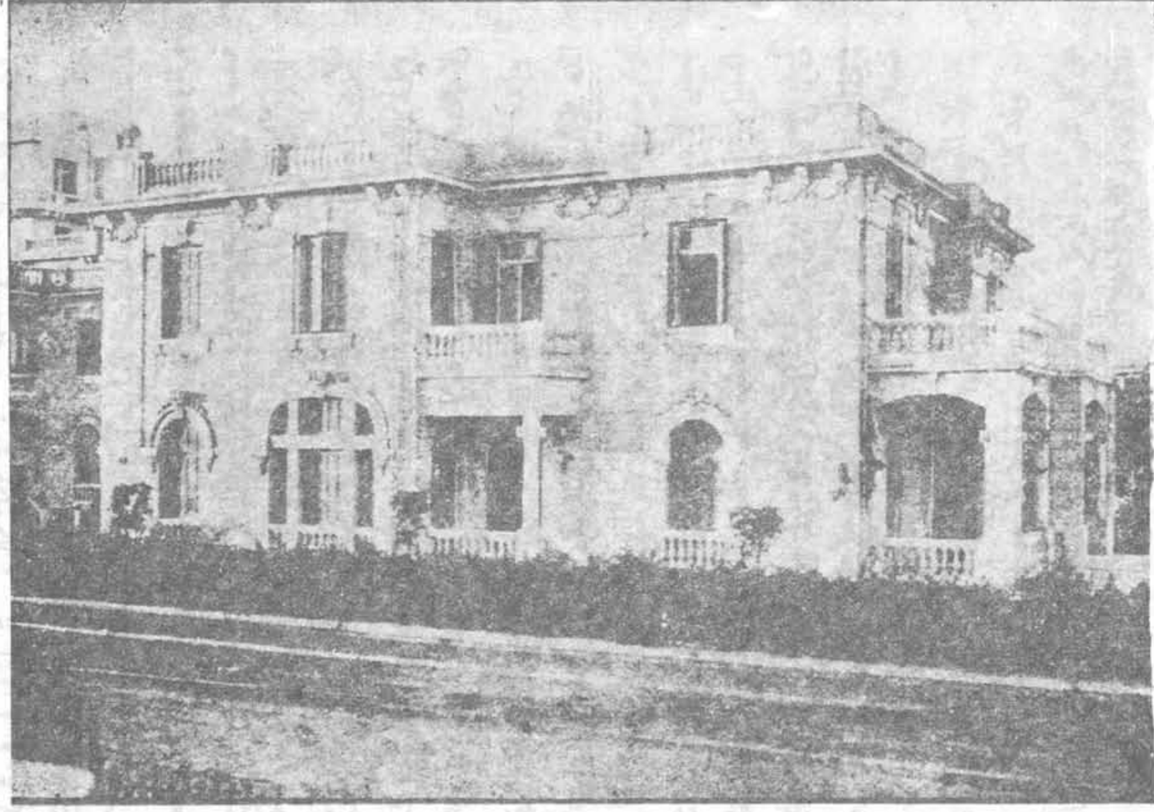
هذا الخلق العظيم هو الذى تغنى به شوقى فى شعره ونثره وردده فى نومه وصحوه ، ورأى أن نهوض الأمم لا يتحقق بدونه وان كل شعب يفقد هذه الميزة الكبرى سائر فى طريق الفناء والاضمحلال :

وليس بعامرٍ بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

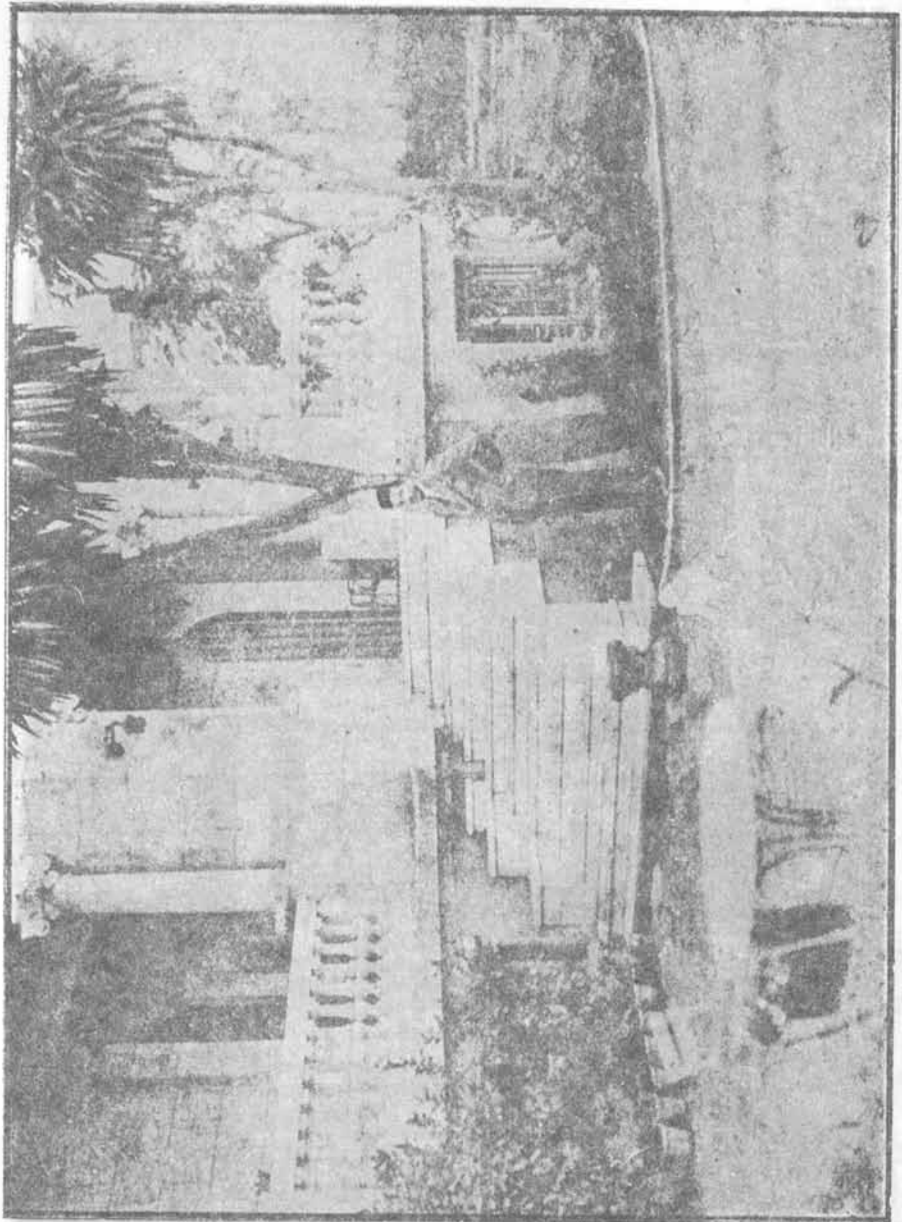
رحم الله شاعر الاخلاق رحمة واسعة ؟

كامل كيلانى

سكرتير رابطة الادب الجديد



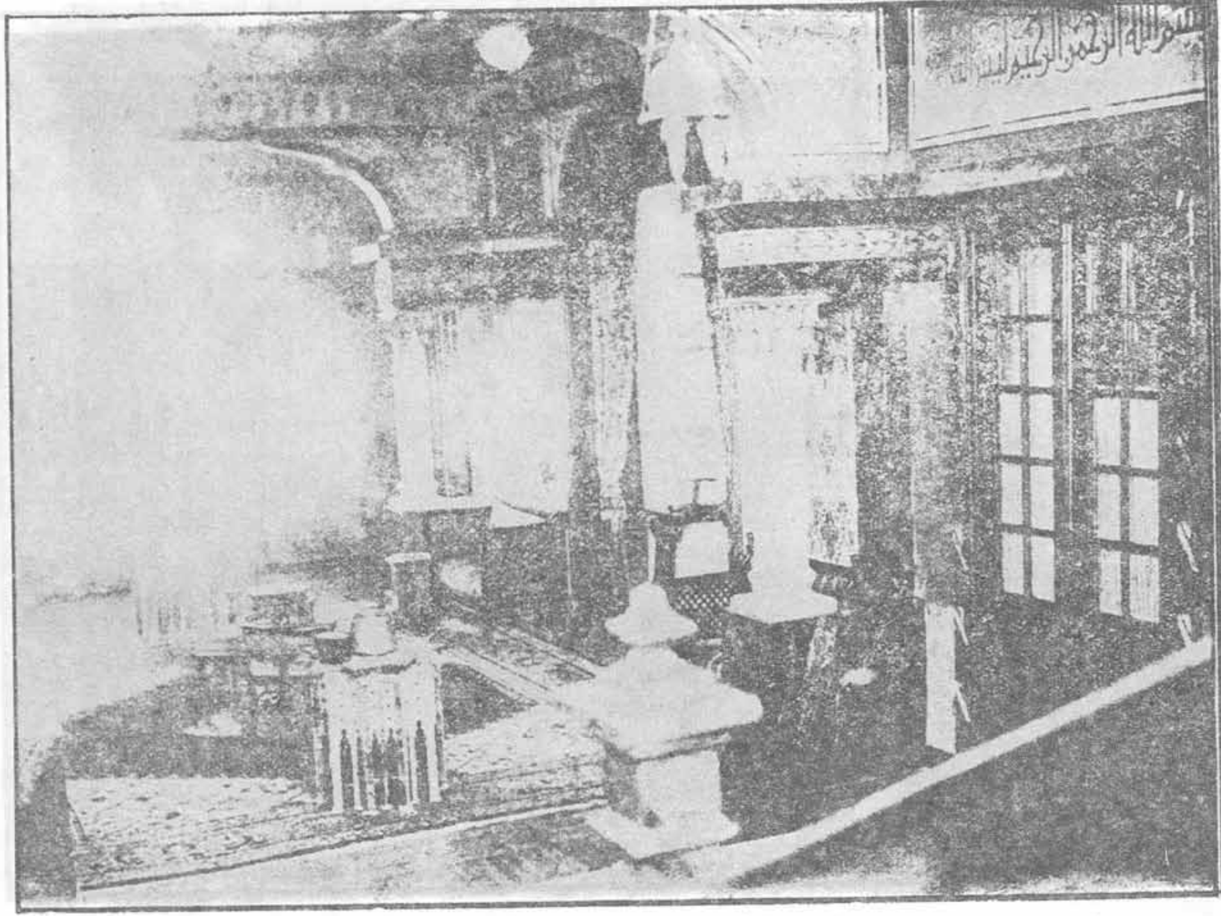
﴿كرمة ابن هانى : منظر منزل شوقى بك من الخارج ، وهو واقع فى شارع مبرّح بن شهاب بالجيزة﴾



﴿ في حديقة كرمة ابن هانئ على ضفة النيل ﴾

— ٢ —

ومثلاق. شيء قليل من الجهد وأنت تلمس الشعر الذي في « الشوقيات » . ولست أدري كيف فاته ترتيب جمع القصائد فيه ، فلا هي جمعت بالقافية والروي كما كان ينبغي



﴿ البهو العربى فى كرمة ابن هانى ﴾

الشعر الفنى

فى نظم شوقى بك

— ١ —

هل يستطيع الباحث الذى يعرض لشوقى بك أن يلمّ به من كل نواحيه ؟ إننى أستبعد ذلك فان الشاعر الذى ظل فيض قريحته يملأ الشرق نيفاً واربعين سنة لاتتيسر دراسة شعره دون انقطاع طويل لهذه الدراسة لا تتهيأ أسبابه الآن لمتأدب فى مصر بل فى الشرق .

وليس من شك فى أن شوقى نظم كثيراً من ذلك الشعر فى شتى المناسبات وقد كان مقيداً فى معظمها بقيود أهونها عدم قدرته على التحلل من ظروف بيئته واتصاله ببعض الهيئات الرسمية شطراً كبيراً من حياته ، وهناك ظاهرة أخرى واضحة هى أن اتصال شوقى بك بسواد الشعب محدود وهو لذلك لم يكن موفقاً كل التوفيق فى التعبير عن الأمانى الشعبية الخاصة ، أما الأمانى القومية العامة فهو فيها شاعر مصر المجلّى .

وإذا عرضتُ هنا لشعر شوقى بك فانما أعرض للجانب الفنى منه ، وحسبى درس الشعر الفنى بين ما نظمه شوقى فهو لُبُّ الشعر وغايته ، بل هو الشعر الذى يتطلبه العصر . أما شعر الحفلات والمناسبات والمجاملات فلا جدوى فنية منه ولن يبقى إلا ببقاء ذكرى مناسباته ، حينما الشعر الفنى هوشعر الخلود . وقد انتقدتُ شوقى بك مراراً فى حياته لعنايته بشعر المناسبات والحفلات كما انتقدتُ جانباً من أساليبه ، وآرائى فى ذلك معروفة ولازالت هى هى ، فلا حاجة بى الى تكرارها خصوصاً وكل مايعنينى هنا انما هو الاشادة بحسناته وجوانب شعره الفنى .

— ٢ —

وستلاقى غيرقليل من الجهد وأنت تتلمس الشعر الفنى فى « الشوقيات » . ولست أدرى كيف جاء ترتيب جمع القصائد فيه ، فلا هى جُمعت بالقافية والروى كما كان يفعل

الشعراء والناشرون القدامى ، ولا هى جُمعت حسب تقسيم الموضوع كما يفعل بعض المحدثين . ولكن الواقع ان عدم نشر شعر شوقى بالترتيب التاريخى جناية أدبية على شعر شوقى ذاته ، فسيقف الذى لايعرف مناسبات شعره بعد ذلك موقف الحائر لا يدرى متىقال هذا ومتىنظم ذاك ، لأن كل شعره فى صياغته وقوة نسجه سواء. وإنى لأذكر ـ كلما ساورتنى شبهة الترتيب التاريخى لقصيدتين من شعر شوقى ـ رأياً كان يردده سعادة احمد زكى باشا وهو :

« لا فضل لشوقى فى كل هـذا الشعر فانه رسول قوة ملهمة ، وليس للرسول أكثر من فضل أداء الرسالة » .

والواقع أن هذا الرأى جدير بالتأمل والتفكير ، فان شوقى كان شاعر أمة صاغته أمانيها وشحذته آلامها فخرج معبراً عن هذه الامانى مصوراً لتلك الآلام ، ولم يحدّ من ذلك غير عزلته بحكم ظروفه السياسية . خرج يؤدى رسالة العصر الذى يعيش فيه وقد لايدرى هو لماذا اختير دون غـيره لاداء تلك الرسالة ولـكنه يجد فى نفسه القدرة على أدائها والسلام . وهـذا الرأى يؤيد ماذهبنا اليه من أن قوة النسج والصياغة تكاد تكون متوازنة فى شعر شوقى قديمه وحديثه ، فهو شاعر عبقرى والعبقرية هبة تجىء وتذهب على غـير مقياس تاريخى معروف ، بل لقد تنزل فى جيل لا يدرى أهله جميعاً من أمرها شيئاً !

وأذكر أن صديقاً من الادباء الممتازين كان واضح الاعجاب بالمعنى الذى تضمنه البيت الآتى الذى نظمه شوقى على لسان قيس فى رواية « مجنون ليلى » :

ليـلى ، منادٍ دعا ليلى فخفّ له نشوانُ فى جنباتِ الصدرِ عربيدُ !

وكان الصديق يلقى البيت القائم بديعاً فذكره لشوقى وسأله عن ظروف نظم هذا المعنى الرائع . فاهتزّ شوقى للبيت لدى سماعه اهتزازنا له وغاص فى لجة من التفكير أذهله عن سؤال الصديق لحظة . فلما انتبه وذكر السؤال بادر الى الجواب ولم يكن إلا كلمة واحدة هى : « لا أدرى ! »

وهذا حق ، فان شوقى لم يكن يدرى كيف هبط هـذا المعنى عليه ، فهو وحى العبقرية !

ويذكرنى هذا بمقال جيد قرأته فى مجلة المقتطف (عدد نوفبر سنة ١٩٣٢) عن شوقى بقلم الشاعر المعروف مصطفى صادق الرافعى درس فيه شوقى على طريقته فى

دراسة الشعراء . والواقع أن الرافعى وُفِّق فى مقاله الى حد لم يكن يُنتظر من أحد شعراء المدرسة القديمة . ولكن ثمة مسألة جديرة بالبحث : تلك هى اعجابه ببراعة شوقى فى استخراج المعانى وتوليدها من معانى غيره من الشعراء المتقدمين أوأخذه على شوقى عدم توفيقه الى ذلك . والرافعى شاعر نابه قد يكون بارعاً فى صنعته ولكن نصيبه من الروح الفنية محدود فى رأيى ، وقد يكون استخراج المعنى وتوليده واللعب بذلك أو التفنن فيه (كما يسميه) من كمال الصنعة عنده ولكنه ليس من كمال الشعر فى شىء ، فالشعر الفنى لا يجرى عليه ما يجرى على سائر المنظوم من أقيسة التوليد والاستخراج : فانى مثلا لا أدرى تلك الصلة فى الاستخراج والتوليد بين قول شوقى

ما تراها تناست اسمىَ لما ... كثرت فى غرامها الأسماء !

وبين قول ابى تمام :

أتيتُ فؤادها أشكو إليه ... فلم أخلصْ إليه من الزحام !

مهما رأى الرافعى فيهما من صلة أو شبه صلة ، فليس يكفى أن يتشابه موقفان لشاعرين فى الحياة ليكون الأخير منهما مولّداً أو مستخرجاً لمعنى الثانى !

— ٣ —

وأبرز ضروب الشعر الفنى الذى نود أن ندرسه فى نظم شوقى هى الشعر القصصى والشعر التاريخى التحليلى والشعر الوصفى والشعر التمثيلى .

أما الشعر القصصى فقد عالجه شوقى فى شبابه وكانت له فيه بضع محاولات ثم انصرف عنه بعد ذلك أو لوته عنه ظروفه فلم يعد اليه ، وهى خسارة أدبية وفنية لا تعوّض فلو أن شوقى استغلّ هذه العبقرية الشعرية الفياضة فى الشعر القصصى لكان لنا منه الآن فنٌّ خصبٌ آمرٌ .

وأما الشعر التاريخى التحليلى فهو لونٌ طريف فى الأدب الجديد ، وليس المقصود منه مجرد سرد لحوادث التاريخ لا تعتمد على أساس ، ولكنه دراسة لتلك الحوادث وتحليل لعناصرها ومقدماتها تحليل متفهم لمراميها مدرك لغاياتها .

وأنت ترى منها كيف يستطيع المؤرخ البارع أن يسجل حوادث التاريخ فى صدق ويستطيع مع ذلك أن يستولى على لبّك وان يشعرك بالعطف على قضيته أو على قضية بلاده ويكسب تأييدك لها ويوجه شعورك معه : تحزن إن حزن وتفرح لفرحته . وهكذا

كان شوقى الشاعر المؤرخ . ومن المدهش حقاً أن تعثر فى « الشوقيات » بل أن تطالعك بعد المقدمة القصيدة التى قالها فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد فى جنيف سنة ١٨٩٤ والتى مطلعها :

همتْ الفلكُ واحتواها الماء وحداها بمن تقلّ الرجاء

وإنك لتعجب إذ تقرأ هذه القصيدة بهذا النضوج المبكر لشاعرية شوقى من ناحية اللفظ والاسلوب،وتعجب بالشاعر الشاب المقيد بظروف ذلك العصر — الذى قال القصيدة فيه — كيف يتاح له أن يؤرخ لك هذه النزعة الشعرية الجديدة كأحسن ما يكتب شاعر عصرى مثقف اليوم إذا عرض لتاريخ مصر على الطريقة الحديثة . وفى الحق لقد عرف شوقى كيف يكتب تاريخ بلاده وينشر مجدها ويفخر به على العالمين :

وبَـنينا فلم نخلّ لبانٍ وَعَـلَوْنا فلم يجزنا علاء

وملكنا فالمالكون عبيدٌ والـبرايا بأسرهم أسراء !

فان هذه الروح القوية المدهشة جديرة بالاعجاب ، لا سيما إذا حافظت على مظاهر حيويتها حيث يقول :

قلْ لبانٍ بنى فشاد فغالى : لم يجز مصر فى الزمان بناء

ليس فى الممكنات أن تنقل الأجـبالُ شمّاً وان تُنال السماء!

ثم انظر إلى هذه الرّوعة فى قوله :

أجفل الجنُّ عن عزائم فرعو نَ ودانتْ لبأسها الآناء

شاد مالم يشد زمانٌ ولا انشـأ عصرٌ ولا بنى بنّاء !

أو فى قوله يتحدث عن ديانات المصريين القدماء وهيا كلهم :

هيكلٌ تنثر الدياناتُ فيه فهى والناسُ والقرونُ هباء

وقبورٌ تحطّ فيها الليالى ويُوارَى الاصباحُ والامساء!

ثم يعرض لبعض النظريات التاريخية الخاطئة التى يروّجها بعض المؤرخين عن مصر وينبرى لدحضها :

فاعذر الحاسدين فيها اذا لا موا فصعبٌ على الحسود الثناءُ

زعموا أنّها دعائمُ شيدَتْ بيد البغْى ملؤُها ظلماءُ

دُمّر الناس والرعية فى تشـ(م) ييدها والخلائق الأُسراءُ

ثم يرد الحجة فى حماسة :

أين كان القضاء والعدل والحكمة (م) مةُ والرأىُ والنهى والذكاءُ

وبنو الشمس من أعزّة مصر والعلوم التى بها يُستضاءُ ؟!

ثم يعلل تسخير الفراعنة للأسرى :

ورأوا للذين سادوا وشادوا سُبّةً أن تسخّر الأعداءُ

ثم ينافر ويفخر فى قوة :

إنْ يكنْ غير ما أتوه فخارٌ فأنا منك يا فخارُ بَراءُ !

وهذه الروح القوية الصامدة لا يستطيع الباحث المدقق أن يردها إلى أواخر القرن الماضى ، فان روح التحليل والترتيب المنطقى فيها كثيرة على ذلك العصر .

وتسير القصيدة على هذه الوتيرة من تسجيل تاريخ الفراعنة وتمجيد أعمالهم فى تحليل وفخر حتى يصل الى غزوة الهكسوس أو الرعاة للأراضى المصرية وهزيمتهم للفراعنة واحتلالهم لمصر ، فانظر الى تمهيده البارع :

ليتَ شعرى والدّهرُ حربُ بَنيهِ وأياديه عندهم أفعاءُ

ما الذى داخل الليالىَ منا فى صبانا والليالى دَهاءُ ؟!

ثم ينتقل الى سرد الوقائع فى تصدير بارع كذلك :

فعلا الدهرُ فوقَ علياء فرعو نَ وهمّتْ بملكه الأرزاءُ

أعلنت أمرَها الذئابُ وكانوا فى ثياب الرعاةِ من قبلُ جاءوا !

وتأمل الروح التى تسود هذا القول :

وأتى كلُّ شامتٍ من عِدا المـ ـلك إليهمْ وانضمّتْ الاجزاءُ

ومضى المالكون إلا بقايا لَهُمُ فى ثرى الصعيد التجاءُ

وانظر الى التأسّى والحسرة البارزة التى يمهد بها لوصف الهزيمة :

فعلى دولة البناةِ سلامٌ وعلى ما بنى البناةُ العفاءُ

واذا مصرُ شاةُ خيرٍ لراعى السـ ـوء تُؤذى فى نسْلِها وتساءُ

وانظر اليه يصف ظلم الفاتح الغاشم :

قد أذلّ الرجالَ فهى عبيدٌ ونفوس الرجال فهى إماءُ

وانظرْ اليه كيف يصوّر سوء السياسة والتفريق فى المعاملة :

ولقومٍ نُواله ورضاهُ ولأقوام القلى والجفاءُ

ففريق ممتعون بمصر وفريق فى أرضهم غرباءُ

ثم أنظر اليه كيف ينقد هـذه السياسة وينعى سوءها ويصوّر أثرها ويتحدث عن نفسيات الشعوب :

ان ملكتَ النفوسَ فابغ رضاها فلها ثورةٌ وفيها مَضاءُ
يسكن الوحشُ للوثوب من الأسـر فكيف الخلائق العُقلاءُ ؟!

ويصف عهد مصر تحت نير هؤلاء الرعاة ويبرر خنوعها لاستبدادهم ويعلل ذلك فى دقة المؤرخ المتزن :

لبثتْ مصر فى الظلام الى أن قيل مات الصباحُ والاضواءُ
لم يكن ذاكَ من عمىً ، كلُّ عينٍ حجبَ الليلُ ضوءَها عمياءُ !

ويتحدث عن نهضتها للتخلص من ذلك الأسر :

ما تراها دعا الوفاءُ بنيها وأتاهم من القبور النداءُ
ليزيحوا عنها العدا فأزاحوا وأزيحتْ عن حقها الأقذاءُ
وأعيد المجدُ القديم وقامتْ فى معالى آبائها الأبناءُ

ويتحدث بعد ذلك عن تاريخ مصر فى ذلك العهد الذى عقب خلاصها من حكم الرعاة حديثاً كله الفخر وكله الاعتداد بمفاخره التالدة :

إيهِ سيزوستريسُ ماذا ينال الو صف يوماً أو يبلغ الاطراءُ ؟
كثرت ذاتك العلية أن تحصـى ثناها الألقاب والاسماءُ
لك آمونُ والهلال إذ يكـبر والشمس والضحى آباءُ !
ولك الريفُ والصعيد وتاجا مصر والعرشُ عالياً والرواءُ
ولك المنشآتُ فى كلّ بحرٍ ولك البرُّ أرضه والسماءُ

ثم يتحسرْ ويتمنّى لو لم تزل هذه الايام :

ليت لم يبلك الزمان ولم يبـل لملكِ البلادِ فيك رجاءُ
هكذا الدهر حالةٌ ثم ضدٌّ ما لحال مع الزمان بقاءُ

وينصرف من ذلك الى الكلام على غزوة الفرس لمصر بقيادة قمبيز :

لا رعاكَ التاريخُ يا يوم قمبـيز ولا طنطنتْ بك الانباءُ
دارت الدائرات فيك ونالت هذه الأمةَ اليدُ العسراءُ

ويستطرد متحدثاً فى لوعة الحزين ، ويصف أسر الملك فى حسرة الوطنى المتأسّى :

زجىء بالمالكِ العزيزِ ذليلا لم تزلزلْ فؤادَه البأساءُ

يبصر الآلَ إذ يراح بهم في — موقف الذلّ عنوةً وبجاءُ

ويصف أسر بنت فرعون ووضعها فى الاغلال واهانتها وتعذيبها على مشهد من أبيها :

بنت فرعون فى السلاسل تمشي أزعج الدهـرَ عريُها والحفاءُ
فكأنْ لم ينهضْ بهودجها الدهـــــرُ ولا سار خلفها الأمراءُ !

ويصف تعذيب فرعون واثارته بالتفنن فى وسائل الاهانة والاستثارة :

وأبوها العظيم ينظر لمّا رديت مثلما تردّى الاماء
أُعطيت جرةً وقيل اليك النهـر قومى كما تقوم النساء !
فمشت تظهر الاباءَ وتحمى الدمـــع أن تسترقّه الضراء!
والاعادى شواخصٌ ، وأبوها بيد الخطب صخرةٌ صماء!

وأنت تحسّ ولا شك بالقدرة العظيمة على تصوير الوقائع من هـذه الأبيات الرائعة ، ومن الأبيات التى تليها :

فأرادوا لينظروا دمع فرعو ن ، وفرعون دمعه العنقاء !
فأروه الصديق فى ثوب فقرٍ يسأل الجمع والسؤال بلاء
فبكى رحمةً وماكانَ مَنْ يبـــكى ولكنما أراد الوفاء
هكذا المُلْكُ والملوكُ وإنْ جا ر زمانٌ وروّعتْ بلواء

ويكفى هذا القدر فالقصيدة طويلة وهى جديرة بالمطالعة والدرس لأنها من أجلّ ما نظم شوقى من الشعر الفنى بل هى جماع مظاهر فنه ، فتستطيع لو تأملتها أن تدرس فيها كل خصائص شعره الفنى وميزاته وإن كان قد طال عليها الوقت ، لأن روح شوقى لم تتغير كذلك ولم تتغير سمات شعره ولا خصائصه وإن تغيرت على مر الزمن أفكاره وآراؤه وبعض أساليبه .

وقد استطال استقراؤنا بهـذه الناحية فى شوقى على غير ما يتسع المقام لأننا لا نطمع فى أن نرسم للقارىء دراسة وافية للشعر الفنى عند شوقى فى هذا الحيز المحدود ولا فى أضعافه ، ولكن كل ما نطمع فيه هو أن نثير فى نفسه الرغبة فى درس هذه الشاعرية العظيمة . فليرجع القارىء الذى يستهويه هـذا الجانب ، جانب التحليل التـاريخى من الشعر الفنى ، الى « الشوقيات » فانه سيجد روعته بارزة فى قصائد (صدى الحرب) و (نكبة بيروت) و (أبو الهول) وغيرها .

— ٤ —

أما الشعر الوصفى فنريد أن نسجل ـ قبل أن نتحدث عنه فى شعر شوقى ـ ان هذا الضرب من الشعر الفنى يفتقر اليه الشعر العربى كل الافتقار ، فان شعراء العرب الذين تعرضوا له ـ مع قلتهم ـ لم يتركوا لنا منه ثروة تمتع الرغبة الفنيـة ، وقد شغل أكثرهم عنه بشواغل السياسة أو الحياة أو العيش يسخرون لها الشعر ويصرفونه اليها دون الالتفات الى هذا الضرب الفنى الصرف الذى لا يرضى إلا الفن .

لا ننكر أن بين عيون الشعر العربى قصائد وصفية رائعة ولكننا نقول إن الوصف كان ـ ولو نسبياً ـ من الفنون شبه المهجورة عند شعراء العرب ، فان كنا ننعى ذلك عليهم وقد كانت حياتهم على ما نعلم من جفاف ومن تشابه مملول فكيف نحن الآن فى هـذه الحياة الزاخرة الصاخبة التى تستدعى شيئاً من الفن يرفه عن النفس بعض هذا التكالب المادى البشع ؟!

وإذا كنا نعـد القصيدة التى قالها شوقى فى المؤتمر الشرقى الدولى جماعَ شعره التاريخى التحليلى فهناك قصيدة أخرى فى شعره الوصفى لا تقل عنها روعة ورقة وجمالاً ونستطيع أن نقول مطمئنين إنها هى الأخرى جماع شعره الوصفى وان فيها جلَّ سمات وميزات هذا الضرب من شعره : هذه القصيدة هى الخاصة بحياة النحل. وان كل من لديه ولو فكرة بسيطة عن طبائع النحل ونظام معيشتها وعاداتها ليعجب من هذه الدقة التى استطاع شوقى ان يتوخاها والتى دلت على دراسته لهذه الحشرة فى سنة ١٩٢٣ (وقت نظم القصيدة) معتمداً على مطالعاته فى تآليف ميترلنك الأديب البلجيكى الشهير، فانك تدهش حين تقرأ لشوقى عن الملكة :

تحكمهم راهبةٌ ذكّارةٌ مغبرَّهْ
عاقدةٌ زنّارَها عن ساقها مشمّرهْ

وترى دقّـنه فى وصف النحلة العاملة :

تلثّمتْ بالأرجوانْ وارتدته مئزَرهْ
وارتفعتْ كأنها شرارة مطيَّرَهْ !
ووقعتْ لم تختلجْ كأنها مسمَّرَهْ !

ثم تنظر الى هذا التصوير الدقيق لعادات النحل :

﴿ مكتب الفقيد الكريم ، وقلما كان يستعمله إذ كان يجلس ويؤلف في حجرة نومه ﴾

تقتل أو تنفى الكسا ـلى فيه غير مُنْذَرَهْ
تحكم فيه قيصرَةْ في قَوْمِها موقَّرهْ
من الرجال وقيو دِ حكمهم محرَّرَهْ
لا تُورث القومَ ولو كانوا البنين البرَرَهْ!
الملكُ للاناثِ في الـ ـدستور لا للذكَرَهْ!

وتنظر الى قوله يصف سرح العاملات لجمع الرحيق من الأزهار وعودتها الى أقراصها لخزن ما تجمعه :

وتذهب النحلُ خفا فاً وتجيء موقَرَهْ
جوالبُ الشمع من الـ خمائل المنـوَّرَهْ
جوالبُ الماذيّ من زهرِ الرياض الشيّرَهْ

وما أوفق تسميته للمسالك بين الاقراص « بالأدورة » ووصفه لعودة النحل محملة اليها :

حتى إذا جاءتْ به جاست خلال الأدْورَهْ
وغيَّبتهْ كالسلا ف في الدنان المحضَرَهْ

وفي الواقع ان هذه دقة لا تتاح إلا لباحث قضى في درس طبائع النحل وتأمل حركته وقتاً ليس بالقليل ، وهي تدل على مبلغ عناية شوقي بموضوعه واهتمامه باستيعاب كل فروعه والاطلاع على ما يتعلق به ، وهذا هو الذي تعبنا في توجيه أنظار شعراء العربية اليه فليس يكفي أن يحفظ الشاعر طائفة من الالفاظ اللغوية وأن تطيعه أوزان الشعر ليملأ الدنيا نظماً في غير طائل !

ولشوقي قطعة وصفية عن « روما » يصف فيها تماثيلها وهيا كلها :

وتماثيلُ كالحقائق تزدا دُ وضوحاً على المدى وإبانهْ
مَنْ رآها يقول : هذى ملوك الدّ هر ، هذا وقارُهُمْ والرَّزانهْ
وبقايا هيا كلٍ وقصورٍ بين أخذ البلى ودفع المتانَهْ

ولا يجوز أن يعرض باحث للشعر الوصفي عند شوقي ولا يذكر قصيدته الرائعة في (أنس الوجود) التي يقول فيها :

قفْ بتلك القصور فى اليمّ غَرْقَى ممسكاً بعضُها من الذعر بَعْضاً
كعذارَى أخفين فى الماء بضّاً سابحاتٍ به وأبدَيْنَ بضّاً

أو قوله فى وصف جدّة نقوشها ورسومها :

رب نقشٍ كأنما نفض العسا نعُ منه اليدَيْن بالأمسِ نَفْضاً !

ثم انظر الى دقة وصف رسوم الضحايا :

وضحايا تكاد تمشى وتَرْعَى لو أصابتْ من قوّة لله نَبْضاً

ولا يمكن أن ننسى لشوقى قوله فى وصف منظر طلوع البدر :

يادرة الغوّاص أخرجَ ظافراً يُمْنَاهُ يجلوها على النظّارِ
متهللاً فى الماء أبدى نصفَه يسمو بها والنصفُ كاسٍ عارِ

أو قوله يصف ضاحية الجزيرة بالقاهرة فى قصيدة (رحلة الاندلس) المعروفة :

لبستْ بالأصيل حلة وشى بين صنعاء فى الثياب وقسّ
قدّها النيلُ فاستحت فتوارتْ منه بالجسر بين عُرْيٍ ولُبْس

ويكفى هذا القدر من الشعر الوصفى . وفى الحق ان شوقى أضفى على الشعر العربى الوصفى خيالا جديداً رائعاً، وقد استطاع هذا الشاعر المنجب أن يدخل معانى رقيقة سامية فى ألفاظ جزلة فخمة .

— ٥ —

وقد أتحف شوقى جمهرة المتأدّبين أخيراً بهذه الروايات التمثيلية التى بدأتها رواية (مصرع كليوباترا) وأخراها فيما نعلم هى (عنترة) التى قضى رحمه الله ولمّا تخرج من المطبعة بعد . وقد كانت خطوة جريئة من شوقى أن يقدم فى كهولته بل فى شيخوخته الشعرية على مثل هذا العمل الجليل الشأن ، ولم يكن من السهل والحركة الذهنية لشوقى فى أواخر يقظتها تقريباً ولم تتعود فى نشاطها الأول إلا الغوص على معانى النظيم أن تجىء فتخلق الموضوع خلقاً تاماً وتخرج لنا رواية مؤلفة متماسكة الأجزاء تصور ببيئة خاصة وحياة خاصة وترسم شخصيات وعقليات ونفسيات جديدة. لم يكن هـذا كله فى ميسور شوقى بك فى ظروفه الأخيرة فاستعان هذا الشاعر العظيم بالتاريخ ، التاريخ الذى يستطيع هو أن يهضمه وأن يتفهم دقائق مراميه فيجعل من احدى حوادثه أو انقلاباته نواة يرتكز عليها فى وضعه فكرة روايته الشعرية . وهكذا أخرج لنا شوقى (مصرع كليوباترا) و (مجنون ليلى) و (على

بك الكبير) و (عنترة) وكلها تمتّ الى التاريخ بصلة أو بشبه صلة ولكن المهم أن يتخذها الشاعر نواة يسير هو فى حبك خيالها .

وأنت ــ لهذه الطريقة المتشابهة فى روايات شوقى بك الاربع ــ تحسّ فيها كلها بروح واحدة متشابهة الأثر ، ثم ترى أن خصائص نظمها وسماته والروح الشعرية التى تسودها متشابهة كذلك لانك تستطيع أن تدرك عند اول قراءة لاحدى مقطوعاتها انها من شعر شوقى بك التمثيلى وإن لم تكن قد مرّت عليك من قبل ، ويكفى أن تقرأ رواية من روايات شوقى لتدرس فيها روحه وخياله وخصائص شعره التمثيلى جميعاً: ففى مصرع (كليوباترا) ترى هذا الشاعر يوزّع روحه وعبقريته على عدة شخصيات تتحدث كل منها فى ناحية ولكنها تتحد فى قوة الاسلوب والصياغة وإن تفاوتت أغراضها ومعانيها أحياناً .

غير أن هناك أمراً جديراً بالتأمل ، وهو أن شوقى بك كان فى بعض مواقف رواياته جريئاً على القيود الشعرية السخيفة التى فرضت على الشعر العربى فرضاً ثقيلاً وإن لم يجرأ عليها شوقى قبل ذلك فى حياته الشعرية الحافلة . وهو بذلكساير الحركة التجديدية الأخيرة ومشى فى طليعتها ، فاستحق تقدير المجددين بعد خصومتهم .

وقد بعث شوقى فى نفوس المتأدبين ميلاً جديداً إلى الشعر التمثيلى ووجه اليه عناية الحياة الأدبية وإن لم يكن أول من فعل ذلك فقد سبقته عدة محاولات كان لبعضها شيء من التوفيق وإن كان نصيبها من التوفيق دون ماتستحق ، لأنها لم تقترن بنفوذ شوقى الاجتماعى. ولكن المأثرة التى لاينساها الشعر التمثيلى الآن لشوقى بك هى أن هذا الشاعر العظيم غامر فى الواقع بشهرته الأدبية الكبيرة لما دخل هذه الحلبة ، وانه استطاع بقوة منه أن يدخل على هذا الضرب روحاً جديدة وأن يثير حوله حركة أدبية محمودة ؟

على محمد البحراوى
سكرتير جماعة الادب المصرى



قم إلى الأهرام واخشع واطرح	هيبة الصيد وزهو الفاتحين
وترفق إنما تمشي على	حرم الدهر ونادي الأولين
وارتق الأحجار واصعد منبرا	لم يشيد لوزير المؤمنين
ادع قومي من ذوي خوذه	بقول كالصباح المستبين
قل لهم عصر تحكم أمة	حرروا الحق وقوما صابرين
حطت النصر على ثورتكم	ولدى الناس عليها مجمعين
حرمت الليث وطابع من	ذم عليهم وصيد آخرين
فرأى مالم ير في دهره	مصر تستكبر والأفلاك دين
رجل تأوي إليه أمة	ووزير يتولى الثائرين
ويهود نزل اللورد بها	فتغنت بعصى معرضين
وجموع نزلت ما أنزلت	تجزع بالموتى مقبلين
وسواد بيضت أوجههم	آه لو كانوا السواد الغابرين
وشباب بنت أمرهم مصطفى	نصر الحق وطرفاء اليقين
وفتوة أيسى أطفالهم	كان أسرى روحهم في الذاهبين
زادهم سعد ... همة	كالحسام العضب والرمح الثمين
الشيخ الحي الكثير الصبا	أرهف الشيب وشيخ الناشئين

﴿ نموذج من خط شوقي بك ﴾

شوقى فى الشباب

قبس النبوغ فى الصغر

كرت ثمانية وثلاثون سنة على العام الذى قيده شوقى فى سجل تاريخ الادب العربى بقصيدته التى مطلعها :

« همت الفلكُ واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء »

وإنما رأيت أن تكون تلك القصيدة القديمة الجديدة موضوع هذا المقال ، لأن أمير الشعر قد نظمها وهو فى السادسة والعشرين ، فهى من أجل ذلك مرآة شبابه ، وشبابه المبكر ، وما نحب فى هذه الكلمة إلا أن نجلى عليك صورة الشاعر فى سن الشباب . نجليها عليك من شعره ، أو قل من قصيدته التى افتتحنا بمطلعها المقال ، والشعر كما يقولون مرآة الشاعر .

وأول ما يجب أن نلاحظه فى قصائد شوقى جميعاً أنها ذات طابع خاص ينميز به الشاعر عن سواه ، والطابع الخاص فى نثر الناثر البارع وفى شعر الشاعر الفنان يعرف من لفظه ومعناه ، ولكن طابع شوقى لا يقتصر على هذا الذى يشترك فيه الكتاب والشعراء طراً ، وإنما يضاف اليه طابع آخر جدير بالعناية والتمحيص : هذا الطابع هو الهدوء فى أدق المواقف والتعقل فى أذكاها للعاطفة ، وهدوء الرجل وتعقله يحملانه على التسامح مع من يضارونه ومن يحاسنونه ، وعلى الأخذ عن الأخلاق فى النقد والهجاء ، وعلى حشد ما يجب أن يحشد من المعلومات فى القصيدة التى يريد أن يخرج بها الى الناس ، ثم على ترتيبها وتبويبها وبطوالع المنطق فيها للحكمة والموعظة . هـذا هو الطابع أو تلك هى الطوابع التى يتفرد بها شوقى فى الشعراء طراً ، وهو الى ذلك يمتاز بفضيلة ثانية ما أحسب أن شاعراً فى الغرب نافسه فيها ، فلكل امرىء فى حياته أطوار وتغيرات ، وما يعقل أن تكون أخلاق المرء وعاداته فى شبابه هى أخلاقه وعاداته فى كهولته وفى شيخوخته ، ولكن شعر شوقى فى الخامسة والعشرين هو شعره فى الستين من نواحيه جميعاً ، فما يستطيع أحد أن يفرق فى سجل الشاعر الموهوب بين ما أوحته اليه حياته فى الشباب وما أوحته اليه فى الشيخوخة ، وذلك لغز فى الرجل يخطىء من يعتذر عنه بأنه عاش طوال عمره فى بحبوحة من العيش فلم تنحرف حياته أبداً .

نعم إنه لاعتذار المخطىء ، فاذا كان شاعر العصر لم تدركه علة الفقر فالغنى يدركه الكثير من العلل : يدركه الحب وهو علة ، ويدركه طيش الشباب وهو علة تصيب الثرىّ أكثر مما تصيب الفقير ، لكنّ مستوعب شعر شوقى لا يجد فيه أثراً لبرحاء الحب ولالطيش الشباب .

ولقد أحببت أن أبحث عن تفسير لهذا اللغز ، وبدافع من هذه الرغبة اخترت قصيدته التى قرأت مطلعها عليك ، فقد أُوحى بها الى الشاعر وهو فى عهد الطيش والنزق والمغامرة من عهود الشباب ، وهى مع ذلك قطعة رصينة هادئة مرتبة يبهرك منها المعنى أولا والعلم ثانياً ، فقد رتب أمير الشعر فيها تاريخ مصر ترتيباً لا يتأتى لغير عالم فى التاريخ ، حتى الأقاصيص القديمة حشدها فيها حسبما تلزم المناسبة ، وكان ذكره للتاريخ فى إيجاز غريب لا يتأتى مع الشعر إلا إذا كان صاحبه نابغاً فذاً .

وقبل أن أرتب لك التاريخ فى هـذه التحفة الفنية الخالدة ، أنبهك الى أن الرجل قد تعلم فى أوروبا ، وتعلم المتعلم فى أوروبا لا بد أن يغير فى طابعه شيئاً ، ولكن شوقى فيما يظهر من شعره لم يكن إلا مصرياً عربياً يهزه الشرق دون الغرب ، وستجلى عليك هذه القصيدة التى قالها بعد عودته من اوروبا بزمن قليل ، فتعرف كيف لم يتأثر الرجل بمدنية الغرب وطابعه وحيويته .

وأدعوك أيها القارىء إلى التريث قليلا حتى أقول لك إن شوقى — عوض الله العربية عنه خيراً — لم يكن إلا مجدداً إلى أبعد حدود التجديد ، فما عرفنا شاعراً فى العربية يدخل على شعره من العلم ما حرصت قصائد شوقى عليه ، فهو قد طوع العلم للشعر تطويعاً نادراً ، وتكلم عن التاريخ ومجد الاختراعات والمخترعين ، حتى ليتيقن من يقرأ شعره أنه قد ألف فى القرن العشرين وللقرن العشرين وحده ، وما نعرف شاعراً فى العربية قد جدد الألفاظ وصقلها وأحياها بالاستعمال كما فعل شوقى عليه رحمة الله .

والقصيدة التى اخترناها موضوعاً لهـذا الحديث قد نظمت عام أربع وتسعين وثمانية وألف أى منذ ثمانية وثلاثين سنة ، فاذا لاحظت كيف كان نصيب مصر من المدنية على هذا العهد عرفت أن شوقى لم يكن إلا سيد المجددين .

وتتألف (كبار الحوادث فى وادى النيل) من ثلثمائة بيت إلا قليلا ، وقد رتبت من ناحية التاريخ ترتيباً غريباً فى دقته ، وكان مستهلها فى وصف البحر ، إذ قالها الشاعر النابغ فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد فى مدينة جنيف فى سبتمبر من عام ١٨٩٤ وكان مندوباً للحكومة المصرية فيه . وبعد الابداع عن البحر كان الابداع فى

وصف صانعه وهو الله . ثم تطرق الى الاشادة بمجد مصر القديمة وعظمة ملوكها ، وكيف شادوا الأهرام وسواه من الآثار الخالدة واتخذ من هذه المناسبة فرصة للرد على ما ادعاه بعض المؤرخين من أن هؤلاء الملوك لم يكونوا إلا الظلمة المتجبرين . فلما أن تركت القصيدة هذا العهد خرجت الى الاسف على حال البلاد لما دخلها الهكسوس فهدموا آثارها وظلموا أناسها ، وأنحى باللائمة على المغتصبين فهجاهم ألذع الهجو . ثم تكلم الشاعر عن ظهور أحمس ودحره للهكسوس وإشراق المجد القديم على مصر ، حتى إذا وصل الى رمسيس مجده وذكر مآثره ومآثر جده سيتى وتكلم عن سيزوستريس والآلهة المصرية القديمة وروى عنها بعض الأقاصيص ، ولم ينس الأدب فى ذلك العهد الغابر فتكلم عن بنتاؤور .

فلما أن تجاوز الشاعر هذا العهد من عهود التاريخ ذكر فتح فارس لمصر بمليكها قمبيز ، وكيف أساء الفاتحون الى البلاد ، وتوغل فى دقائق التاريخ فذكر كيف ظلمت الأسرة الملكية المصرية إذ ذاك :

جيءَ بالمالكِ العزيزِ ذليلا	لم تزلزلْ فؤادَه البأساءُ
يبصر الآل إذ يراح بهم فى	موقف الذلّ عنوةً ويجاءُ
بنت فرعون فى السلاسل تمشى	أزعج الدهرَ عريُها والحفاءُ
وأبوها العظيم ينظر لمّا	رديت مثلما تردّى الاماءُ
أعطيت جرةً وقيل اليك النهـ	ـر قومى كما تقوم النساءُ
فمشت تظهر الاباءَ وتحمى الدمـ	ـع أن تسترقّه الضراءُ
فأرادوا لينظروا دمع فرعو	ن وفرعون دمعه العنقاءُ !
فأروه الصديق فى ثوب فقرٍ	يسأل الجمع والسؤال بلاءُ
فبكى رحمةً وما كان من يبـ	ـكى ولكنما أراد الوفاءُ
هكذا المُلْكُ والملوكُ وإنْ جا	ر زمانٌ ورُوّعتْ بلواءُ ،

هذه قصة من التاريخ القديم ساقتها المناسبة الى الشاعر سوقا ، وإنما ذكرناها كلها لتعلم منها كيف كان الرجل يذكر التاريخ فى قصيدته ، حتى الاقاصيص لم يغفلها فى سجله الرائع ، ولم يكد الرجل يختتم قصة الفرس حتى وقف أمام فتح الاسكندر لمصر وتخليصها من أيدى العجم فالبطالسة ، وما كان من حكم كليوباترة وقصتها مع أنطنيو وأوكتافيو وموتها منتحرة ، ثم دلف الى روما فمجد دولتها وأشاد بما كانت عليه من عز ومنعة .

ثم فصل فى تمجيد الله عجيب ، وفى تعقيب شوقى بتمجيد الله على ذكر مجد مصر والرومان معنى عظيم الروعة والجلال . فلقد شاء له إيمانه أن يمجد الله ما دام قد مجد مخلوقاته أولا وشاء له إخلاصه أن يعتذر عن عبادة مصر القديمة لمعبوداتها المعروفة ويبرر هذه العبودية وشاءت له عنايته بالعلم والتاريخ أن يذكر هذه المعبودات القديمة . واختار لها هذه المناسبة فاسمع :

رب شقت العباد أزمان لا كتـ ـب بها يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى جمعتها الحقيقة الزهراء
فاذا لقبوا قوياً إلـهاً فله بالقوى إليك انتهاء
وإذا آثروا جميلاً بتنز يه فان الجمال منك حباء
وإذا أنشأوا التماثيل غراً فاليك الرموز والايماء
وإذا قدروا الكواكب أربا باً فمنك السنى ومنك السناء
وإذا ألهوا النبات فمن آ ثار نعماك حسنه والنماء
وإذا يمموا الجبال سجوداً فالمراد الجلالة الشماء
وإذا يُعبد الملوك فان الملك فضل تحبو به من تشاء
وإذا تُعبد البحار مع الأسماك والعاصفات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأر حام والأمهات والآباء
لعلاك المذكرات عبيد خضع والمؤنثات إماء
جمع الخلق والفضيلة سر شف عنه الحجاب فهو ضياء

وأخذ شوقى بعد ذلك يمدح آلهة مصر فتناول إيزيس وآبيس وأوزيريس. فلما أن جاء موسى استقبله بالحفاوة الشديدة وذكر قصته مع فرعون ، حتى إذا ولد عيسى هلل له وكبر ، ثم نعى للقراء دولة القياصرة وتقوض صرح روما وذهاب ريحها .

فاذا وصلت القصيدة الى النبى ألم بمولده وجهاده وسيرته عليه الصلاة والسلام وامتدح صفاته امتداحاً رائعاً وذكر كيف اتسعت دولة الاسلام ، فاذا امتدح الاسلام أوجب الشاعر على نفسه أن يمتدحه فى مصر فتكلم عن عمرو بن العاص وما آثره ، فصلاح الدين الأيوبى وقصة الصليبيين معه ، فدولة المماليك ، فدخول نابليون ، فمحمد على باشا ، فسعيد، فعباس .

ولا بد من تعليق يقتضيه المقام على هذا التاريخ فهو كتاب مفصل لتاريخ مصر

ليس أبدع منه فى ايجازه واسهابه . ومن أراد أن يلم بتاريخ مصر فعليه بهذه القصيدة العصماء التى تثبت أن العلم يطاوع الشعر ولا يعصيه ، والتى تثبت أن الشاعر قد قرأ فى حداثته الكثير المفصل عن مصر والعلم ، وهذا العلم هو الذى أبعد طيش الشباب عن شوقى فقد توفر عليه رحمه الله فى صباه حتى صرفه تقريباً عن كل ما عداه من مرح ولهو ومتاع .

* * *

وبعد ، فانا ذاكرون لك بعض الأبيات العظيمة فى هذه القصيدة التى ننصف إن نسمها ديوانا ، بل هى ديوان شعر وسجل تاريخ وكتاب علم وسفر دين كل منها رائع عجيب .

سنذكر لك بعض الأبيات وإن كان المختار يحار فى أيها أشهى للنفس ، فترى كيف كان المعنى وكيف كان اللفظ وكيف كانت الموسيقية عند شوقى وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من العمر .

نذكر لك روعة الوصف فى قوله :

ضرب البحر ذو العباب حواليها سماء قد اكبرتها السماء
ورأى المارقون من شرك الار ض شباكا تمدها الدأماء
وجبالاً موائجاً فى جبال تتدجى كأنها الظلماء
ودوياً كما تأهبت الخيل وهاجت حماتها الهيجاء !

فهل رأيت فى وصف البحر أبرع من هذا الذى نظمته يراعة فتى فى السادسة والعشرين ، وكيف ترتفع السفينه فكأنها تسير فى السماء وكيف تمد الشباك فى الدأماء (البحر) فاذا السفين يسير فيه كما تروح الروائح وتعدو العوادى فى الارض ، ثم كيف تماوج الجبال وتدوى الموجة كالجواد المسرع وتتسلسل اللجج وتتصل كالهضاب فى رمال الصحراء تتغاير كل صباح وكل ليل افاذا وصف السفر قال :

نازلات فى سيرها صاعدات كالهوادى يهزهن الحداء !

الله لهذا البيت الذى ينتقل بك من ضوضاء المدينة وحياتها إلى صميم الصحراء ، ويعود بك إلى ما قبل ألف سنة فاذا بحداء العربى لناقته يملأ اذنك ويطربك ، وكأنك تسمعه وتوقعه بقدميك !

ثم اسمع تسبيح الأمواج لله :

وإذا ما علت فذاك قيام   وإذا ما رغت فذاك دعاء !
فاذا راعها جلالك خرت   هيبة فهى والبساط سواء !
والعريض الطويل منها كتاب   لك فيه تحية وثناء !

نعم ترتفع الموجة فيقول الشاعر ان ارتفاعها قيام للصلاة وترغى فصوت ارغائها دعاء الله ، حتى اذا هالتها عظمة سيد الكون بعد أن أخذت تستطلعها فى سيرها وارتفاعها زمناً خرت - والموجة تمر وتتلاشى - فسقوطها وانبساطها اجلال للخالق واكبار ، فاذا انبسطت فهى كتاب مفتوح ليس فيه الا حمد لله وثناء ، فهل قال هذا شاعر من قبل ؟ ! هل قاله وفيه هذا الاتزان والتكافؤ والتشبيه والموسيقية واللفظ ؟؟. ثم هل قاله شاعر عربى وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين ؟

وإذا جاء ينبوع الحكمة فاقرأ :

إن ملكت النفوس فابغ رضاها   فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ   ـر فكيف الخلائق العقلاء ؟!
يحسب الظالمون أن سيسودو   ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائر مثلما جا   روا وللدهر مثلهم أهواء

حكمة تقال فى كل زمان ومكان ، تُقال فى الظالم وفى الدهر فتردع من يظلم ، وترد من يطغى وتذكر من غره النسيان . حكمة قدت من التجارب قداً واستلت من التاريخ استلالا ، والتاريخ موعظة وعبرة لم يغفلها شوقى ابداً ، فهو لا يرويه غراماً فى الفخر بالعلم ، وإنما يرويه ويبرز منه الحكمة فيذكرها محكمة رائعة منطبقة على كل مناسبة .

والآن نعود بك إلى قطعة ذكرناها عن ظلم الفرس للأسر المصرية المالكة فأعد قراءتها تتملك جسدك قشعريرة ، وتأخذك الضغينة على الظالم والتفجع للمظلوم ، فهل أعظم من وصف هذا الاضطهاد مما ذكره شوقي، وإذا أسهبت كتب التاريخ فهل تستطيع أن تصل الى اعماق نفسك وتصف الحال كما وصفه هذا الشعر العتيد ؟ واليك بعد ذلك أبياتاً فى الهجاء قالها شوقي عن كليوباترة والأفعى التى لدغتها فماتت :

سلبتها الحياة فاعجب لرقطا   ء أراحت منها الورى رقطاء !
لم تصب بالخداع نجحاً ولكن   خدعوها بقولهم حسناء !
قتلت نفسها وظنت فداء   صغرت نفسها وقل الفداء !

هجاء ليس فيه على مرارته قبيح ولا فجور ، وإنما روعى فيه التجديد فما خرج فيه الشاعر عن أخلاق الرجل المهذب ، ولو انه وصف كليوباترة بالحية والحية خير ما توصف به المرأة الجميلة المغرية الخادعة ، ولو إنه قال أن قتلها لنفسها أحقر من أن يكون تكفيراً عن سيئاتها ، ثم ولو أنه أصغرها حتى عن القدرة على الخداع فقال إنها لم تخدع وإنما خدعت بالاطراء فظنت نفسها اميرة القلوب وسلطانة الهوى والغرام .

ونحيلك فى ذكر المدح على القطعة التى مجد بها الله فى هذه التحفة الرائعة والتى عرضناها عليك ، فالحق أن للناس أهواء هى التى حملت بعضهم على تأليه القوى ، وبعضهم على تأليه الجميل ، وتأليه الأوثان والكواكب والنبات والجبال والملوك والبحار والأسماك ولكن مرجع هذه الآلهة كلها إلى الله خالق تلك الآلهة ، فأنعم به اعتذاراً عن شتى ألوان هذه العبودية !

وإذا قرأت فى وصف شريعة عيسى عليه السلام :

لا وعيد ، لا صولة ، لا انتقام	لا حسام ، لا غزوة ، لا دماء
ملك جاور التراب فلما	مل نابت عن التراب السماء !

أخذتك روعة ليس لجلالها حد ، ففى بيت واحد أجمل شوقي فى شريعة عيسى فأسهب وجمع ولم يترك قولا لقائل . ولقد ذكرت فى أول الحديث أن الرجل كان مسالماً متسامحاً وفى هذين البيتين دليل المسالمة والتسامح : ففى البيت الثانى مرق الشاعر بلباقة من قصة عيسى والخلاف عليها بين المسلمين والمسيحيين .

أما مدح سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فاسمع منه :

فرأى الله أن تطهر بالسـ	ـيف وأن تغسل الخطايا الدماء
وكذاك النفوس وهى مراض	بعض أعضائها لبعض فداء

فلقد وجب الجهاد فى سبيل الله إذ ذاك .

أيرى العجم من بنى الظل والمـا	ـء عجيباً أن تنجب البيداء
وتثير الخيام آساد هيجا	ء تراها أسادها الهيجاء ؟

ثم يتدرج الحديث الى تاريخ مصر منذ فتحها عمرو بن العاص ، فيتكلم عن عمرو وعن صلاح الدين واشتباكه مع الصليبيين وفى ذلك يقول :

ليس للذل حيلة فى نفوس ،	يستوى الموت عندها والبقاء !

فهل فى الفخر والمدح أروع من هذا ؟ ضاق الذل بالمسلمين ذرعاً وهو يحاول الدخول فيهم فلا يستطيع ! وكيف يستطيع وهم قوم يستوى عندهم الموت والحياة ؟!

ثم ذكر المماليك فسجل عليهم مساوئهم حتى فى جباية الضرائب ، فلما جاء نابليون استقبله الشاعر بفصل جاء فيه :

ولو استشهد الفرنسيس روما لأتتهم من رومة الأنبـاء
علمت كل دولة قد تولت أننـا سمها وأنا الوباء !

يثبت لك هذان البيتان ان الرجل فى سنه المبكر لم يقتصر فى قراءته على كتب العرب . فلقد ذكر روما وذكر الامم التى احتلت مصر جميعاً وأنبأ عن كل منها فى جمل قصيرة ، ولو أن نابليون سمع ما قيل فيه لعلم أن هناك من هو أخلد منه على الدهر ، فاسمع :

سكتت عنه يوم عيَّرها الأهرام ، لـكن سكوتها استهزاء !
فهى توحى اليه : أن تلك واتر لو ! فأين الجيوش ؟ أين اللواء ؟

الأهرام تهزأ بنابليون وتعرف من أمر المستقبل ما لا يعرفه سواها . هذه المطلعة الخالدة الثابتة فى مكانها والجيوش تتحرك وتقهر وتنتهى حينما الأهرام تلقاها بالاستهزاء لأنها تعرف السر الروحى فى هذه البلاد وتعلم ما يخبئه الزمن فى جعبته !

نعم انتصر وافعل ماشئت فستخذلك فى القريب واترلو ، بل وستقبر قوتك وتطيح بفتوحك الى الأبد !

ولقد هزت الشـاعر نـكبة مصر بقناة السويس ، وألهمته أبياتاً رائعة تضمنهـا الحديث عن سعيد :

جمع الزاخرين كرهاً فلا كا نا ، ولا كان فى ذلك الالتقاء !
أحمر عند أبيض للبرايا حصـة القطر منهما سوداء !

وأنا أترك لك استبانة الجمـال فى هذا الشعر ، لأقول لك فى خاتمة هذا المقال الذى نالت العجلة منه ، أنك تلمح اعتداد شوقي بنفسه وبقدرته فى أكثر قصائده ، فهو يختتم هذه القصيدة بالحديث عن عباس الثانى وعن نفسه معاً :

عزيز الأنام والعصر سمعاً فلقد شـاق منطق الاصـفياء
إن عصراً مولاى فيه المرجّى أنا فيـه القريض والشعراء
هذه حكمتى ، وهـذا بيـانى لى به نحو راحتيك ارتقـاء
كيف تشقى بحب حلمى بلادٌ نحن أسيافها وحلمى المضاء ؟!

تكلم عن عباس وعن نفسه معا لأنه قضى شبابه ببابه ونال من عطفه. فالشاعر الفذ الذى يحس نبوغه وهو فى السادسة والعشرين ، هو رجل ثابت العزيمة لا بد أن يصل الى المكانة التى يريدها .

هذه كلمة عجلى عن الشاعر المجيد فى شبابه المبكر ، فهل تصلح صورة للرجل فى ذلك العهد ؟ إن تكن صورة فهى فى ملامحها وألوانها مرآة شاعر قد تسنم ذروة النبوغ شاباً ، فلو أنه مات فى السابعة والعشرين لكتب له من الخلود ما يكتب له اليوم ، وتلك ميزة الزعامة تبدو فى كل عهد وكل موطن وكل زمان ؟

محمد نزيه



منزلة شوقى وأسره

تجرى حوادث الطبيعة والاجتماع على معايير تختلف قيمتها وآثارها باختلاف الوضع والزمان . وتحتكم هذه المعايير فى الحياة الانسانية فلا تفوت للانسان من حرية الاختيار الا قدراً بينه وبين الجبر الصرف فارق ضئيل لا يكاد يُرى !

أما هذه المعايير فلا ضابط لها فى تصريف حظوظ الناس : فهى تضرب فى ذلك عن غير قصد وتخبط خبط عشواء ، وترمى أحد الناس بأشد الكوارث وتحبو الآخر بمباهجها وتزوّده بما فى وسع الدنيا ان تزوّد به الذوات الفانية من المجد والعظمة العالمية .

وأنت ترى ان فى التاريخ حوادث لا تعيد نفسها ، على الضد مما يذهب اليه البسطاء إذ يقولون أن التاريخ يعيد نفسه . فان التاريخ يتعاقب وتتشابه اجزاؤه . أما أن يعيد نفسه فوهم من الأوهام وتجريد للذهن لا أثر فيه من الحقيقة . والانسان بطبعه محتاج للاوهام شديد الميل الى التجريد والى الاشياء الخفية المقنعة يجرى وراءها ويعبدها من دون كل الاشياء التى جعلته انساناً حقيقياً بصفات الانسانية !

من الامثال التى نضربها على ذلك امثال يمكن ان نتناولها من اطراف الحياة الانسانية على اختلاف وجوهها وتلاحق صورها الشتيتة : فان غاليليو مثلا قد

وجد فى عالم يحتاج الى فكر مثل فكره ليكشف عن سر نظامه الفلكى وعن أن الارض هى التى تدور حول الشمس . وهذا الحادث لن يتكرر فى التاريخ ، فمرة واحدة لا أكثر يمكن ان يوجد نظام كالنظام الشمسى يحتاج فى كشف سره . ومرة واحدة تتهيأ الفرصة لانسان مثل غاليليو ليستعين بالرياضيات والبصريات ليعرف ذلك السر . كذلك كان الامر مع نيوتن فان النظام الذى كشف عنه غاليليو كان يحتاج الى تعليل ، ومرة واحدة يوجد نظام فلكى كنظامنا الشمسى يحتاج الى تعليل ويكون من نصيب نيوتن . ومرة واحدة يحتاج نظام النشوء العضوى الى تعليل فيكون من نصيب داروين . وهذه الحوادث وأمثالها لن يعيدها التاريخ ، فانها انما تقع لاول وآخر مرة فى تاريخ الدنيا وتكون من نصيب أفراد خصوا بأرقى الكفايات ، كما خصوا بأسعد الحظوظ . ومرة واحدة أيضاً تظهر دولة كدولة المغول لا تعرف للفن قيمة ولا للآداب وزناً ولا للمدنيات حرمة ، تمضى فى سبيلها الحربى وتنوء بقواتها على الدولة العربية فتحطمها وتبيد آثارها وفنونها وتقضى على آدابها وتترك الشعر فى هذه الدولة العربية ـ بعد ان أتت على الطارف منها والتالد ـ يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة . ومرة واحدة بعد ذلك يظهر شاعر كشوقى فيتلقى بقايا الشعر العربى الذى أبقت عليها دولة المغول فيحيى منه الموات ويصبح بحكم الظرف الذى وجد فيه ، وبحكم المواهب التى مكنته من احياء الشعر العربى ، أمير الشعراء ورافع علم الأدب العربى فى طليعة القرن العشرين . فمجد شوقى إذن يكوّنه عنصران لا ينفصلان : عبقرية غير منكورة ، وحظ باسم أبقى عليه القدر طوال قرون ليجعله من نصيب مصر وشاعرها العظيم .

فمنزلة شوقى اذن من الشعر العربى منزلة الحلقة تصل بين ماضى الشعر فى العربية وبين العصر الحاضر ، لا ليقف امرها عند هذا الحد ، بل لتتجلّى بامانة الشعر كما خرجت من أيدى القدماء ثم ليُصَبَّ فى القالب الذى سوف يَصُبُّهُ فيه المجددون من أبناء القرن العشرين فى العالم العربى . ومرةً واحدةً أيضاً تتهيأ الفرصة لعبقرى موهوب يجد فيها الشعر العربى محتاجاً للتجديد ، ومحتاجاً لاقتحام أبواب الحياة الواسعة المستفيضة ، فيخرجه من الحيز الذى حبسه القدماء فيه حتى مات على يد المغول ، ثم نفخ فيه شوقى نسمة الحياة . أما ذلك العبقرى السعيد الموهوب فمن ذا يكون ؟ القدر وحده كفيل بان يخرجه من الاصلاب الى البطون ثم الى الحياة ثم الى التراب ، بعد ان يبنى المجد بلبنات الفنون ، ويترك للشعر العربى آثاراً مخلدةً .

بجانب هذه الناحية التي يهيء فيها الزمان قليلاً من الموهوبين السعداء لظروف لن يعيدها التاريخ ليبني بتلك الظروف اعظم صرح في هيكل مجدهم ، تجرى الطبيعة على أقدارها فتظلمهم ، ويكون ظلمها متزناً مع ما هيأتهم به في ظروف الحياة السعيدة ! فان الطبيعة تلقى فى قلوب الناس ان ذلك العبقرى الموهوب يجب أن يكون مجرداً عن النقائص متحلياً بكل الكمالات الانسانية . وقد يسعده الحظ حيناً فيجرى الناس على أنه ذلك الرجل ، فاذا دارت عجلة الزمان دورة أخرى ، وتخطت بالناس عصر ذلك الرجل الكبير ، وجددت الحظوظ العالمية فى مراقى العلم والفن ، قِيس قدر الرجال دائماً بمقدار الفارق بين الزمانين وبمقدار ما دارت عجلة الزمان على الاشياء وعلى عناصر الاشياء وعلى الفنون والآداب ، فيخرجون من جماع ذلك بما نعتبره الظلم الاكبر فى وزن الرجال وتقييم أعمالهم ووزن آثارهم !

غير أن شاعرنا الكبير شوقي قد يخرج عن هذه القاعدة بعض الشيء وقد يتناوله سلطانها فى أكثر الاحيان . يخرج عنها لانه أحيا قديماً ولم يبدع جديداً ، ويدخل تحت سلطانها لانك لن تستطيع ان تقيِّم شوقي وان تزنه الا بميزان تضع فى احدى كفتيه الشعر القديم ، أو بالاحرى مبدعات الشعر القديم ، وفى الأخرى شعر شوقي . على أنك لا تلبث ان تفعل هذا حتى تجد ان كفة شوقي قد شالت وشارفت على السماء ، وأن كفة الشعر القديم رجحت وقاربت الأرض ! هذا اذا انت مضيت تقارن المختار من المجموع القديم الذى أفلت من تخريب المغول ، بالمختار من شعر شوقي . وانك لواجد بعد ذلك أن الدعوى العريضة التى يدعيها الذين اخذتهم صيحة المبالغة والعجز عن تقييم الآثار الادبية من أن شوقي قد جدد فى أساليب الشعر وفى معانيه وتراكيبه ، دعوى لا يستطيعون أن يقيموا دليلا واحداً عليها . فان شوقي شاعر جديد بعصره وزمانه ، قديم باساليبه ومعانيه وتراكيبه ومنازعه ، وقد يشارف فى بعض هذه النواحى على افق الطبقة الثانية من القدماء ، وقد ينزل فى نواح أخرى الى الطبقة التى رضيت بامثال صر در وأبى الشمقمق ان يكونوا شعراء ، بالمعنى الذى نفهمه من الشعر فى دواوين البحترى وابى تمام وابن هانىء والمتنبى .

أما الفارق الوحيد الذى يفصل بين شوقى وبين شعراء العهد القديم فتجديده فى القوالب التى صبَّ فيها الشعر العربى . وغالب الظنِّ ان عبقرية شوقي مسوقة الى هذا غير مختارة . فان روح العصر والبيئة حكماً اضطر شوقي لأن يصبَّ الشعر

القديم بأساليبه وتراكيبه ومعانيه فى قوالب يمتزج فيها روح الأدب العربى الصميم بحاجات هذا العصر ومقتضيات البيئة . ولولا هذا لما استطعنا ان نقول إن شوقي قد أحيا الشعر العربى ، لان احياء هذا الشعر معناه اقتباس الاساليب القديمة ، وصبها فى قوالب تلائم ذوق هذا العصر . وان هذا الأثر وحده لجدير بان يجعل شوقى أمير الشعراء فى عصرنا هذا ؟

اسماعيل مظهر

◆◆◆◆◆

شعر شوقى

مضى أربعون عاماً أو نحو ذلك وشوقى يحمل لواء الشعر العربى وجعل شعراء العرب يسيرون وراءه فى جميع الاقطار العربية ، ويقرؤون شعره ويغبطونه او يحسدونه على مكانته . فكان لشوقى الفخر فى الحصول على هذه الزعامة رغم ما لقى فى سبيل ذلك ، وكان له الفضل فى أن جعل وادى النيل منبع هذا الشعر وموطنه ، وكان لمصر أن تزهو بما أوحت اليه من أخيلة لا شك فى أنها هى موردها العذب : فان ما نزل بهـا من حوادث وما مر بها من إحَنٍ وما بقى بها من أثر تلك الثقافة العربية المتأصلة فى نفوس أدبائها وعلمائها ومن أساليب التفكير لديهم وفى نوع الادراك والتعبير ، ثم ما يتمشى فيها من أثر الدين والاخلاق فى نفوس أبنائها ـ كل ذلك ملك من نفس شوقى وهذب من خياله وكشف له عن دقائق الافتنان حتى أصبح كما رأيناه وعرفه الناس من كبار الفنانين والشعراء واكتسب هذه القريحة النادرة التى شهد له بها جلة أدباء العرب وشعراء العربية .

ربما كان الحكم على شعر شوقى الآن عسيراً او ناقصاً او خاطئاً لأن المعاصرين لكبار الرجال لايكادون يحكمون عليهم حكماً صحيحاً خالياً من الحقد أو مملوءاً بالاعجاب لما يكون من أثر فى النفوس بسبب الاتصال بهؤلاء الرجال بنوع من الحب أو البغض . وكثيراً ما يدفع الغرور بالناس فى بعض العصور الى الجرأة فى الحكم على المسائل الفنية الخالصة بدون علم سابق ولا دراسة صحيحة ولا ثقافة كافية ولا سيما فى الحكم على الأدب والأدباء من شعراء وكتاب وبخاصة فى أوقات الفوضى العقلية التى

تكون فى عصور الانتقال كما هى الحال فى بلاد الشرق الآن . ولكن على الرغم من ذلك فان للفنون شعاعاً يخترق حجب الظلمات ويمزق ستور الضغائن : فان الفنون سرٌّ من اسرار الكون ، والفنيون رسل الجمال تؤمن النفوس برسالاتهم أو هى كالعبير يعطر الاجواء ويتمشى فى ذرات الهواء . ولا يجرؤ انسان مهما علت منزلته فى الادب أن ينكر ما كان ويكون لشوقى من أثر فى الشعر العربى الحديث ومنزلة فى عالم الادب حتى كاد يكون ذلك اجماعاً . أما ما يلصقون به من عيوب وما يرمون به خياله من نقص فذلك مما لا يخلو منه انسان مهما سمت عبقريته أو خلصت نفسه أو صفا خياله ، وكثيراً ما تكون هذه الآراء ناشئة من اختلاف الناس فى تذوق المعانى وتفاوتهم فى معرفة أوجه الافتنان .

لقد تخطى شوقى أدواراً فى حياته الفنية فكان يرد فى أول أمره موارد القدماء فامتلأت نفسه بصور من شعر فطاحل الشعراء الاقدمين كأبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبي وأبى العلاء وغيرهم ممن أتى من بعدهم فتبعهم فى أساليبهم وألفاظهم ومعانيهم وأخيلتهم ، وما مدحه للخديوى توفيق ونجله عباس الا ضرب من المحاولة فى محاكاة هؤلاء الشعراء وهو ظاهر فى أسلوبه الغزلى . ألا ترى هذا فى مدح الخديوى وهو يهنئه بقدومه من الاسكندرية :

نصبن لنا فى مسرح الحدق الهدبا وجاذبننا الالباب يأخذنها غصبا !

لواهى بالسفح انحدرن الى الضحى شموساً وودّعن الأصيل به سربا

وغادرننا لا ألسن غير أعين تسائل عن أمر الخفىّ الذى دبّا

الى آخر هذا الكلام الذى ترى ديباجته وقد طال عليها القدم . وقد تقيد فى هذا النوع بأخيلة القدماء من ذكر الوشاة والعيون وأثرها وغير ذلك مما هو معروف من أوله فقال :

ان الوشاة وإن لم أحصهم عدداً تعلموا الكيد من عينيك والفندا !

لا أخلف الله ظنى فى نواظرهم ماذا رأت بىَ مما يبعث الحسدا ؟!

لولا احتراسىَ من عينيك قلت ألا فانظر بعينيك هل أبقيت لى جلدا ؟!

وهكذا كان أسلوبه فى بدء قصائد المدح بالغزل ، وله فى ذلك بدائع على نحو ماهو معروف عند القدماء من المبالغة فى الاوصاف ونسبتها الى الممدوح ، وقد دفعته الحوادث فتخطى هذا الدور الى أدوار أخرى لا يسعنا الآن ذكرها جميعاً .

ولكنه منذ نشأته وهو يميل الى الابتكار والابداع فى أسلوبه وخياله حتى لقد تقرأ فى كلامه معنى غيره فيخيل اليك أنه معنى مبتكر لم يسبق اليه . ذلك لان الشاعر الفنى كالمصور الماهر يرسم مناظر الطبيعة كما يرسمها سواه ولكنك ترى براعته تدل عليه وأسلوبه يعبر عن افتنانه وما فى نفسه من أسرار الفن وتمكن الجمال منه كما تجد المصور يرسم ما رسمه غيره ولكنه يؤلف بين اللون واللون ويبرز ما بينهما من التناسق والمشاكلة فيخيل اليك أنه شيء جديد . وهل الفن الا هذا السر الذى بثه الله فى نفوس الفنانين فيبرز كل منهم ما فى نفسه وما علق بها من ادراك وما قدر عليه من تنسيق ؟ والعجيب فى شعر شوقى أنه يمدح رجلا واحداً نحو ربع قرن بكلام كثير وقصائد طويلة ولا يكاد يشعر القارىء بالملل من قراءة هذه المعانى المتشابهة ولا بابتذال او تكرار ! واذا كبا قلمه أو ضن عليه خياله بشيء جديد ستر ذلك بافتنانه حتى لقد يدفع القارىء نفسه دفعاً لتذوق كلامه على الرغم مما فيه أحياناً من غموض وابتذال ! وكثيراً ما يكون ذلك فى غزله الصناعى الذى يبدأ به قصائد مدحه ومع ذلك ففى غزله الخالص صبغة خاصة به ورقة وجزالة ، فتجد وأنت تقرؤه كأن عاشقاً تقطعت به الاسباب فأخذ يشكو ويئن من بلواه فيقول :

علموه كيف يجفو فجفا ظالم لا قيت منه ما كفى
مسرف فى هجره ما ينتهى ! أتراهم علموه السرفا ؟!
جعلوا ذنبي لديه سهرى ليت بدرى إذ درى الذنب عفا!

أما ابتكار شوقى فاظهر ما يكون فى شعره عن أسرته وأولاده وتفننه فى رسم ما كان حوله وما يجول بنفسه من شعور وحب وحنان ، وهو حادث جديد فى الشعر العربى الحديث واشبه ما يكون بشعر ابن عباد الاندلسى . وأصدق ما يكون فى الدلالة على نفس شوقى من حيث صلته باسرته وحبه أهله بل هو صورة من صور أسلوبه الفنى فى رسم الحوادث المنزلية وتصوير جزء من حياته بألوانه الحقيقية بأسلوب خلاب جميل (بسيط) غير متكلف يرسم عطف الوالد ودلال الاولاد ثم حب هؤلاء لهم ، لا بكايات عامة جوفاء بل بسرد الحوادث ورسمها ، فاذا قرأتها فكأنك ترى الطفل يحبو أمامك ويدل على أبيه فيضحك لضحكه ويبكى لبكائه . أرأيته كيف يخاطب ابنته وهو فى موقف الرجاء وكأنها أكبر أمنية له ؟ ألا تسمع صوته يتهدج وعبراته تكاد تسيل حناناً على ابنته ؟ اسمعه يقول :

وأسأل ان تسلمى لى السنين وان ترزقى العقل والعافيه
وان تقسمى لأبرِّ الرجال وان تلدى الانفسَ العاليه
ولكن سألتك بالوالدين وناشدتك اللعب الغاليه
أتدرين ما مرَّ من حادث وما كان فى السنة الماضيه
وكم بُلتُ فى حلل من حرير وكم قد كسرت من الآنيه
وكم قد خلتْ من أبيك الجيوب وليست جيوبك بالخاليه
وكم قد مرضت فأسقمته وقمت فكنت له شافيه
ويضحك إن جئته تضحكين ويبكى إذا جئته باكيه ؟!

وكل ما قاله فى أولاده بديع جميل يدل على انتحائه فى الشعر ناحية واحدة لم يأخذ فيها شيئاً عن غيره ، وعلى أنه يميل الى رسم النفوس والحوادث وينظر نظراً صادقاً فيما حوله .

ومما يمتاز به شعر شوقى مابه من ثقافة جدية تظهر فى كل نواحى كلامه ، ولكن شوقي فى آخر أيامه كان أعظم ما يكون شاعراً وأبدع ما يكون مبتكراً بما أخرجه من آيات الشعر العربى فى قصصه التمثيلية . فهذا النوع جديد يحسب شوقى من أئمته ومن مبتكرى أساليبه مهما قيل فى ذلك ، وما كان لأحد أن ينكر قدرته وافتنانه ومحاكاته أساليب كورنى وراسين رغم كل نقص فنى فى هذه القصص .

ألا ترجع معى أيها القارىء الى أوائل شعره فأذكرك بنظم القصص على ألسن البهائم والطيور ، ولعل ذلك هو البذرة الأولى فى ميله الى نظم الشعر القصصى ؟ وقد ظهر فى هذا النوع ضربٌ من السهولة فى النظم ربما لا تُرضى أهل الأدب المغرمين بالصناعة والرصانة .

ولقد كانت تتقاذف شوقى الحوادث التى يمر بها فتزيد من الهاماته وخياله الشعرى لأن نفسه كانت حائرة مضطربة طلقة كنفوس جميع الفنيين، يريد أن يستمد الوحى والالهام من كل شيء يحيط به. لذلك كانت حوادث مصر الأخيرة منذ الحرب العالمية الى اليوم منبعاً من منابع شعره ، وكان هذا الاختلاف السياسى والتقلبات الاجتماعية من دواعى توليد المعانى فى نفسه .

وماذا تقول فى شوقى وشعره وما فيه من أمثال سائرة وحكم غالية ؟ لا نريد أن ننقد شعره الآن، ولا أن نذكر كل ما له وعليه ، فلنا جولة أخرى إن شاء الله ؟

احمد ضيف

شوقى منحة أجيال

اذا مُنح الانسان موهبة الشعر ونزل عليه إلهام الخيال ونال حظاً من الأدب وفقهاً فى اللغة واستعمل تلك الموهبة واستغل ذاك الخيال واستعان بحظه فى الأدب وانتفع بمعارفه فى اللغة وكان ذا ذوق سليم وشعور حى فياض واشتغل مع كل هذه المؤهلات العقلية الفنية بقرض الشعر وراض نفسه على المرانة فيه فانه ينتج شعراً طلياً جذاباً يأخذ بالقلوب ويملك المشاعر بما فيه من شاعرية راقية وخيال سام وجودة فى الأسلوب وملاحة فى التعبير ، وربما عُدَّ صاحب هذا الشعر اذا بلغ فيه المنزلة السامية من الفحول ووصل به الى الانخراط فى سلك الطبقة الأولى من طبقات الشعراء .

ويوجد من نوع هذا الشاعر كثير من الشعراء ، ولا يخلو عصر أوجيل من وجود العدد الوافر من هذا النوع . وما أكثر شعراء العربية الآن فى جميع بلاد العرب الذين تتوافر فيهم هذه الصفات ويمتاز بعضهم على بعض فى نواحى هذه النعوت .

وليس من الضرورى لهذا النوع من الشعراء حتى المبرزين منهم النبوغ فى العلم وسعة الاطلاع فى المعارف والخبرة العميقة فى التاريخ والوقوف على دقائق الظواهر الاجتماعية ومسائل المجتمع الانسانى والاشراف على ألغاز الطبيعة وأسرار الوجود العام ، فكثيراً ما نجد من الشعراء الممتازين بموهبة الشعر وطلاوة النظم من لم يزد تعليمه وتهذيبه المدرسى على الدراسة الابتدائية . ومَن كان هذا شأنه فلا ننتظر من شعره الطلى العبقرى أكثر من الخيال المجرد من الأحكام العلمية والنظريات الفلسفية والظواهر الدقيقة الاجتماعية وان اشتمل على نوع من الحكمة المعروفة فى شعر المتنبى وتجرد عن الفلسفة المأثورة فى شعر ابى العلاء ، والأولى ترمى الى المعنى السامى الاجتماعى فى التركيب البديع والثانية قصد بها أبو العلاء الى الفلسفة الفنية الاصطلاحية ومذاهب الفلاسفة ، والأولى تأتى الهاماً والثانية تعلماً ولا يتعلمها الا العلماء الفلاسفة المثقفون .

اذا اجتاز الشاعر دور الدراسة الابتدائيه والتربية المدرسية الأولى وانقطع عن هذا العمل الى غيره وأربى على سنى التعليم فليس فى وسعه ولا فى طبيعته أن يستأنف بنفسه التثقف فى العلوم والفنون والحكمة ، وليس من السهل له أن يقف

على روح التاريخ مهما قرأ فى التاريخ ولاأن يفهم سلسلة المجهود العقلى الانسانى حلقة بعد حلقة مع اتصال الحلقات وإحكام الارتباط .

لهذا لاننتظر من شعر امثال هؤلاء الشعراء سوى الشاعرية الرائعة الخلابة فى الأسلوب العذب الجذاب لنتفكه بقراءته ونطرب لسماعه غير منتظرين بعد الفن اللفظى الممتع والابداع القوى فيه شيئاً من الفنون الجميلة ، أو نوعاً من العلوم القديمة والحديثة ، أو لوناً من الثقافة العقلية العامة ، أونحواً من الحكمة الاصطلاحية الفنية فى مذاهبها المختلفة التى تفسر الوجود الكلى من حيث المبدأ والتغيير والمصير .

* * *

فوق هذا النوع من الشعراء وعلى هامة الأدب الراقى يوجد نوع آخر من طراز خاص ممتاز . وهذا النوع السامى الممتاز من الشعراء هو الذى تتوافر فيه — على وجه كامل — الصفات والنعوت والمؤهلات التى يكوّن كلها أو جلها النوع الأول الطبيعى المألوف من الشعراء ويمتاز مع ما تقدم بتربية علمية عالية وتهذيب عقلى كامل واسع يستجمع بهما فى ذهنه مع موهبة الشعر وسمو الخيال ثقافة جامعة شاملة تجعل صاحبها يشرف على اسرار الوجود الكلى وألغاز الكون العام ويفقه علوم الانشاء وروح تاريخه العام وتاريخ مجهوداته العقلية من بدء العصور الأولى حتى الآن .

هذه الثقافة الواسعة العالية هى بالطبع الينبوع السامى الجدّى الذى يغترف منه الشاعر الممتاز والامام الجليل فيجتمع له فى شعره بذلك وبسمو الخيال وطلاوة النظم وبموهبة الشعر الابداع اللفظى والمعنى الرائع الجذاب والحكم العلمى الفنى الصحيح بما يشتمل عليه شعره من علم وفن وحكمة سامية وفلسفة فنية عالية وعبرة من التاريخ الانسانى وعظة من روحه الحاكمة فيه .

ومثل هذا النوع نادر الوجود ، وعلى الاخص فى الأمم التى لم تستكمل بعد ثقافتها ولم تصل فى رقيها العلمى الا الى حد محدود ليس شائعاً فى الغالب فى كل الافراد بل فى بعضهم ، وقليل ما هم .

واذاً نحن الآن فى نهضتنا العلمية لم نصل معها الا الى حالة لو قارناها بمثلها فى الرقى العلمى الأوربى لوجدناها فى درجة النهضة التى كانت عليها أوربا فى عهد الريناسنس أو احياء العلوم .

وينتج من هذا أننا لسنا فى دور ننتظر فيه من كل شعرائنا أن يكونوا — مع تمتعهم بمواهب الشعر وقوة الخيال إلى آخر ما أوردناه عند الكلام على النوع الاول من الشعراء — بالغين حدود الثقافة العامة الجامعة ، لأن هذا ليس فى طبيعة جيلنا الحاضر بالنسبة الى الشرق بل يحدث فى جملة أجيال آتية يمكن حصرها اذا قيس نهوضنا بنهوض أوربا ، وعلمنا أننا لا نصل الى ما وصلت اليه هذه القارة الآن الا بعد أجيال بعدد الاجيال التى بين عهد الريناسنس والعهد الحاضر .

***

اذا تقرر ذلك فلانكون مغالين اذا قلنا بأن شوقى أمير الشعراء منحة أجيال أعنى الأجيال الغابرة منذ عهد امرىء القيس إلى الآن وأجيال آتية لا ندرى عدّها وإن قدرناها بعدد الأجيال التى بين عهد الريناسنس فى أوربا والوقت الحاضر .

أجل ، شوقى أمير الشعراء منحة أجيال غابرة وآتية لأنه جمع بين اسمى موهبة للشعر وأرق خيال فيه وبين الثقافة العامة الجامعة الحديثة التى امتاز بها من بين شعراء العربية فى الماضى والحاضر . وانى لنا بمثله تجتمع فيه كل هاتيك الخلال ؟ ان هذا لعمرى لا يوجد ولا يتحقق إلا على غير سنن طبيعي وفى استثناء غير اعتيادى . ومتى يسمح الدهر بغير سنته ويظهر باستثناء فى نواحيه ؟ ربما حدث هذا فى جيلنا الحاضر أو بعد أجيال .

***

لست فى حاجة الى ايراد أمثلة من شعر شوقى ونثره الحكيم للدلالة على أنه وهو المفرد العلم فى الذروة وفوق الهامة بالنسبة الى موهبة الشعر فيه وفى أعلى مكانة من التفوق، كما أننى لست فى حاجة أيضاً إلى أن أسوق نبذاً من انتاجه الشعرى والنثرى مستدلا بها على مدى تهذيبه العالى وثقافته العامة السامية ، فشعر شوقى كله عذب وكله رائع ونثره كله بديع وكله حكيم مع امتلائهما بالعلم والفن والفلسفة والتاريخ والارشاد والهداية والأحكام الصادقة والعظة والاعتبار . ولا يفقه شوقى ويبلغ مدى مايرمى اليه شعره ونثره الا مثقف ثقافة شوقي : فهو على سهولته وعذوبة اسلوبه كنز مكنون وسر محجوب سترفع حجبه البحوث العلمية العميقة المتوالية لأرباب العقول الراجحة والمعارف الواسعة على توالى الأيام والدهور .

نعم لسنا فى حاجة الى أن نتعرض هنا لشعر شوقي ونثره للدلالة على مكانة موهبته الشعرية وثقافته العامة السامية ، ولكنى استأنس بأثرين جليلين من آثاره العظيمة وتراثه

الاول الخالد أحدهما يرجع الى شاعريته والثانى الى ثقافته، والى القارىء البيان بالاجمال:

نفح شوقى اللغة العربية وأدبها والخيال العربى ومكانته فى فن الشعر التمثيلى التى خلت منه الآداب العربية الى عهد قريب دراً ثمينة وغرراً وسيمة هى رواياته: كليوبترة ومجنون ليلى وقمبيز وعلى بك أودولة المماليك وعنترة، فبرهن بهذه الروايات الأدبية على سمو الخيال العربى الذى رماه بعض النقاد بتخلفه عن مكانة الخيال الآرى لعدم انتاجه فن الشعر التمثيلى الموجود فى آداب الآريين.

وكتاب «أسواق الذهب» فى نثر شوقى الحكيم يحتوى على كلمة غالية فى وصف البحر الابيض المتوسط - الأرجوحة الأولى للعقل البشرى ومهد المدنية الانسانية ونقطة اتصالها من أول وجودها حتى الآن ومستقرها الطبيعى فى المستقبل مادامت القارات قارات والبحار بحاراً.

هذه الكلمة الحكيمة الغالية اذا أنت قرأتها ونفذ فهمك الى أغراضها وألممت بما فيها من حكمة وبيان وعلم وعرفان أدركت مقدار ثقافة شوقى وعلمه الجم واطلاعه الواسع وحكمت معى بأنه منحة أجيال ونعمة دهور.

قال شوقي: البحر الأبيض المتوسط سيد الماء، وملك الدأماء، مهد العلية القدماء، درجت الحكمة من لججه، وخرجت العبقرية من ثبجه، ونشأت بنات الشعر فى جزره وخلجه. بدت الحقيقة للوجود من يبسه ومائه، وجرب ناهض الخيال جناحيه بين أرضه وسمائه!

العلوم نزلت مهودَها من ثراه، والفنون رَبِيت فى جمال رباه، والفلسفة فى ظله وذراه، (بنتاؤر) وُلد على عِبرْه، و(هومير) مُهِّد بين سحره ونحره، ونحت الالياذة من صخره، و(هيرودوت) دون متونه على ظهره، و(الأسكندر) تنهى اليه بفتحه ونصره!

ثم قال بعد وصف ساحر خلاب على نمط ماسقناه مخاطباً ناشىء الكنانة:

لآبائك عنده - منذ ماجت أمواجه ولجت لجاجه، وهدر عجاجه، وانثنى للرياح شراعه وساجه - جوار الأكرمين، وصحبة المحسنين، وكنف السماح الخيرين. تلك اللجة - أيها الناشىء - هى من أوطانك عنوان الكتاب، ومصراع الباب، ووجه الخميلة، وظاهر المدينة، وعورة الحصن، وان قوماً لهم على البحر ملك وليس

لهم منه فلك ، لقوم دولتهم واهية السلك ، وسلطانهم وإن طال المدى الى هلك .

فلله أنت يامنحة الاجيال ونفحة الدهور ! ذكراك خالدة فى النفوس وتراثك على الدوام فخر الادب وتاجه ؟

على العنانى



شوقى وحافظ

ليس لنا ونحن نكتب عن شوقى وحافظ الآن ، إلا أن نودّع الشاعرين الكبيرين بكلمة طيبة رضيّة ، نستخلصها من جانب القلب لتكون إكليل عطف ورحمة على قبر الفقيدين .

فقد كانا أول من قرأتُ له من شعراء العربية وحفظت من شعره ، وكانا أول من شجعنى وأنا ناشىء على المضى فى رحلتى الأدبية بقدم ثابتة بما قلدانى من شعرهما الرقيق ، فحق علىّ أن أوفيهما حقهما عندى وقد نزحا الى دار الخلود .

شوقى وحافظ اسمان تغنت بهما الألسنة جيلا من الزمن ، وردد شعرهما كل ناشىء فى عالم الأدب فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، فهما من الشعر كعتبتى الدار .

جاء شوقى وحافظ فى عهد نهضة أدبية جديدة ، فكانا نجمين متألقين فى سمائها . ففى نظمهما كانت تتجدد لغة العرب بعد أن رثت حبالها فى يد الزمن ، وكان هم الأدب فى عصرهما أن تستعيد اللغة العربية جمالها ، ويبعث الشعر القديم من مرقده ، فرأى فيهما ضالته المنشودة وإن كانا لم ينفردا بهذا الفضل ، فالبارودى وصبرى والبكرى لم يقصر شأوهم فى ذلك عن شاعرينا الفقيدين .

لم يَسمُ نظر الجيل الماضى عن هذا الحد ، ولم يتطلع شعراؤه إلى أكثر من تلك الناحية التى ترمى الى ترسم خطى المتقدمين من شعراء الدولة العباسية وصدر الاسلام ، ولم يطالبهم أحد بأكثر من ذلك ! لجميع المشتغلين بالحركة الأدبية فى ذلك العهد كانوا يتذوقون بذوق العصور الماضية .

على أن شوقى وحافظ وإن اتفقا فى هذا المذهب ، فقد كانا يختلفان من بعض الوجوه فيما ينظمان . يرجع ذلك الى البيئة التى نشأ فيها كل من الشاعرين ، فترى فى

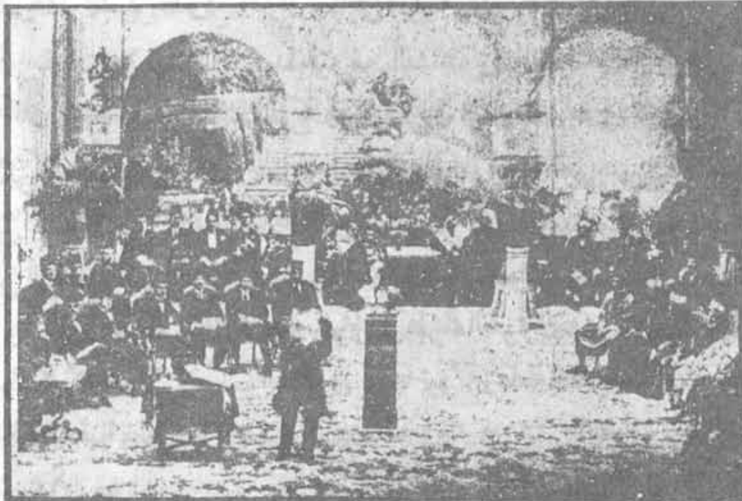


﴿ شوقي وحافـظ ﴾

صورة تذكارية أخذت على مسرح الأوبرا بالقاهرة
فى مهرجان تكريم شوقي بك سنة ١٩٢٧ م.



﴿ من أعيان الشعر فى مهرجان شوقى بك ﴾
يرى الى يساره خليل مطران بك فالشيخ محمد عبدالمطلب
والى يمينه حافظ ابراهيم بك فشبلى الملاط بك



﴿ فى مهرجان شوقى بك سنة ١٩٢٧ ﴾
على مسرح الاوبرا بالقاهرة

شعر شوقى أثر النشأة الأرستقراطيه ، فهو ربيب الحكم وخدين الحكام ، لم يحوله الزمن عن طبيعته ، ولم تخرجه تطورات الاحوال عن فطرته . أما حافظ فهو ابن الشعب وربيب المجتمع ، فى كنفه نشأ وبين أحضانه عاش ، فكان يتغنى بأفراحه لأنه يشاطره إياها ، ويهتف بأشجانه لأنه ممن يكتوون بلهيبها .

فظهرت فى شعر الأول روعة وسطوة ، وفى شعر الثانى حرارة ولوعة ، وكلا الشاعرين مخلص لطبعه صادق لفطرته .

وقد عاش الشاعران حتى رأيا النهضة الحديثة يندفع سيلها فيجترف فى طريقه كلَّ قديم ، وشاهدا من رجالها شعراء ونُقاداً جديدين ، مبشرين ومنذرين ، فتوالت عليهما حملات النقد ، واشتدت عليهما اقلام الكتاب ، حتى صارا هدفاً لكل ناقد . وهما الشاعران اللذان تنزّها فى عرف الجيل الماضى عن كل نقد ، واعتصما عن كل عيب ، وتلقّى ذلك الجيل رسالتيهما بصدر رحيب .

عانى شوقى وحافظ تلك الحملة العنيفة واصطليا نيرانها ، فكان حافظ يرى من السلام ان يقف عند حدوده ، وأن يطأطىء رأسه للزوبعة ، حتى لا يصاب منها بصائب أو يتقرب من رجالها بما عهد فيه من البشاشة واللطف فيبعدهم عنه ، ولكنه مع ذلك كان يشهد بصدق تلك الحركة ويعترف بأن للتطور سبيله فى كل شىء .

ولكن شوقى الذى خُلعت عليه إمارة الشعر وأجلس على عرشه ، لم يكن من السهل عليه أن يتلقى تلك الحملة فكان يغضبه كل نقد ويزعجه كل ناقد ، فجرد جيشاً من الكتاب للذود عن شعره ، وآخر لمحاربة خصومه والسهر على حراسة عرشه . ولو علم رحمه الله لترك الامور تجرى فى مجراها ، وترك شعره للحياة ، يأخذ حظه منها كما تُقدر له . وحسب الشاعرين أنهما تبوّآ زعامة الشعر حيناً من الزمن لم يكن ينازعهما فيها منازع ، وحسب الادب انه وجد فى شعرهما قنطرة بين القديم والحديث ؟

محمد طاهر الجبلاوى



شوقى فى الاندلس

— ١ —

أما وقد صار شوقي فى ذمة التاريخ ـ تاركاً آثاره الأدبية يقول فيها التاريخ كلمته النزيهة التى لا تعرف الخداع ولا المجاملة ، ولا تفهم هذا الاثر المشهور «اذكروا محاسن موتاكم» هذا الفهم اللفظى السطحى الذى لايلائم البحث العلمى ولايناسب النقد الأدبى — فمن الحق علينا أن نقف من هـذه الآثار موقف المؤرخ الذى يحاول الانصاف ولا يعنى بغير الحق والامانة لعله ينصف هذا الشاعر الجليل الذى لايستطيع الآن دفاعاً عن نفسه إلا بتلك الآثار نفسها ، كما أن هذه الآثار مجال عزته واعتزازه ومن أجلها ذكره الناس فى حياته وهم يذكرونه بعـد مماته ، وبقدر ما فيها من أسباب الجمال والقوة والخلود يبقى شوقى مذكوراً .

نحن لا نعرف شوقى مثلما نعرف آثاره ، بل لانعرف شوقى الا بآثاره الأدبية فهى تراثه الذى ينبىء عن جهوده الحيوية ، ويصور أفكاره وعواطفه ، ويعرض علينا شخصيته مهما يكن لونها الأدبى والخلق ، ولذلك نبادر فنسجل هنا أن هذه الشخصية ستبقى مجهولة أو على الأقل غامضة بعض الغموض حتى تتقدم الايام وتسمح الأحوال بأن يطبع شعر شوقي كله ويذاع ما لم يذع منه ومعه تاريخه وملابساته التى تعين فى فهم الشعر من ناحية ، وفى إنصـاف شوقى من ناحية أخرى ، وأما تلك الأحكام التى تصدر على هـذا الشاعر الجليل منذ الآن فهى فيما أرى تقريبية أو ناقصـة .

أقول هـذا لأنى أذكر وأكثر الناس يذكرون معى أن النقد الأدبى ليس نوعاً من المجاملة الانسانية يقوم على المديح والثناء والإشادة الفارغة بالآثار الأدبية وأصحابها ، كما يذكرون أيضاً أن ليس النقد فناً هجائياً أساسه الثلب وتتبع الاخطاء وانتحالها والوقوف من الشعراء والكتاب موقف العدو الناقم يلبس المنظار الاسود ويصدر عن شعور حاقد كلما حاول قراءة الأدب أو دراسته ، ولا ذنب على الأدب فى ذلك ، وإنما الذنب ذنب الكاتب أو الناقد أو ذنب ما بينهما من صـلة العداوة والبغضاء .

ولكن النقد الأدبي فى أصح مذاهبه مسألة استعراض الآثار الأدبية وبيان ما فيها من المحاسن والمساوىء الفنية ، ثم رد هذه الخواص إلى أسبابها المعقولة وعللها الواضحة . نعم ، إن كلا من التاريخ العام والخاص يعين فى فهم هذه الآثار ويلقى عليها ضوءاً يبين لونها السياسى والاجتماعى ووجهة صاحبها حين قال ، ولكن شيئاً هاماً يسمو على التاريخ ويكاد ينفصل عنه ، هو نظرات الكاتب الثاقبة وطريقة تصويره ، نظرته العميقة التى تستمد الأفكار والعواطف من الطبيعة الانسانية الخالدة التى لا تكاد تغيرها الدهور وإن غيرت من صورها ، ثم هذا الاسلوب الفنى الذى هو مثال الشخصية الممتازة التى ينفرد بها الأديب والتى هى هو وكفى .

وأول ماعن لى ـ فى الكتابة عن شوقى الشاعر بمناسبة هذه الذكرى السريعة ـ أن اختار قصيدة من روائعه وأتبين فيها شخصيته الأدبية ، وكنت آثرت قصيدة أبى الهول لاعتقادى أنها من آثاره الممتازة ، ولكن عدلت عن ذلك بعد حين رغبة منى فى توسيع أفق البحث وحرصاً على أن أرى هذا الشاعر حيث بدأت شاعريته الخالصة تقوى وتنمو ، وحيث وصلت إلى مستواها السامى الذى لم تكد تتجاوزه وتعلو عليه فيما بعد ذلك إلاقليلا . وقد خيل إلى انى أستطيع رؤيته على هذه الصورة بالأندلس فى منفاه . على أنه ـ فيما يظهر لى ـ يصعب الظفر بشخصية شوقى الأدبية فى قصيدة واحدة أو فى بعض قصائد لاختلاف أطواره الحيوية والفنية كما سنرى .

— ٢ —

نشأ شوقى الشاعر فى ظل اسماعيل وولد ببابه ، وحباه هذا البيت الكريم برعايته ناشئاً حتى شب وترعرع . فمن الحق على شوقى أن تكون باكورة شعره عرفان هذا الجميل وتسجيله ، وهذا هو أساس اتجاه شوقى ونزعته ليكون شاعر القصر ولسان اسماعيل وآله . وقد كان ذلك كله ، فصار شوقى فى هذا الدور الاول من حياته يعبر بشعره عن اتجاه القصر وتقاليده أكثر مما يعبر عن نفسه وشخصيته . فلبس لذلك هذا الثوب الرسمى الذى تنسجه مقتضيات الملك ونزعاته ودواعى البيئة الحاكمة . هذا من الناحية الموضوعية وأما الناحية الفنية فقد كانت تقليداً ومعارضة للشعر القديم يذهب شوقى فى نظمه مذهب شعراء الملوك ، والخلفاء فى بغداد على الخصوص ، ولا بأس على شوقى من ذلك فى أوليات عهده بالشعر ، فالفنى يبدأ حياته دائماً بالتقليد وتأثر النابهين من السلف . ولكن الخطأ العظيم هو الفناء فى هؤلاء

السابقين والسير على مناهجهم دون الدلالة على مذهب فنى خاص أو ابتكار أسلوب يلائم قانون الرقى وتغير البيئات .

شوقي ، إذاً ، شاعر القصر . والقصر كان يومئذ متصلاً بالخلافة الاسلامية التى تشرف على أقطار شتى . فليس غريباً أن ترى الشاعر يذكر حكومة مصر وجاهها ومكانة الخلافة وجلال الآستانة ، ثم يذكر الاسلام والمسلمين ، ويتجه بنظره الى طبيعة الحكومات ومزاجها والى تقاليد القصور ورحابها دون النظر إلى طبيعة مصر ومزاج المصريين . فكان يستوحى الحكومات وأفرادها ، وقلما كان يستوحى هذا الشعب المصرى أو الاسلامى ، بل قلما عُنى بما تعرضه عليه طبيعة بلاده إلا عرضاً أو قليلا . وهكذا بقى شوقى مطمئناً إلى هذه المكانة التى وضعته فى صف المقربين إلى السماء وباعدت مابين وبينه الارض حتى حالت الاحوال وذهب إلى منفاه .

ولما عاد من الاندلس صادف بمصر نهضة ثائرة تريد حياة جديدة فى كل شىء فى السياسة والتعليم والاجتماع والاقتصاد ، وصادف مذاهب سياسية تمثل هذه النهضة فحاول مسايرة ذلك بشعره ليكون السجل الخالد لهذا التاريخ الحديث . فشوقى يتجه فى كثير من المناسبات إلى عرش البلاد يعرف له آثاره الجليلة ، ثم ينثنى إلى رجالات مصر فيسلكهم بين الابطال الفاتحين . ويتردد بين الاحزاب السياسية متغنياً بمناهجها دون أن يفرغ لاحداها ويقف عنده ودون أن يكون له هو مذهبه الخاص يقيم عليه رسالة أو يستمد وحياً والهاماً . هكذا كان شأنه مع المعاهد العلمية والنوادى الاجتماعية ، فشوقى فى الفترة الاولى شاعر القصر وهو فى الفترة الثانية شاعر الحكومة مع شىء غير قليل من الشاعرية الاجتماعية والفنية والتاريخية .

لم يفرغ شوقى لنفسه ولفنه فى هذين العهدين السالفين . ولم يسلم شعره من المجاملات السياسية والاجتماعية ، بل ومن الصنعة الفنية التقليدية ، فكانت آثاره مزيجاً من ألوان شتى قلما تأتلف أو تكون شخصية محدودة واضحة المعالم ، فلأتركه هنا وهناك ولأبحث لعلى أظفر بشوقى شاعر العاطفة والعبرة وإذا ظفرت بشعر العاطفة والعبرة فقد ظفرت بما أريد .

قلنا إن شوقى كان شاعر القصر أول أمره ، وكان وثيق الصلة بسمو الخديو عباس الثانى ، ولما قضت الأحوال أن يغادر الخديو مصر وأن يتبوأ المرحوم صاحب العظمة السلطان حسين كامل عرش هذه الديار وقف شوقى مرتاعاً لهذه الحوادث

التى توالت عليه وأمامه فحالت بينه وبين سيده أو صديقه الأول وسلبته مكانته السامية ، وأورثته الحزن والأسى ، وعرضت عليه معجزت القضاء والقدر ، حتى ثارت فى نفسه عاطفة الحزن وتنبه الى الحياة وصروفها وما فيها من دواعى العظة والعبرة ، وابتدأ شوقى يستمد شعوره من نفسه هو لا من نواح تقليدية كانت تستلزمها حياته الأولى ، وهنا ظهر شوقى الشاعر : فارق سيده أو صديقه ، وهو مضطر أن يفى له فلا ينساه سراعاً ، ولكنه يجد سلطاناً جليلاً هو عم الخديو عباس يجلس على العرش ، وهذا نوع من العزاء عنده ما دام الملك فى بيت اسماعيل ويجد الانجليز يعرفون لهذا السلطان جلاله ، ويعرفون لبيت اسماعيل مكانته ، فهو مضطر إذاً أن يتئد ويحفظ التوازن بين هذه النواحى ولكنه توازن الحذر الحزين وكفى ، وهذا الحزن هو الطابع الواضح لشعر شوقى من ذلك الحين حتى نفى وعاد ، وبقيت آثاره عنده حتى مات رحمه الله .

هذا الحزن لم يكن ثورة عنيفة ، وإنما هو حزن تصحبه وتهدئه العبرة والحيطة ، وهو كذلك حزن مقسم بين ناحيتين أو نواح ثلاثة : فشوقى حزين على نفسه وتطور حياته إلى هذه الحال ، وهو حزين على صديقه أو سيده الذى غادر الديار ، وهو حزين اخر الأمر على مصر . ومهما يكن هذا الحزن قوياً فى الاتجاه الشخصى فهو حزن جميل أوحى إلى الشاعر نغمة فنية جميلة تسمعها فى قصيدته (حسين كامل) التى قالها لما ولى العرش وهى قصيدة تتلخص كما قلت لك فى هذا الحزن يصحبه الحذر والاعتبار :

الملكُ فيكم آل إسماعيلا لا زال بيتكمُ يظلّ النيلا
لطف القضاء فلم يُمل لوليّكم ركناً ، ولم يشف الحسود غليلا
هذه أصولكمُ وتلك فروعكم جاء الصميم من الصميم بديلا
الملك بين قصوركم فى داره مَنْ ذا يريد عن الديار رحيلا
(عابدين) شُرّف بابن رافع ركنه عزّاً على النجم الرفيع وطولا
ما دام مغناكم فليس بسائل أحوى فروعاً أم أقل أصولا

شوقى يصور ناحية العزاء والسلوى ، ويضمر فى نفسه لوعة وحزنا ، ويحاول الثبات أمام القضاء والقدر صابرا راضيا ، ولكن شعره كما ترى ينم عن نفس شاعرة مرتاعة

مضطربة استطاعت أن تبدو فى هذا الأسلوب الذى لم يتحلل بعد من محفوظات الشباب ومعارضة العبارات القديمة والذى نودّ لو كان أطبع صوغاً وأكمل اتساقاً ولكنه مع ذلك مرضٍ مقبول . ثم يستمر شوقى فيذكر رجال هذا البيت المجيد ومآثرهم فى نشر الحضارة بوادى النيل موليًا وجهه شطر الماضى يتناسى أو يدارى ما هو فيه لعله يجد منفذاً من هذا الحرج الشديد حتى يصل الى الانجليز وعرفانهم كرامة البيت المالك وتداركهم الأمر :

حلفاؤنا الأحرار إلا أنهم أرقى الشعوب عواطفا وميولا

لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سِماحاً فى البلاد عُدولا

وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها مَلِكاً عليها صالحاً مأمولا

ولكن الشاعر يلمس معجزة القدر ويرى النحس عابثاً بالعروش والممالك ووجه البسيطة يلبس جلد الحرباء ، فيثوب ويصطنع هذا العزاء :

سبحان مَنْ لا عزَّ إلا عزُّه يبقى ولم يك ملكه ليزولا

لا تستطيع النفسُ فى ملكوته إلا رضًى بقضائه وقبولا

ومهما يقل الشراح إنه يشير إلى ما ألم بتركيا أو بمصر فليس من شك عندى أنه يستمد من نفسه هو هذه العبرة والرضوخ للقضاء ، ثم يحاول أن ينقلب إليها مسلياً ، ثم يستمر فيذكر وفاءه ويغمسه فى ذكرى الحروب وآثارها المنحوسة . أليست الحروب سبب هذا البلاء الذى أصابه وغير من شأنه ؟ ولكنه يتنبه لنفسه وموقفه فيعود إلى إسماعيل وبنيه :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ولقد وُلدتُ بباب اسماعيلا ؟!

ولبست نعمته ونعمة بيته فلبست جزلا وارتديت جميلا

ووجدتُ آبائى على صدق الهوى وكفى بآباء الرجال دليلا

ثم يخاطب المرحوم السلطان (حسين كامل) :

إرقأ سرير أبيك والبس تاجه واكرُمْ على (القصر المشيد) نزيلا

مَرّتْ أويقاتٌ عليه مُوحِشاً كالرمس لا خُلواً ولا مأهولا

***

يا أكرمَ الأعمام حسبك أن ترى للعبرتين بوجنتيك مسيلا
مِن عَثرة ابن أخيك تبكى رحمة ومن الخشوع لمن حباك جزيلا
ولو استطعتَ إقالةً لعثاره من صدمةِ الأقدارِ كنتَ مقيلا

وفى آخر هـذه القصيدة خلع شوقى شيئاً من نفسه على المصريين فدعاهم إلى التوكل والصبر على هذا البلاء فى اسلوب المتألم الذى ينتظر أحداثاً وخطوباً أخرى ولـكن ذلك كله يتركز فى هذا الشعور الذى ملك نفس الشاعر فى هذه الفترة الطارئة وهو سقوط المضطرب الحزين .

— ٣ —

ولـكن هـذه الروح التى تسود القصيدة الآنفة ، والتى تدل على اتجاه شوقى ، ثم محاولة شوقى أن يمثل دور الوفى أو المحتاط ، كل ذلك استتبع نفيه فغادر مصر الى الأندلس .

وهنا يظهر الحزن قويا صريحاً ، ولـكنه حزن على نفسه وما انتابه . وحزن على مصر وأحداثها ، وهنا كذلك يمد شوقى بصره وبصيرته الى الحاضر والماضى يستمد منهما العبر والعظات ويفيض عليها من نفسه الحزينة التى تترك ملاعب الصبا ومهد الشباب ، وترى النكبات تهجم على البلاد وتتحكم فيها النوائب ، ولا شك أن هذه تخلق فى النفس حسرة وجلالا وتحملها على التبصرة والاعتبار . تقرأ ذلك فى قصيدته المنثورة « قناة السويس » :

« تلـكما يا ابنىّ القناة ، لقومكما فيها حياة ، ذكرى اسماعيل ورياه ، وحُليا مفاخر دنياه ، دولة الشرق المرجاة . . . تعبرانها اليوم على مزجاة ، كأنها فُلك النجاة خرجت بنا بين طوفان الحوادث ، وطغيان الكوارث ، تُفَارق برّاً مغتصبه مُضرىّ الغضبة ، قد أخذ الاهبة واستجمع كالأسد للوثبة . . . إن للنفى لروعة ، وإن للبين للوعة ، وقد جرت أحكام القضاء بأن نعبر هذا الماء حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وان لم ينسجم ، نفانا حكام عُجم ، أعوان العدوان والظلم ، خلفنام يفرحون بذهب اللُّجم ، ويمرحون فى أرسان يسمونها الحُكُم » .

فقد أباح النفى للشاعر ان يسرى عن نفسه ويصرح ببغضه حكومة مصر إذ ذاك

ويرى فيها وسيلة لأغراض الاحتلال ومظاهر لارادته وسلطانه : «ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه ، سامحهم فى حقوق الأفراد ، وسامحوه فى حقوق البلاد ، وما ذنب السيف إذا لم يستحى الجلاّد» .

وهنا نجد الشاعر صريح النقمة ، فاضت نفسه بشعورها كما وجدت متنفساً ، ولكنه مع هذا بصير يشتق من الحوادث الآيات والعبر ، ويستنبط من التاريخ العظات والسور : « أنظرا تريا على العبرين عبرة الأيام ، حصون وخيام ، وجنود قعود وقيام ، جيش غيرنا فرسانه وقواده ، ونحن بُعرانه وعلينا أزواده ، ديك على غير جداره ، خَلا له الجو فصاح، وكلب فى غير داره ، انفرد وراء الدار بالنباح» . ومن لا يذكر سلطان الانجليز وسيطرتهم على القناة والبرية أيام الحرب العظمى ... وبعد أن أفاض الشاعر فى ذكر الحوادث التاريخية التى لابست طورسيناء ختم كلمته بقوله: «ثم انظرا اليوم تريا القناة فى يد القوم إن أمنوا ركزوها، وإن خافوا هزوها» .

لم تخل هذه القصيدة المنثورة من عاطفة الحزن ومن التأمل والتفكير ، وهى مع ذلك تمثل حال مصر فى تلك الفترة تمثيلاً قوياً واضحاً . أما هذا الأسلوب فليس فيه جديد ، ولا يروق أكثر الناس هذا السجع لأنه يحول بينهم وبين قراءته وتفهم معانيه ومافيه من تصوير وأفكار . وشوقى يعترف أنه قلد فى هذا الأسلوب الزمخشرى والأصبهانى ، وماذا عليه لو عمد الى الارسال ؟ أظن نفعه كان يكون أعم ، وربما استطاع أن يخدم الكتابة الحديثة ، ولكن شوقى حريص على الموسيقى اللفظية ورنة الأسلوب .

وهنا نلاحظ أن شوقى أعرض عن ذكر الخديوى واتجه اتجاهاً تاريخياً شخصياً وستجد ذلك واضحاً جداً فى أندلسياته .

— ٤ —

وأخيراً نجد الشاعر فى الأندلس، وكم فى الاندلس من آثار عربية ، وكم تثير الأندلس من ذكريات تاريخية مجيدة ، فتلك الآثار تحدث عن دول كانت ملء الدهر ورجالات سلبوا عروشاً وفقدوا ملكاً كبيراً ، كان للأدب فى ظلالهم سوق رائجة وللفن فى رحابهم آيات رائعة خالدة ماتوا نخلدتهم الآثار، ورددت أصداءهم الأحاديث والاشعار ، وهناك ظفر شوقى بعين ثرارة تفيض عزاء وسلوى ، وتملأ النفس عبرة واعتباراً ، فاتخذ من ذلك معيناً لشعر هو الشعر فى عاطفة ، جمع فيه بين الحاضر والغابر ، ووصل بين الشرق والغرب ، ولاءم بين نفسه و نفوس غيره من الشعراء .

نزل شوقي بلاد الأندلس ، وفى نفسه ذكرى مصر ماثلة وتلك الحوادث التى أقصته عنها . فاذا به يرى الحمراء ، ويذكر فى أرجائها موقف البحترى من موائد كسرى بعد مقتل المتوكل ، ثم يذكر ابن عباد وابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن الداخل صقر قريش . وهكذا بقى يستخرج من الماضى صور الحاضر ويقول فى ذلك الشعر معارضاً الأندلسيين وغيرهم حتى ودع الاندلس وعاد إلى مأواه .

غير هذا المكان أوسع صدراً للموازنة بين البحترى وشوقى فى هذه الوقفة على آثار الماضين ، فقد يكون بينهما فى الظاهر ما يدعو الى الموازنة ، وقد يُضعف هذه الموازنة ما بين الحالين من فروق جوهرية تجعل الموازنة نوعاً من السخرية والعبث ، ولكن الواقع أن شوقى وقف بقصر الحمراء وذكر سينية البحترى :

صنتُ نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس

وأخذ يعارضها بقصيدته « الرحلة الى الأندلس » :

اختلافُ النهار والليل يُنسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصِفا لى مُلاوةً من شباب صُوِّرت من تصورات ومَسّ
وسلا مصر: هل سلا القلب عنها أو أسى جرحه الزمان المؤسِّى ؟
كلما مرت الليالى عليه رقّ ، والعهد فى الليالى تُقسِّى
مستطارٌ إذا البواخر رنّت أول الليل أو عوت بعد جرس
راهبٌ فى الضلوع للسفن فطنٌ كلما ثرن شاعهن بنقس
يا ابنة اليم ما أبوك بخيلٌ ما له مُولعاً بمنع وحبس
أحرام على بلابله الدو حُ ، حلال للطير من كل جنس ؟!
وطنى لو شُغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى !

ثم أخذ شوقي يصف مشاهد مصر والنيل والقاهرة وضواحيها وآثارها . وهو تصوير تشترك فيه العبرة مع الحزن حتى يقول :

يا فؤادى لكل أمر قرارٌ فيه يبدو وينجلى بعد لُبس
عقلت لجّةُ الأمور عقولا كانت الحوتَ طول سبح وغَسّ
غرِقت حيثُ لا يُصاح بطاف أو غريق ولا يصاخُ لحِسّ
فلك يكسف الشموس نهاراً ويسومُ البُدور ليلة وكس !

ولما فرغ من الناحية المصرية انتقل إلى حيث يقيم ، فاستعرض تاريخ العرب فى الأندلس استعراض إجلال وعظة :

أين مروان فى المشارق عرشٌ أموىٌّ وفى المغارب كرسى ؟
سقمت شمسهم فردت عليها نورَها كل ثاقب الرأى نطْس
ثم غابت وكل شمس سوى هاتيك تبلى وتنطوى تحت رمس !
وعظ البحترى إيوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

واذا استمررت فى قراءة القصيدة ولا سيما هذا القسم التاريخى تلمس آثار البحترى وروحه واضحة بينة ، فانظر فى قول البحترى يذكر إيوان كسرى :

ليس يُدرَى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لانس !
غير أنى أراه يشهد أن لم يكُ بانيه فى الملوك بنكس

وهذا قول شوقي يذكر قصور قرطبة :

فتجلت لىَ القصور ومَن فيـ ـيها من العزّ فى منازل قُعْس
ماضَفَتْ قط فى الملوك على نذ لِ المعالى ولا تردّت بنجس

ويتضح ذلك جداً حين يذكر الحمراء ويوازنها بالقصر الابيض فى المدائن ثم يختم القصيدة بهذا البيت الذى يختصرها اختصاراً :

واذا فاتك التفاتٌ الى الما ضى فقد غاب عنك وجه التأسّى !

— ٥ —

وأما معارضته ابن زيدون فى قصيدته النونية :

اضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا !

فيظهر أن شاعرنا استطاع أن يتسامى بعاطفته أو نظرته فى أول القصيدة لمَّا تحدث عن العرب والوفاء لهم ، وكم فرق بين الوفاء لمحبوبة هى ولادة بنت المستكفى بالله لدى ابن زيدون وبين الوفاء لدولة ذاهبة هى — لدى شوقى — جلال الدين والأخلاق .

يستهل شوقي قصيدته بخطاب ابن عباد ويوازن بين حاليهما :

يانائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يداً قصت جناحك جالت فى حواشينا !
رمَى بنا البين أيكاً غير سامرنا أخا الغريب ، وظلا غير نادينا

والحق أن شوقى هنا ظاهر واضح لايتأثر مثالا ولايحاول صنعة لفظية لانه انفرد بعاطفة شاكية ربما كانت أوسع أفقاً وأسمى درجة من عاطفة ابن زيدون الفردية :

آهاً لنا نازحىْ أيك بأندلس ... وإن حللنا رفيفاً من روابينا
رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع ، والاجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرضُ أدمعَهم ... ولا مفارقهم إلا مُصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه مَنْبَهةٌ ... للناس كانت لهم أخلاقُهم دينا !

ويذكر مصر ويعود الى التمسك بالصنعة اللفظية ويقرب من ابن زيدون فى أسلوبه التصويرى :

ياساريَ البرق يرمى عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لمّا ترقرق فى دمع السماء دماً ... هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه ... على نيام ولم تهتف بسالينا

* * *

ويا مُعطَّرة الوادى سرتْ سحراً ... فطاب كل طروح من مرامينا
هل من ذيولِك مِسكىٌّ نحمله ... غرائبَ الشوق وشياً من أمالينا
الى الذين وجدنا وُدَّ غيرهم ... دنيا وودَّهم الصافى هو الدينا

وبعد الشكوى وعدم غناء الصبر يعود إلى مصر ومجدها ومشاهد النيل وآثاره ثم يعرج على حاله هو السابقة ، وكيف تنبه الدهر إليهم بعد نومه عنهم : —

ولم ندع لليالى صافياً ، فدعت ... (بأن نُغصَّ فقال الدهر : آمينا !)
لو استطعنا لخضنا الجوَّ صاعقة ... والبرَّ نارَ وغًى ، والبحرَ غسْلينا
سعياً الى مصر، نقضى حقّ ذاكرنا ... فيها إذا نسيَ الوافى وباكينا

وتنتهى قصيدته بالحنين الى والدته بحلوان .

* * *

ولشوقي نظير آخر فى الغربة والألم ولكنه ظفر بملك عتيد كان آية الشرق فى الغرب ، ذلك هو صقر قريش أو عبد الرحمن الداخل الفاتح الثانى للأندلس والمقيم فيه مجد أمية بعد أن أُديل منها لبنى هاشم فى الشرق ، وشوقى يعارض هنا لسان الدين بن الخطيب في موشحه :

جادك الغيثُ إذا الغيث همَى يا زمانَ الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك الا حُلما في الكرى أو خِلسة المختلس

قال شوقي يرحمه الله:

مَن لنضوٍ يتنزّى ألمَا برّح الشوقُ به فى الغَلَسِ
حنّ للبان وناجى العَلَمَا أين شرقُ الأرض من أندلس ؟

• • •

بلبلٌ علمه البينُ البيانْ بات فى حبل الشجون ارتبكا
فى سماء الليل مخلوعُ العِنانْ ضاقت الأرضُ عليه شبَكا
كلما استوحش فى ظل الجنانْ جُنَّ فاستضحك من حيث بكى
ارتدى بُرنُسَهُ والتَثَما وخطا خُطوةَ شيخ مُرعَسِ
ويُرى ذا حَدَبٍ إن جَثَما فإنْ ارتدَّ بدا ذا قَعَس

وفى الحق أن هذا التوشيح قصة حقة لبطل من أبطال التاريخ استطاع شوقى أن يصورها تصويراً خيالياً رائعاً ، وأن يستنهض بها همة الشباب لو صحا الشباب ، وأن يبعث بها عاطفة الإجلال لهذا الصقر ومحبته والاشفاق عليه فى جهاده الأول أو بعبارة أخصر استطاع الشاعر أن يضم الناس الى جانب هذا البطل العظيم . ترى فى هذا التوشيح كيف انسلّ عبد الرحمن الداخل بين الخطوب وهو يتحرق حزناً على مجد أمية الزائل، وطموحاً الى مجد آخر يعوض عليه فى الغرب ما أفلت منه فى الشرق ولكن شوقى يسايره ، ويخلع عليه من نفس الحزن والأسى :

ناحَ إذْ جفناى فى أسر النجومْ رسفا فى السهد ، والدمعُ طليقْ
أيها الصارخ من بحر الهمومْ ما عسى يُغنى غريقٌ عن غريقْ
إن هذا السهم لى منه كُلومْ كُلُّنا نازحُ أيكٍ وفريق
قلّبْ الدنيا تجدْها قِسَمَا صُرِّفتْ من أنعُمٍ أو أبؤس
وانظر الناسَ تجدْ مَنْ سَلِمَا من سهام الدهر شجته القِسِى !

ثم أخذ يعرض قصة هذا البطل فى تصوير قوى ، ويلم بما كان بين أمية والعباس وما قام به هذا البطل فى الأندلس من مجد يقوم على الخلق المتين والعزيمة الصادقة حتى مات وذهب رمسه وبقى ذكره فى ألسنة التاريخ . ولن نستطيع هنا استعراض هذا الموشح البديع وإنما نجده يتلخص كما قلت لك فى الحزن والاعتبار .

— ٦ —

وبعد لأى يودع شوقى منفاه إلى مصر، ويودع الأندلس هذا الوداع فى عاطفة وإن كان قديم المنهج تقليدىّ الأسلوب :

أنادى الرسمَ لو ملكَ الجوابا وأجزيه بدمعى لو أثابا
وقَلَّ لحقه العبرات تجرى وإن كانت سواد القلب ذابا !
سبقنَ مُقَبِّلاتِ الترب عنى وأدين التحية والخطابا
نثرتُ الدمع فى الدمن البوالى كنظمى فى كواعبها الشبابا !

***

وداعا أرض أندلس ! وهذا ثنائى إن رضيت به ثوابا
وما أثنيتُ إلا بعد علم وكم من جاهل أثنى فعابا
تخذتك موئلا فحللتُ أندى ذراً من وائل وأعزّ غابا

***

أحقٌ كنت للزهراء ساحاً وكنت لساكن الزاهى رحابا ؟
ولم تكُ (جورُ) أبهى منكِ ورداً ولم تك (بابلٌ) أشهى شرابا ؟
وأن المجد فى الدنيا رحيق إذا طال الزمان عليه طابا ؟

وليس من شك عندى أن هذه القصيدة تتكشف عن عاطفة فرحة تخلو أو تكاد من ذلك الحزن الذي كان يغشى شعر شوقى وهو فى صميم النفى وفى الأندلس ، فلا تحسّ هنا إلا الوفاء وعرفان الجميل والسرور بالعودة الى الوطن :

ويا وطنى لقيتكَ بعد يأس كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
وكل مسافر سيؤوب يوما إذا رُزق السلامة والإيابا
ولو أنى دعيتُ لكنتَ دينى عليه أقابل الحتمَ المجابا !

وقد عاد شوقى الى وطنه وأخذ منذ وصوله يتصل بالحياة الاجتماعية لمصر والمصريين ،وحسبك أن هذه القصيدة أنشدت فى اجتماع لجان التموين (بالأوبرا الملكية سنة ١٩٢٠ م.) أيام كان الغلاء آخذاً بالخناق والحياة المادية حرجة مضطربة وقد تناول الشاعر ذلك فى القسم الثانى من هذه القصيدة .

لست أزعم أن هذا كل ما قال شوقى فى الأندلس ، بل ربما كان الأرجح بل

الواقع أن لشوقى شعراً كثيراً قاله هناك لم يتيسر نشره للآن ، ومهما يكن الأمر فاننا نستطيع من هذا القسم الصغير الذى أشرنا إليه فى هذه السطور أن نتمثل شوقى فى هذه الفترة من حياته تمثُّلاً أدبياً ممتازاً :

(١) فأول ما نلاحظ أنه لم يكن لشوقى مذهب اجتماعى أوفلسفى أو فكرة خاصة عن الحياة وكيف تكون ، لأن شوقى لم يكن إلى هذا العهد من شعراء الفكرة الذين يدعون الى مبدإ محدود معين ، فعهده الأول عهد ثناء على القصر ورجاله ثم تصوير ما يلابسه من مظاهر الملك وجلاله ، وهذا المذهب قديم شاع بين كثير من شعراء العرب فى القرون الأولى أيام كانوا يتخذون الشعر وسيلة للحياة المادية يوزعونه بين المديح والهجاء ، دون أن يكون هو نفسه غاية لجماله ولتصوير المشاعر والعواطف ، ودون أن يكون الشعر وسيلة لأداء ما يسمى الرسالة الحيوية للشاعر كالوطنية والاستقلال والاشتراكية والحرية وما إلى ذلك ، وربما كان من الغبن والإرهاق أن نطلب ذلك الى شوقى فى تلك البيئة العامة أو الخاصة التى كانت تحيط به، فقد كان يوجَّه إلى مدحة الخديو أو الخليفة لا لفكرة الوطنية أو الزعامة الشرقية. وإنما كان ذلك كله لهذه الصلة بين شوقى وبين هذه النواحى العليا ، وهى صلة رسمية ليس غير عتادها الأشكال والمظاهر لا العقائد والمبادىء . فلم يكن شعره فى أوليات حياته — على أنه شعر المبتدىء — ممتازاً عن الشعر القديم فى موضوعه ومنهجه .

ولما نُفى انبعثت فى نفسه معانى حب الوطن ، وعدم الاغترار بالأيام ، والاعجاب بالبطولة ، ووجوب التبصر والاعتبار ، وكل تلك معان جزئية عامة لا تكوّن مذهباً إجتماعياً عاماً ، ولا تتضام فكرة فلسفية وعقيدة ممتازة يحيا بهما الشاعر ، بل ربما كانت معانى طارئة بسبب هذا النفى ذهبت حدّتها بذهابه وإن بقيت أثارة منها فى شعره آخر حياته .

والحق أنك لا تجد هذه الخاصة إلا فى عدد قليل جداً من شعراء العربية كالمعرى والمتنبى وأبى نواس وطرفة وجميل ، وإن كان لأكثر شعرائها شخصيات فنية واضحة ولكن شعر المبادىء والعقائد عندنا قليل إلا إذا رأينا فى النفعية مبدأ فنياً !

واذا كان لابد لنا من ذكر فكرة كان شوقى يدور حولها أيام المنفى فهى العودة الى مصر وكفى .

(٢) وأما عواطفهُ التى سادت شعره واستأثرت به فى أول الأمر فالغالب انها

كانت عواطف شخصية ، وقلما كانت تتناول الناحية الاسلامية العامـة أو الصالح المصرى . هى فى الغالب تلك المشاعر التى تتجه الى شخصه وما يصله بهذه الجهات العليا ، وقد رأينا فيما استعرضنا من شعره آنفاً أن عاطفة الحزن تملكته فى منفاه وربما لم يكن من المبالغة اذا اعتبرناه حزناً على نفسه وبعده عن مصر وعن آله وخاصة أمه (بحلوان) :

كنز (بحلوان) عند الله نطلبه خيرَ الودائع مِن خير المؤدينا
لو غاب كلٌّ عزيز عنه غيبتنا لم يأته الشوقُ إلا من نواحينـا
إذا حملنا لمصر أو له شجناً لم ندرِ أىٌّ هوى الأمَّين شاجينا

وربما كان من الحق أيضاً أن ما صحب هذا الحزن من العبرة والبصر فى التاريخ واستنباط المواعظ واستعراض الآيات ، كل ذلك كان خير ما امتاز به منفاه . فقد جعله شاعراً مديد البصر والبصيرة يشرف على الحياة ويصل بين الماضى والحاضر ، وسِرُّ ذلك الشعور هو ما ألمَّ به وما حدث حوله :

فى بُرهة يذر (الأسِرَّةَ) نحسُها مثلَ النجوم طوالعاً وأفولا

فإذا كتب لشوقي أن يُقرأ شعره الأندلسى فقد يكون ذلك لما فيه من هذه الناحية التاريخية . ولا سيما (صقر قريش) و (الأندلس) . ففى هاتين تغلب العاطفة العامة السامية التى تجد النفوس فيها مجال الروعة والإيناس .

(٣) لاتجد لشوقى خيالاً مبتكراً إلا فى النادر ، وطريقة تصويره البيانى ، ليست إلا تأثراً لأساتذته من الشعراء السابقين. فالرسم والوفاء له. والوقوف عليه والتشبث به . وإرواؤه بالدموع ، والمواقف المحجلة ، والرمس الخالى ، وصنعاء وقس والعقيق والعرصات وغيرها ، كل تلك يستخدمها شوقى فى تصوير معانيه المتصلة بالحوادث العصرية . نعم يحاول شوقى عند ما يصف الآثار المصرية ومشـاهد النيل أن يتحلل من هذه الصور تحللا لفظياً ويسدل عليها شيئاً من حزن نفسه كما كان يفعل البحترى وابن زيدون وغيرهمـا :

وأرى (الجيزةَ) الحزينة ثكلى لم تُفق بعدُ من مناحة (رمسى)

والحق أنه هو الحزين :ـــ

أكثرت ضجةَ السواقي عليه وسؤالَ اليراع عنه بهمسِ

وقيامَ النخيل ضفّرن شعراً وتجردنَ غيرَ طوقٍ وسَلسِ
وكأن الاهرامَ ميزانُ فرعو نَ بيومٍ على الجبابرِ نحسِ !

(٤) اسلوب شوقى هو اسلوب البحترى والمتنبى وابن زيدون والشريف وغيرهم من تلك المثل التى احتذاها الشاعر ورأى فيها القوة والجمال والرصانة والموسيقى مما هو أليق بمعانيه ونزعته فى المحافظة على لغة القرآن كما هى بلاغة وقوة ، وكم كان يكره شوقي هذه الميول الى تنوع القافية فى القصيدة أو النزول الى ليان الأسلوب وهلهلته ، بل كان يعجب دائماً بهذا الرنين الموسيقى الذى يقرع الأسماع ويضمن له التأثير والاعجاب مهما يكن مداه طولاً وقصراً .

واذا كان لابد من اختصار ذلك كله فى كلمة واحدة فلا شك عندى أن شوقي كان يتجه فى شعره الى الماضى اكثر من الحاضر، واذا استطعنا أن نقول بأن حافظاً كان شاعر (مصر المظلومة) فقد كان شوقى ... ماذا ؟ ؟

احمد الشايب



شوقى والمتنبى

فى ثوبٍ

أتيح لى منذ عشرسنوات ان أتصفح كتاباً ألفه ابوسعيد محمد بن احمد العبيدى وسماه « الابانة عن سرقات المتنبى » . وكنت وقتئذ متشبعاً بالاعجاب بالقدماء واكبارهم وتقديسهم، وأرى أن كل من اوغل فى القدم من الشعراء كان اجود شعراً وأعلى كعباً فى اللغة والأدب . وقد تأثرت بفكرة : « ما غادر الأول للآخر شيئاً» او كما قال « عنترة » فى معلقته :

هل غادر الشعراء من متردمِ أم هل رفعت الدارَ بعد توهمِ ؟

فلما وقع بيدى هذا الكتاب قلت إن ذلك ليس بالجديد ، فالمتنبي شاعر القرن الرابع الهجرى وقد سبقه عدد غير قليل من الشعراء الاسلاميين والمخضرمين ، بل سبقه اكثر من مائة وخمسين شاعراً هم فحول شعراء الجاهلية الذين كانت القبائل

تعتزّ بهم وتفاخر بنبوغهم ، فليس بعيداً ان يكون المتنبي قد أخذ عن بعض هؤلاء الشعراء شيئاً ، خصوصاً فى أوائل عهده وفى مطلع حياته الشعرية .

وشرعت أتصفح الكتاب متمعناً فيما يحويه ، فألفيت صاحبه يتبرأ فى مقدمته من الظلم ، ويتشيع للعدل والانصاف ، ثم هو ينعى على ادباء زمانه ومتأدبيه حالةً ننعيها نحن على متأدبى زماننا وناشئته ، إذ يأخذون بالشهرة فى الادب ، ولا يحكّمون الفهم والادراك أو القواعد الادبية فيما يقرأون أو يسمعون . فهم يتشيعون للشاعر أو الكاتب متى كان اسمه معروفاً وفى المجالس بالشهرة محفوفاً . فاذا قرءوا لشاعر من هذا الطراز قصيداً ، او طالعوا لكاتب مشهور مقالا حكموا له بالسبق والتقديم . وتحدثوا معجبين ببلاغته وفصاحته وما له من سمو الفكرة وسعة الخيال واصابة المرمى ، وما الى ذلك مما لا ينهض به كل قصيد او مقال من القصائد والمقالات التى تزدان بامضاء أديب مشهور .

وقد حدثنى أديب مجهول أنه كتب مرة قطعة أدبية فى رثاء والدته ، وكتب عليها أنها ترجمة لقطعة وضعها «أناتول فرانس» يرثى بها والدته . ثم قدم الأديب المجهول قطعته لاحدى المجلات العربية الكبرى فحازت إعجاباً كبيراً لدى رئيس هذه المجلة وعنى بنشرها بين المقالات الأولى فى مجلته !

وما ذلك الا لأن أناتول فرانس قد حاز من الشهرة ما جعل كل شيء ينسب اليه محبوباً مقبولا . ويظهر أن الشهرة تعمى عن العيوب ، فهى تقرب الشخص إلى الناس بحيث ينسون نقائصه ولا يرون زلاته ، ويتمثلونه دمية بريئة من كل عيب ونقص – استغفر الله – بل انهم يتمثلونه صنماً لا يبحثون فى حقيقته ، ولا يجيزون لانفسهم يوماً أن ينقدوه أو يذموه ، وأغلب الظن انهم كذلك يعمون عن محامده ! واذا كانت له ناحية أو نواح جديرة بأن تفرد بالتقدير والاعجاب طمت الشهرة عليها ، فاغرقتها بين سائر النواحى التى يتشيع لها الجهلة والطغام . وكذلك الشهرة فى زماننا وفى الزمان الذى شكا منه صاحب كتاب « سرقات المتنبي » بل فى كل زمان تضعف فيه الثقافة ويعدم فيه جمهرةُ المتعلمين سعةَ الاطلاع ، وامعانَ النظر ، وكثرةَ الدرس ، وتحكيمَ الفهم والادراك .

وقد ظننتُ أن صاحب « سرقات المتنبي » سينهج لنفسه منهجاً حسناً خصوصا بعد ما قدمه فى مقدمته من التبرؤ من الظلم والتشيع للعدل والانصاف ، ولكن الرجل

ـ على ما يظهر ـ كان موغر الصدر على المتنبي ، وكان حاقداً عليه كل الحقد لشهرته التي حازها واصبحت كالقدر الذي لا يغالب ! وقد حفزه على وضع كتابه هذا كلمة سمعها من اديب متشيع للمتنبي في أحد مجالس الرؤساء ، خلاصتها : «سبحان من ختم بهذا الفاضل (يعنى المتنبي) الفحول من الشعراء واكرمه ، وجعل له من المحاسن ما يعثر فيه كل من تقدمه . ولو أُنصِف لعلق شعره كالسبع المعلقات من الكعبة » .

فردّ عليه ابو سعيد بكلام لولى لادع اثبته فى مقدمة كتابه . وهو من أجود مايرد به على خصم ، وينتقص به مقدار شاعر قد امتلكت شهرته القلوب والاذهان واصبح لا حيلة لحاقد عليه الا أن أن يتمحل عند ذمه فى ثنائه ، ويستعير محامده - لاظهار نقائصه ، ويستخدم دلائل قوته لاشهار مواطن ضعفه بأسلوب أدبى أظن لوعنينا بدرسه فى هذه الايام لأغنانا عن الأساليب المنحطة التى يستخدمها بعض الكتاب فى المهاترات الأدبية والسياسية ، ولكان لنا من ذلك أسلوب فنى يلذ لكل أديب ومحب للأدب أن يقرأه للفن فقط ولو لم يكن له صلة بموضوعه .

على أن أبا سعيد قد ذكر للمتنبي سرقات هى أبعد ما تكون عن وصف السرقة ، بل أن بعضها يشهد بفضله ، ويدل على أن أبا سعيد قد بالغ وتجاوز حدّ أوصاف السرقة والسلخ والمسخ والنسخ التى يذكرها علماء البديع ، وأوغل فى ذلك كله حتى ترى ان الرجل قد لجّ فى غلوائه ، وتجنّى على المتنبي فى كثير من الابيات التى ادعى أنها مسروقة . وما رأيك فى قول أبى سعيد من أن أبا الطيب المتنبي قد أخذ هذا البيت :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

من قول محمد البيدق الشيباني :

الظلم طبعك والعفاف تكلف والطبع أقوى والتكلف أضعف

وما رأيك أيضاً فى قول المتنبي :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

هل ترى كما رأى أبو سعيد أنه مأخوذ من قول محمد البجلي الكوفي :

هذا الزمانُ شئومٌ كما تراه غشومُ
الجهل فيه جليل والعقل غثٌّ ملوم
والمال طيفٌ ولكنْ على اللئام يحوم

تقول هل ترى كما رأى ابو سعيد مع أن معنى بيت المتنبي يخالف معنى البيت الثانى من هذه الابيات الثلاثة وهو الذى يشير ابوسعيد أن المتنبي سطا عليه فسلبه معناه ؟ هذا فضلا عن اختلاف الصياغة التى هى فى الحقيقة أهم ما يعول عليه الناقد النزيه ، والتى هى الميزة التى تنفرد بها شخصيته كل شاعر وكل أديب . أما المعانى فهى شائعة على افواه العامة اكثر من شيوعها على افواه الأدباء ، وهى تتوارد على خواطر الكبار والصغار والعلماء والجهلاء . والفضل فى أن يكون الانسان له ملكة يستطيع بها التعبير عن هذه المعانى . وتختلف منازل الادباء باختلاف القدرة فى اجادة التعبير وحسن البيان وقوة التأثير . وان الامىّ الجاهل ليلهج من المعانى بما لو صيغ صياغة فنية لكان آية من آيات البلاغة ومعجزة من معجزات البيان .

لذلك لا ارى ان السرقة الادبية لا تكون سرقة حقيقية الا اذا سطا الاديب او الشاعر على صياغة شاعر من الشعراء وعلى خياله وانتحل شخصيته فى تعبيره الذى يميزه عمن سواه مع الاخذ من معناه أولفظه . أما اخذ المعنى مجرداً وصوغة صياغة فنية أخرى يبثّ فيها الشاعر روحه ، ويطبعها بطابعه ، فليس ذلك بسرقة . وانما مثل الشاعرين فى هذه الحال كمثل مصوّرين وقفا امام منظر واحد من مناظر الطبيعة المشاعة بين الجميع ، فرسم كل منهما له صورة تتسق مع ذوقه ، وتتفق واحساسه بالجمال ، ومقدار تأثره به . فترى لكل منهما طابعاً خاصاً مع وحدة المنظر ، وتطالع فى كل صورة منهما روحاً تختلف عن الأخرى ، وذوقاً يخالف ذوق الآخر . ويمكنك فى هذه الحال ان تحكم أيهما أبرع فى التصوير ، واقدر على استخدام موهبته أحسن استخدام .

وهذا ما أريد ان اقرره بين شوقى والمتنبي . فشوقى بدأ حياته بالنسج على منوال المتنبي واستمر على هذا المنوال طول حياته ، وكأنه تشبع بروح المتنبي من الصغر فلازمته هذه الروح ، وأخذ فى كثير من الاحيان يقلد صياغة المتنبي ويحذو حذوه ويعارضه . وله فى هذا الاحتذاء وتلك المعارضة كثير من القصائد .

على ان احتذاء المتنبي ومعارضته ليستا من السهولة بحيث يغفل الناقد عندها ما وهب شاعر كشوقى من مقدرة على إحكام الاحتذاء والتقليد ، وما منح من ملكة خصبة تساعده على ان يعارض شاعراً من اكبر شعراء العربية ويجيد فى تلك المعارضة الى حد جدير بالتقدير ، وإن كبا فى بعض الاحيان أو غلبه ضعفه امام قوة المتنبي .

لقد تقرأ القصيدة من قصائد شوقى التى يعارض او يحاكى فيها قصائد المتنبي فتحسّ فيها بتلك القوة التى امتاز بها المتنبي ، وتشاهد من فيض المعانى والحكم مايقنعك بانه شاعر فياض . فاذا رجعتَ الى قصيدة المتنبي وجدتها بمثابة الدليل الذى يرشد شوقى ، والقائد الذى يقوده ، ولكنك تجده فى بعض الاحيان يسبق الدليل اوالقائد بخطوات كثيرة ويزيد عليه وترى مظهر هذه الزيادة فى عدد الابيات والاغراض المتعددة التى يقتضيها الموضوع .

ولنضرب لذلك مثلاً فى هذه العجالة قصيدة شوقى « صدى الحرب » فى وصف الوقائع العثمانية اليونانية . فان عدد ابياتها ٢٦٠ بيتاً تناول فيها مدح السلطان عبد الحميد ، وعيد جلوسه ، ومعجزات الجنود على الحدود ، والحالة فى بحر الروم ، ومنعة السواحل العثمانية ، وزينب المتطوعة فى الموقعة ، ومضيق ملونا ، والقائد عبد الازل باشا ، وهزيمة طرناد ، والتلاقى على سهل فرسالا ، وغصب دوموقو ، وأحلام اليونان ، وعفو السلطان ، والتماس القبول .

فهذه القصيدة هى عدة قصائد مجتمعة قد اختلفت اغراضها وصورها وان اتحدت فى الوزن والقافية ، وهذا ما ساعده على اطالتها الى هذا الحد .

فاذا قارناها ببائية المتنبي التى يمدح فيها كافوراً والتى مطلعها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل اعجب !

وجدنا أن شوقى قد اتخذ هذه القصيدة كالدليل فى نظم قصيدته . ولم يكتف بذلك بل انه عمد الى سلخ تراكيبها ومعانيها وسطا على نحو عشرين بيتاً من ابياتها . نقول سطا وسرق نحو عشرين بيتاً من سبعة وأربعين وهى عدد أبيات قصيدة المتنبي ، وادخلها بصياغتها فى قصيدته . وقد كنا نتزهه عن السرقة لو انه أخذ معنى هذه الابيات دون الصياغة التى هى طابع الشاعر ومظهر شخصيته . ولكنه لم يتورع عن أن يغتصب ابياتاً شادها المتنبي بقوة سليقته ، ومتانة طبعه وقدرته على تصريف القول بما لم يستطع احد قبله ان يصرفه حتى غالبت ملكته القوية جميع انداده من الشعراء وظهرت عليهم وجعلته يقول :

ودع كل صوت غير صوتى فانني انا الصائح المحكىُّ والآخر الصدى

لم يتورع « شوقى » فأخذ عشرين أو اكثر من العشرين بيتاً ، وبدأ قصيدته بالصياغة التى بدأ بها المتنبي قصيدته فقال :

(بسيفك يعلو الحق والحق اغلب) وينصر دين الله ايان تضرب

كما قال المتنبي فى مطلع قصيدته :

(اغالب فيك الشوق والشوق اغلب) واعجب من ذا الهجر والوصل اعجب

يأبى شوقى إلا أن يأخذ الشطر الآخر من بيت المتنبي ، فيقول فى موضع آخر:

تبالغ بالرامى وتزهو بما رمى (وتعجب بالقواد والجند أعجب)

وهذا نفس ما فعله شوقى فى مطلع قصيدة أخرى ، بل فى مطلع عدة قصائد . من ذلك قصيدته فى مدح الخديو السابق الذى يقول فى مطلعها :

(يود من الارواح ما لا توده) ويفتك فيها مسرفاً وهى جنده)

فقد اخذه من مطلع قصيدة المتنبي فى مدح كافور وهو :

(أود من الايام ما لا توده وأشكو اليها بيننا وهى جنده)

ولست أريد أن أتوسع فى هذا الباب ، فقد اعددت له كتاباً خاصاً . وحسبي فى هذا المقال أن أتحدث عن قصيدة « صدى الحرب » التى نحن بصددها ، والتى كان شوقى نفسه يفاخر بها فى أيامه الأخيرة ، وقد جعلها ثالث قصيدة فى الجزء الأول من ديوانه الجديد .

قال شوقى فى مطلع هذه القصيدة أيضا :

(وينصر دين الله أيان تضرب)

وهل تحسب أنه عبر هذا التعبير لو لم يكن المتنبي قال فى بعض أبياته :

(أراقب فيه الشمس أيان تغرب)

وقد يحسب بعضهم أننا نتجنّى على شوقى حينما نقول أنه سرق الصياغة ، ولكن الواقع أنه سرق أو على الأقل اهتدى بتعبير المتنبى لكى يفصح عما فى ضميره . وهذا اذا لم يكن سرقة فهو احتذاء وتقليد .

. ويقول شوقى :

ومملكة اليونان محلولةُ العرى (رجاؤك يعطيها ، وخوفك يسلب)

وقد أخذه من قول المتنبي :

إذا لم تنطْ بى ضيعة أو ولاية (فجودك يكسونى ، وشغلك يسلب)

ويقول شوقي :

تروح المنايا الزُّرق فيه وتغتدي (وما هي إلا الموج يأتى ويذهب)

فأخذه من المتنبي وسلخ خياله فجعله للبحر بدل الفرس فى قول المتنبي يصف فرسه:

له فضلة عن جسمه فى اهابه (تجيء على صدر رحيب وتذهب)

ويقول المتنبي فى وصف فرسه بعد البيت السابق :

(شققت به الظلماء أدنى عنانه فيطغى وأرخيه مراراً فيلعب)
(وأصرع أىّ الوحش قفَّيته به وأنزل عنه مثله حين أركب)

فيأتى شوقى ويسطو على هذا الوصف ويقول فى وصف الحاج عبد الأزل باشا وفرسه :

اذا شهداها جدّدا هزة الصبا كما يتصابى ذو الثمانين يطرب
(فيهتز هذا كالحسام وينثنى وينفر هذا كالغزال ويلعب)

الى أن يقول :

(ذرونى وشأنى والوغى لا مبالياً إلى الموت أمشى أم الى الموت أركب)

وأنت إذا قارنت هذا البيت والذى سبقه ببيتى المتنبي تجد أن شوقى قد سطا على خيالها سطواً واضحاً ، ورأى أن لامفر من أخذ كلمتى « يلعب » و « أركب » مع أخذه من خيال المتنبي معناه .

وانظر الى شوقى إذ يقول :

(فقبلت كفاً كان بالسيف ضارباً وقبلت سيفاً كان بالكف يضرب)

ثم أقرأ بعد ذلك قول المتنبي :

(إذا ضربت فى الحرب بالسيف كفه تبينت أن السيف بالكف يضرب)

ولا والله ، لو أن شوقى أخذ المعنى وصاغه صياغة أخرى تسمو عن صياغة المتنبي أو لو أنه وضعه وضعاً أقوى من وضع المتنبي ونفث فيه من شاعريته لما بخلتُ عليه بالتقدير والاعجاب ، لأنه يكون قد أتعب نفسه وأتى من عنده بشيء ينبغى أن يكافَأ عليه بالتقدير والاعجاب .

ولكن شوقى رحمه الله كان مغرماً بالتقليد الى حد كبير . وهذا التقليد تلحظه فى عدة نواح من آثاره التى خلفها حتى فى رواياته وكتابه النثرى (أسواق الذهب)

الذي وضعه على نسق (أطواق الذهب) للزمخشري ، (وأطباق الذهب) للأصفهاني، وليس هنا مجال واسع للافاضة في هذا الموضوع .

واسمعه وقد أراد أن يعارض المتنبي وهو يخاطب كافوراً ويقول له :

(سللتَ سيوفاً علمتْ كل خاطب على كل عود كيف يدعو ويخطب)

فيأتي شوقي ويقول ـ معارضاً أو محاكياً أو محاذياً أو غاصباً أو ماشئت فقل ـ وهو يخاطب السلطان عبد الحميد :

(حسامك من سقراط في الخطب أخطب وعودك من عود المنابر أصلب)

وهذا مسخ ما بعده مسخ لبيت المتنبي . وما أشبه هذا التعبير بقول القائل : « طربوشك أحسن من طربوشه ، وعصاك أجمد من عصاه » ، على أنه فضلاً عن هذا التقليد والتعبير الممسوخ قد وقع في خطأ نحوي في هذا البيت حيث قدم « من » والمفضول : « من سقراط » و « من عود المنابر » على أفعل التفضيل : « أخطب » و « أصلب » ، والصحيح أن يقال : حسامك أخطب من سقراط ، وعودك أصلب من عود المنابر .

وقد وقع في مثل هذا الخطأ في البيت الذي يليه :

(وعزمك من هومير أمضى بديهة وأجلى بياناً في القلوب وأعذب)

وأراد أن يغطي السرقة في الشطر الثاني فقال أجلى (بالجيم) بدل أحلى وفي القلوب بدل في الفؤاد كما قال المتنبي :

(فان لم يكن الا أبو المسك أو همُ فانك أحلى في الفؤاد وأعذب)

وفي هذا التغيير بين أحلى وأجلى ، وفي الفؤاد وفي القلوب، مايدل على أن السرقة والتلاعب مقصودان .

وقد أخطأ شوقي ايضاً في قوله :

فلما دجى داجي العوان وأطبقت (تبلج والنصرَ الهلالُ المحجّبُ)

و (النصر) في هذا البيت مفعول معه و (الهلالُ) مصحوبه . وقد تقدم هنا المفعول معه على مصحوبه ، وهذا خطأ نحوي لانه من المقرر عند علماء النحو ألاّ يتقدم المفعول معه على عامله فلا تقول « والنيلَ سرتُ » ولا على مصحوبه فلا تقول : « أقبل والجيشَ الاميرُ » . وما في هذا البيت ينطبق على هذا المثال . والصواب أن يقال فيه : تبلج الهلالُ والنصرَ .

نرجع فنقول إن شوقي أبى الا أن يوغل فى الاخذ من قصيدة المتنبي غير هيّاب ولا وجل ، وكأنها مباحة له ، فاذا قال المتنبي :

ولو جاز ان يحووا علاك وهبتها (ولكنْ من الاشياء ماليس يوهب)

تبعه شوقى فقال :

فلولا سيوف الترك جرّب غيركم (ولكنْ من الاشياء ما لا يجرّب)

واذا قال المتنبي :

واظلم اهل الظلم من بات حاسداً (لمن بات فى نعمائه يتقلب)

انتحل شوقى الشطر الثانى من هذا البيت فقال :

سلاماً (ملونا) واحتفاظاً وعصمة (لمن بات فى عالى الرضا يتقلب)

واذا قال المتنبي :

وكل امرىء يولى الجميل محبب (وكل مكان ينبت العزّ طيب)

حسده شوقى فابى ألا ان يأخذه لنفسه أو يأخذ صياغة الشطر الثانى ويصيغها فى شعره بلا تورع ولا إباء ، فيقول :

وهل انت الا الشمس فى كل أمة (فكل لسان فى مديحك طيب)

وانك لتجد فى بيت شوقى تخلخلاً وعدم ارتباط لأن الشطر الثانى غير منسجم مع الأول كانسجامه فى بيت المتنبي الموضوع فيه وضعاً طبيعياً .

وكذلك اذا قال المتنبي :

(وأخلاق كافور اذا شئت مدحه وان لم أشأ تملى علىّ وأكتب)

يأتى شوقى فيحسب انه سيلحق المتنبي فى هذا المعنى وفى هذا الوضع القوى المحكم المملوء قوة وشعوراً والذى يصل الى الغرض من اقرب طريق . نقول يأتى فيقول مخاطباً السلطان :

(مدحتك والدنيا لسانٌ واهلها جميعاً لسانٌ يعليان وأكتب)

ويقول المتنبي مخاطباً كافور بعد البيت السابق :

(اذا ترك الانسان اهلاً وراءه ويمم كافوراً فما يتغرب)

فيقول شوقى :

(يلاقى بعيد الاهل عندك اهله ويمرح فى أوطانه المتغرب)

لا أريد ان أطيل فى ايراد الامثلة من قصيدة واحدة أودع فيها شوقى كثيراً من صياغات المتنبي وتعبيراته واخيلته ومعانيه . ولقد جرت بينى وأحد الاصدقاء مناقشة فى هذا الصدد فكان اعتذار هذا الصديق عن شوقى انه قال هذه القصيدة فى مفتتح حياته مع انه قالها فى اوج نضوجه الشعرى وفى عهد كهولته . على انه اذا كانت هذه القصيدة ليست من عيون الشوقيات التى يفاخر بها شوقى فلماذا وضعها فى صدر الجزء الاول من ديوانه الجديد ، ولماذا لم يحذف الابيات التى انتحلها من المتنبي وغيره ؟ ثم لماذا بدت هذه الروح فى كثير من اشعار شوقى حتى فى قصائده الأخيرة بل فى آخر مرثية له ، وهى التى رثا بها حافظ ابراهيم ؟ ونذكر هنا على سبيل المثال قوله :

وودتُ لو أنى فداك من الردى والكاذبون المرجفون فدائى !

فقد نسجه من قول المتنبي :

تطيع الحاسدين وأنت مرءٌ جُعلتُ فداءه وهمُ فدائى !

ونستطيع ان نأتى بكثير من الشواهد على ذلك حتى من قصائده الاخيرة التى لم يمض عليها غير بضع سنوات . أليس شوقى هو الذى حذا حذو المتنبي فى مطلع قصيدته التى مدح بها على بن منصور الحاجب ، والتى بدأها بالغزل فقال :

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا
المنهبات قلوبنا وعقولنا وجناتهن الناهبات الناهبا
الناعمات القاتلات المحييا ت المبديات من الدلال غرائبا
حاولن تفديتى وخفن مراقباً فوضعن ايديهن فوق ترائبا
وبسمن عن برد خشيت أذيبه من حر انفاسى ، فكنت الذائبا !

واستمر فى هذا الغزل الى ان تخلص الى ممدوحه :

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان الىّ منها تائبا

فجاء شوقى على هذا المنوال وعلى هذه الصياغة نفسها وان اختلفت المعانى فقال:

بأبى وروحى الناعمات الغيدا الباسمات عن اليتيم نضيدا
الرانيات بكل أحور فاترٍ يذر الخلىّ من القلوب عميدا
الراويات من السلاف محاجراً الناهلات سوالفاً وخدودا
اللاعبات على النسيم غدائراً الراتعات مع النسيم قدودا

أقبلن فى ذهب الأصيل ووشيه ملء الغلائل لؤلؤاً وفريدا

إلى آخر ماقال . . . .

وأحسب أننى لو أطلت فى هذا الباب لما اتسع له نطاق هذه المجلة . ولست أريد أن أظلم شوقى أو أتجنى عليه خصوصاً بعد أن خلا ميدانه واصبح فكرة بين طيات الزمن بعد أن كان شخصاً مجسماً له مطامعه التى كان لايألو جهداً فى ارضائها بما جُبلت عليه نفسه من حب الشهرة والغرام بها والسعى اليها من كل سبيل .

نعم لاأريد أن أظلمه ولا أتجنى عليه ، وأنا أعلم أن له من القصائد العصماء ماتكفى الواحدة منها لأن تخلد ذكره ، وأن له من الفضل فى النهضة الأدبية الأخيرة مايجب أن يعترف به كل من يتصدى للكتابة عنه ، ولكننى أقصد فيما أكتبه فى هذه المجلة وما كتبته فى مجلات أخرى ، وما سوف أكتبه فى كتاب خاص، الى أن أتحرى خدمة الحقيقة والأدب نفسه ، لالأن أتشيع للأسماء والألقاب مهما بلغت هذه الأسماء والألقاب من شهرة وخطر ؟

طاهر الطناحى



معارضات شوقى فى المرآة

البردتان — الداليتان — السينيتان

وجلست لأكتب عن شوقى بعد ما مضى عليه فى جوار ربِّه اكثر من أربعين نهاراً وأصبح هو وشعره أمانة فى يد التاريخ الذى لايغبن ولا يحابى .

وكان بودى أن يواتينى الفراغ فأتناول ناحية من شعره بنوع من الدرس والتحليل تطمئن اليه نفسى ونفوس القراء . ولكن الشواغل وما أكثرها والظروف وماأقساها أبتْ إلا أن يجئ بحث اليوم قاصراً على دراسة قصائد ثلاث هى فى الحق عرائس شعره . عارض فيها ثلاثة شعراء يشهد التاريخ أنهم كانوا من أعلام الشعر وحاملى لوائه فى عصورهم : ونعنى بهم أبا عبيد الله البوصيرى فى بردته — وأبا اسحاق الحصرى فى داليته — وأبا عبادة البحترى فى سينيَّته . بَيْد أنى أعلم أنَّ قصيدة واحدة من هذه القصائد الثلاث التى نحاول اليوم دراستها لو شئنا تحليلها والموازنة

العادلة الدقيقة بينها وبين مقابلتها لما وسعنا هذا العدد بأكمله ولذلك سنقتصر فى دراستنا لها على المقابلة السريعة بينها والاشارة الى المعانى التى اشترك فيها الشاعران والتى انفرد بها كل منهما ، وهل كان الثانى مبتكراً فى معارضته أومقلداً ، وإذا كان مقلداً فما مبلغ نجاحه وتوفيقه فى هذا التقليد .

﴿ البردتان ﴾

كان أبو عبد الله صاحب البردة تقياً صالحاً مشغوفاً بالعبادة متفانياً فى حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن هذا الحب الطافح فاضت هذه المنظومة الطويلة فهى فى الحق صورة لنفسه الطاهرة ومرآة لاحساسه نحوالرسول وآل بيته.وحسبك أن تعلم أنه كان مريضاً فشفى بفضل نظمها وإنشادها وأنه كان يرى الرسول صلى الله عليه وسلم خلال نظمه لها وأنه قد أتمّ لابى عبد الله فى نومه بحثاً كان قد استعصى عليه إتمامه .

فهل كان شوقي كذلك ؟ وهل كان متعلقاً بالرسول مشغولاً به كما كان صاحبه ؟ وهل كانت له بالرسول تلك الصلة العالية التى اجتمعت لابى عبيد الله وتحدث عنها جلّ المؤرخين ؟ هذا ما لانستطع تحديده ولا نريد الخوض فيه حينما نحن نجله عن أن يكون قد نظمها لتنازع بردة صاحبه مكانتها أمام الموتى وهو القائل :

أرى زمراً مشيعةً وأسمع أيّما صوْت
ولو عَقَلوا لما نطقوا جَلالُ الموْتِ فى الموْتِ

ولكن الذى أعتقده ولا أومن بسواه أن شوقى رحمه الله انما نظمها حباً وطمعاً فى الشهرة التى نالها صاحبه ، وهذا الغرض وحده هو الذى حداه الى إخراجها واخراج أخواتها على ما سترى .

وكأنى به قد أراد أن يشتهر فى جميع الأوساط ويتعرف الى كل الطبقات فنظم هذه القصيدة الدينية التى قربت بحق ما بينه وبين المتدينين والمتصوفين فى هذا البلد ولهذا لاتتراءى لك فى بردة شوقى تلك العاطفة الفياضة التى تكاد تلمسها فى بردة البوصيرى ولا تلمح فيها الروعة والجلال اللذين تلمحهما فى أختها ، لا لأنها أقل منها بلاغة وانسجاماً ولكن لانه يعبرفيها عن شعور غيره ، وليست النائحة كالثكلى . ونعود الى البوصيرى فنجده قدقسم بردته قسمة تقريبية الى عشرة أقسام بدأها بالغزل وشكوى

الزمان ، ثم التحذير من النفس ، ثم المدح ، وحاكاه شوقى فى ذلك وإن كان قد زاد فى بعض النواحى وأوجز فى بعضها الآخر .

وقد طرّق البوصيرى لمدح الرسول وهو بيت القصيد بأكثر من خمسة وعشرين بيتاً،وأسرف فى ذلك شاعرنا حتى أوصل مقدمته الى خمسين بيتاً ، وسننظر أأحسن فى ذلك أم أساء .

يقول البوصيرى فى مطلع بردته :

أمِنْ تذكّرِ جيرانٍ بذى سلمِ مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ

ويقول أمير الشعراء :

ريمٌ على القاع بين البان والعلمِ أحلّ سفكَ دمى فى الأشهُرِ الحُرُمِ

وأنا أعتقد أنّ شاعرنا قد وُفّق كثيراً فى اختيار هذا المطلع الموسيقى الرائع وكان أبرع من صاحبه استهلالا وأحسن ابتداءً . ولو أنه استعمل شطر البيت الخامس من بردته فى بناء ذلك المطلع الذى تراه فوق ما يبدو فيه من حسن السبك وائتلاف الألفاظ يحمل بين طيّاته معانى جديدة سامية حينما لم يزد صاحبه على هذا المعنى المطروق ونعنى به بكاء الانسان على فراق أحبته ولم يخرجه هذا الاستفهام الذى له مكانته من البيت عن كونه مبالغة غير مقبولة .

وقد ترى ذلك التقليد الذى حدثتك عنه واضحاً جلياً اذا قرأت للبوصيرى هذا البيت :

محضتنى النصحَ لكن لست اسمعهُ إن المحبَّ عن العذّالِ فى صممِ

وقرأت الى جانبه قول شوقى :

لقد أنلْتك اذناً غير واعية وربّ منتصتٍ والقلبُ فى صممِ

ويدرك مقدار عجزه عن مداناته .

وتخلص البوصيرى من ذلك الى ذم النّفْس والتحذير من هواها بالبيت الآتى :

فانّ أمّارتى بالسُّوء ما اتعظتْ من جهلها بنذير الشيب والهرمِ

ولو قرأت ما قبله وما بعده لرأيت أنه انتقال طبيعى لا يكاد يدرك بينما ترى شاعرنا ـ حين لم يوفق الى بيت يتخلص به من الغزل الى ما يريد ـ ينتقل انتقالا جديداً لا صلة بينه وبين ما قبله ويفصل ما بين المعنيين بحرف النداء فيقول :

لم اغش مغناك إلا فى غضون كرىً — مغناك أبعدُ للمشتاق من إرم
يانفسُ دنياك تخفى كل مبكية — وإن بدا لك منها حُسْنُ مبتسم

وقد ذكر البوصيرى فى هذا الصَّدَد أكثر من خمسة عشر بيتاً ضمَّن كل بيت حكمة خالدة قُدِّر لها الذيوع فسارت مسير الشمس فى الآفاق ـ وكذلك فعل شوقى وزاد عليه فى رائع الحكم وبالغ العظات .

ولقد تخلص بعد ذلك كل منهما إلى مدح الرسول وهو قوام هذه المنظومة ، فقال البوصيرى :

ولا تزوَّدتُ قبل الموت نافلةً — ولم أصلِّ سوى فرضٍ ولم أصُمِ
ظلمتُ سنّة من أحيا الظلامَ الى — أن اشتكت قدماه الضرَّ من ورمِ

وقال شاعرنا :

وإنْ تقدم ذو تقوى بصالحة — قدَّمتُ بين يديه عبرةَ الندمِ
لزمتُ باب أمير الأنبياء ومن — يمسكْ بمفتاح باب الله يعتصمِ

وكلاهما قد أحسن التخلص وأجاد الانتقال ، وإن كان الانسجام فى الأصل أظهرَ والاتصالُ أشدَّ وأوضحَ . وإخالك لا تجهل أن (أمير الأنبياء) الذى ورد فى هذا البيت تعبير جديد لم يُسبق اليه الشاعر .

وقد تحدَّث كل من الشاعرين بعد ذلك عن مولد الرسول ، فقال الأول :

أبانَ مولدُه عن طيب عنصرِه — ياطيبَ مبتدأ منه ومختتم

وقال الثانى :

أسرتْ بشائر بالهادى ومولده — فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم

وأنت ترى أن البيت الثانى وإن كان أبلغ فى التصوير وأوضح فى الاتساق فان الأول يتجلّى فيه حبُّ المادح للمدوح وتفانيه فى شخصه ـ فضلا عما يحمله الشطر الأول من المعانى السامية التى لا تخفى على اللبيب .

وقد قال الأول بعد البيت السابق :

وبات إيوانُ كسرى وهو منصدع — كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

وأراد شاعرنا أن يحاكيه فى ذلك فقال :

ربعت لها شُرفُ الإيوان فانصدعت — من صدمة الحق لا من صدمة العدم

وبهذا التشبيه الجميل استطاع الأول أن يصف لك حالتين : حال ايوان كسرى وحال الفرس عند مولد الرسول كل منهما فى شطر من البيت حينما لم يستطع شاعرنا بعد الجهد أن يعبر ببيته إلاّ عن المعنى الأول منهما ، مع ما بينهما من بون شاسع تستطيع أن تلمحه فى الفرق بين قول الأول: انصدع الايوان، وقول الثانى : ريعت الشرفات . ولقد أسهب شوقى بعد ذلك فى ذكر معجزات الرسول فذكر الاسراء والمعراج والهجرة ثم انتقل إلى الغزْو والجهاد وشرف القرآن ، وذكر فى ذلك أكثر من مائة بيت ولعل السبب الذى مكنه من ذلك انما هو اتساع نواحى الفضل عند الرسول وكثرة ما أثر عنه من حميد الصفات وجليل الأعمال. ولقد تعرض البوصيرى فى بردته لوصف القرآن الكريم وعجز العرب عن معارضته وذكر فى ذلك فصلا كاملا يستريح أليه الباحث وأجمل ذلك شاعرنا فى أبيات قلائل ليس فيها ما يستحق الاعجاب ويستأهل الثناء سوى هذا البيت :

آياته كلما طال المدى جُدد يزينهنَّ جلالُ العتْق والقِدَمِ

أما الغزو والجهاد فى سبيل الله فقد تحدّث عنه كل منهما كما أسلفنا وإن كان البوصيرى قد اقتصر على وصف المسلمين وانتصاراتهم وبسالتهم فى الحروب وما شابه ذلك حينما شوقى لم يقف عند هذا الحد بل تراه يتحدث اليك عن سر الفتح الاسلامى ، وحال الناس قبل الاسلام ، وفائده الحروب والدولات التى قضى عليها الاسلام ، ويبسط أمامك صفحة خالدة من تاريخ المسلمين فى حياتهم الأولى ، وهذه محمدة لأمير الشعراء وميزة له لانستطيع اغفالها .

وبعد هذا ترى البوصيرى يناجى الرسول صلى الله عليه وسلم فى عدة ابيات ضمنها الاعتراف بالذنب وطلب المغفرة والتوسل بالرسول وتعليق الآمال عليه والتشرف بتسميته باسمه ، ويقلده شوقى فى كل ذلك فيبدع ويجيد ولا سيما فى المعنى الأخير حيث يقول :

يا أحمد الخير لى جاهٌ بتسميتى وكيف لايتسامى بالرسول سَمى

وإن كان لم يقل فى ذلك اكثر من بيتين اثنين مما جعلنا نشك فى اخلاصه فيما يقول . ثم يختتم الاول بردته بعرض مطالبه وبسط آماله والضراعة الى الله وطلب الرحمة والمغفرة ، وكذلك يختتم شاعرنا بردته بالصلاة على ارسول وآل بيته الطيبين الطاهرين .

بعد هذه الموازنة السريعة ين البردتين نستطيع ان نقرر ما يأتى :

أولاً : أن شوقى قد طرق فى بردته نواحى عدة لم يطرقها صاحبه وقد أجاد فيها حتى لنكاد نعتقد أن الاول لوتحدث عنها لما بلغ مبلغه . من ذلك وصف الشريعة الاسلامية وأثرها فى نفوس العرب ومبلغ حب العجم لها واقبالهم عليها ، واستمع اليه إذ يقول فى ذلك :

شريعة لك فجرت العقول بها　　عن زاخر بصنوف العلم ملتطم
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها　　كالحلى للسيف أو كالوشى للعلم

ومن ذلك الخلفاء الراشدون ومبلغ علمهم واخلاصهم وغيرتهم على الاسلام والمسلمين ويصف لك شيئاً مما حدث لعمر عند موت الرسول ، واليك بعض ما قاله فى (على و عثمان) رضى الله عنهما :

من كالإمام إذا ما فض مزدحماً　　بمدمع فى مآقى القوم مزدحم
الذاخرُ العذب فى علم وفى أدب　　والناصرُ الندبُ فى حرب وفى سلم
أو كابن عفان والقرآن فى يده　　يحنو عليه كما يحنو على الفطم
ويجمع الآى ترتيباً وينظمها　　عقداً بجيد الليالى غير منفصم

وثانياً : أن بردة شوقى قد انتظمت طائفة من الحكم الخالدة ابتكر بعضها واقتبس بعضها الآخر من الأصل الذى عارضه . وقد تصرف فى هذا الذى اقتبسه تصرفاً محموداً ميّزه وأظهر فضله فيه — هذا الى ما تمتاز به من جزالة الألفاظ وتنوع المفردات واستقرارها مما يدل على ثراء الشاعر وانقياد العربية اليه .

أما بردة البوصيرى فمن الاشياء الجلية التى تمتاز بها أنها :

أولا صورة صادقة لنفس صاحبها كما حدثتك وترجمان ناطق بما يحسه نحو ممدوحه بخلاف بردة شوقى فانها محض ترسم واقتفاء وتقليد لا صلة فيها بين المادح والممدوح إذا قيست بالأصل المعارض ، اللهم إلا صلة العقيدة التى لا يستطيع تحديدها غير صاحبها . ولعل هذا الاخلاص والصلاح اللذين توفرا لصاحبها هما اللذان قدرا لها الذيوع والرواج بين آلاف من نوعها .

وما كان شوقى رحمه الله لينكر على صاحبه مكانته من الرسول أو ينافسه حبه له وتعلقه به وهو القائل فى أدب الفضلاء وتواضع العظماء يخاطب الرسول :

مديحه فيك حبٌّ خالص وهوى　　وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشهد أنى لا أعارضه　　من ذا يعارض صوب العارض العرم

وثالثاً : انك تلمح فيها المعانى مرتبة متصلا بعضها ببعض حتى لتكاد تحسبها فصولا مستقلة كل فصل له مطلعه ومقطعه ، بينما ترى بردة شوقى قد اختلطت فيها المعانى بحيث ينتقل من توسل الى مديح ثم إلى وصف ومناجاة ثم يعود بك إلى التوسل ويستطرد فيذكر لك شيئاً من الصفات على حسب ورودها فى ذهنه من غير ترتيب ولا نظام

ورابعاً حسن الانتقال حتى لتكاد تقرأ القصيدة كلها فلا تحس فيها بتخلص أو انتقال وهذا لم يتوفر لشوقى لأن أبياته التى اختارها لتكون واسطة انتقال كانت تائهة غريبة لا صلة لها بسابقها ولا علاقة لها بتاليها ولهذا أثره فى تجزئة المعانى وعدم ارتباطها وتآلفها فى ذهن القارىء والسامع .

هذه موازنة اجمالية بين البردتين وسنعود اليهما فى فرصة أخرى بالتحليل الجزئى والمقابلة الكاملة .

﴿ الداليتان ﴾

نستطيع أن نقول بعد الذى قدمناه إن شوقى بك قد عارض ميمية البوصيرى فى جملتها ولكنا سنراه فى هذه القصيدة قد أمسك بريشته ونصب الأصل المعارض أمامه وأخذ ينقل منه ويستمليه جزءاً جزءاً كما يجلس المثال إلى صورة عهد اليه صنعها. وهذا النوع من المعارضة على مافيه من تكلف واعتناء لو أجاد فيه الشاعر لوجد من الاعجاب والتقدير مايرضيه وقلما تخفى الفوارق أو تجهل الحسنات فى مثل هذا النوع

وقد قدر لهذه القصيدة التى نحن بصددها الرواج والانتشار حتى أصبحت تعرف بمطلعها « ياليل الصب » كما تعرف معلقة إمرىء القيس بقفانبك ولها فى الأدب العربى وتاريخه مكانة سامية ولهـذا تصدى لمعارضتها اكثر من اثنى عشر شاعراً كان من أفضلهم أمير الشعراء الذى نعالج دراسة معارضته اليوم ـ وسنمر فى موازنتنا بالاصل وتابعه سراعاً لننظر الى أى حد آصاب شاعرنا فى معارضته .

يقول الحصرى فى مطلع قصيدته.

يا ليل الصبّ متى غدُهُ ؟ أقيامُ السّاعةِ مَوْعِدُهُ ؟

ويقول شاعرنا :

مضناكَ جفاه مرقدُهُ وبكاهُ ورحّمَ عُوّدُهُ

وأنت ترى أن شوقى فضلاً عن اقتباسه هذا المطلع من مطلع نجم الدين القمراوى إذ يقول فى معارضته لهذه القصيدة .

قد مل مريضك عودُه ورثى لأسيرك حسّدُه

ومن أحد أبيات الحصرى إذ يقول .

لم يبق هواك له رمقاً فليبك عليه عوّدُه

فضلاً عن ذلك فانه لم يصل فى رأينا الى ما وصل اليه صاحبه من الدلالة على طول الليل وما يعانيه المحب المهجور فيه .ويقول الحصرى بعد ذلك .

فبكاه النجمُ ورقّ له مما يرعاهُ ويرْصُدُه

ويحاكيه شوقى فيقول :

ويناجى النجْمَ ويتبَعُه ويقيم الليل ويُقْعِدُه

ولا اخالك تجهل الفرق بين مناجاة النجم ومتابعته للساهد وبين رقته له وبكائه من أجله ولا ريب أن البيت الأول يشتمل على ما تضمنه الثانى ويزيد عليه هذا الابتكار الجيل . ويتحدث ابو اسحاق عن الحبيب ودلّه ونفوره فيقول .

أصبت عيناى له شركاً فى النّوم فعزّ تصيُّدُه

فاذا ماجاء شاعرنا ليعارضه فى ذلك قال :

كم مد لطيفك من شركٍ وتأدّبَ لا يتصيَّدُه

وهذه مبالغة ممقوتة عكست المعنى الذى عبر عنه صاحبه وأصبح بيته عاجزاً عن أن يتضمن أكثر من أنه نام ليرى طيف الحبيب حتى إذا تراءى له لم يشأ أن يراه أو تأدّب عن أن يراه وعلى هذا المعنى يتضح لك التناقض الذى وقع فيه الشاعر إذا قرأت الى جانب ذلك البيت الذى يليه مباشرة :

فعساك بغمض مسعفه ولعل خيالك مُسْعِدُه ؟!

ولست أدرى بعد ذلك لم يتمنى النوم وهو الشرك الذى يريد أن يتصيد به الحبيب إذا كان يتحرج من تصيده فيه ؟ ! وأنّى للخيال أن يسعده وهو يتردد فى الاستمتاع به ؟ !

ويقول البوصيرى :

خدّاك قدْ اعترفا بدمى فعلام جُفونك تجْحدُه

ويجىء شاعرنا ليعارضه فى ذلك فيقول :

جحدت عيناك زكىّ دمى أكذلك خدك يجحده

وأنت ترى أن كل ما عمله انما هو قلب الاصل وجعل الصدر عجزاً والعجز صدراً ، وفضلاعن أن هذا ليس من المعارضة فى شىء فان الاول يثبت اعتراف الخدود بدمه والثانى يشك فى ذلك ويتساءل عنه !

من هذه الموازنة السريعة نستطيع أن نقول إن المعانى المشتركة بين الشاعرين وما اكثرها كان الاول أبعد فيها منالا وأحسن اختياراً وأسمى مأخذاً . ولم نر معنى قد اقتبسه شاعرنا فتصرف فيه على النحو الذى رأيناه فى البردة وصقله صقلا يميزه ويدل على ما فيه من مجهود وابتكار. ولقد اسهب كل منهما فى ناحية غير التى أسهب فيها صاحبه . وفى اعتقادى أن المعانى التى انفرد بها شوقى كانت مثلاً أعلى فى سمو الخيال ودقة التصوير واتساق الالفاظ ، ولو تعرض لها ابو اسحاق لماتسنى له أن يأتى بأبلغ منها واليك طرفاً من هذه الابيات التى انفرد بها وهى تصور لك الحب فى أعلا درجاته :

ما بال العاذل يفتح لى باب السلوان وأوصده !
ويقول تكاد تجن به فأقول وأوشك أعبده !
مولاى وروحى فى يده قد ضيعها سلمت يده

﴿ السينيتان ﴾

لقد كان من السهل علينا أن نوازن بين القصيدتين السابقتين وبين نظيرتيهما لأن شوقى فيهما كما رأيت كان يسير هو وصاحب الأصل الذى يعارضه فى اتجاه واحد وكان إما أن يقلّد ذلك الأصل أو ينسج على منواله. أما هاتان القصيدتان فان الشاعرين لم يتفقا فيهما إلا فى الوزن والقافية وطفق كل بعد ذلك يتغنى بليلاه ـ فعكف البحترى على وصف الايوان وما على حوائطه من صور ونقوش وتماثيل : وصفه وهو كذلك فى عنفوان الدولة وشبابها ، ثم وصفه بعد أن زالت الدولة واقفرت جنباته وعبثت به الأيام ومشت عليه يد الزمن الجائر فمحت طلاوته ومسحت رونقه ورواءه — ثم وصف فى طريقه الخمر ومجالسها وأثرها فى النفوس ورأينا شوقى يحن الى مصر وساكنيها فيذكر الجزيرة وجمال موقعها ويخلع عليها من رائع التشبيهات وجمال الصفات ما لم يجربه لسان شاعر من قبل — ثم يتحدث عن الجيزة وحقولها ومزارعها وعن الاهرام وأبى الهول وغيرهما من مفاخر مصر .

وبعد ذلك ينتقل بذهنه الجبار طفرة الى الاندلس فيصف لك ديار بنى الأحمر ويتحدث عن حصن غرناطة وقصر الحمراء وأبهائه وقبابه ونقوشه وتهاويله ، ثم ينتقل بك بعد ذلك الى وصف شبه الجزيرة وجوها الصافى وهوائها العليل ويتحدث عن رياضها وحراجها وحقولها وجنانها ويذكر بعد كل ذلك فضلها عليه وعلى بنيه .

هذه نظرة عامة فى القصيدتين وسنعرج عليهما مسرعين لنتبين مبلغ توفيق كل منهما وإصابته .

لقد ذكر البحترى اكثر من عشرة أبيات فى شكوى الزمان وبث ما يعانيه من بؤس وعناء ثم تخلص إلى غرضه وهو وصف الإيوان بهذا البيت الجميل :

حضرت رحْلىَ الهموم فوجَّهـــــتُ إلى أبيض المدائن عنسى

وتخلص شاعرنا الى الحنين الى وطنه بهذا البيت الرائع :

وطنى لو شُغلتُ بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

وهذا البيت فضلا عن انّه وصلة مناسبة بين ماقبله وما بعده فانه بيت خالد جمع الى جزالة اللفظ شرف المعنى واصبح مثلا سائراً فى حب الوطن والحنين اليه .

ولقد نسمع مطلع البحترى :

صُنتُ نفسى عمّا يدنس نفسى وترفعت عن جدى كل جبس

وتسمع الى جانبه مطلع شوقى :

اختلافُ النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

فتحس فى الأخير بروعة وجلال وترى فوق ذلك المناسبة القوية بينه وبين المعانى التى يريد أن يتحدث عنها وهى الحنين والذكرى ـ وقد زاده هذا الالتفات البديع رونقاً وجمالا .

وبعد ، فان الحق يقضى علينا أن نعترف لشوقى فى هذه القصيدة بالاجادة والابداع ، وقد لانكون مغالين إذا قلنا انه قد فاق صاحبه وفضله فى نواحٍ كثيرة لأنه هنا إنما يعبر بحق عن إحساسٍ فياض ويترجم عن عاطفة متقدة ويصور لنا شعوراً صادقاً نحو وطنه ومستقر أهله وعشيرته إن لم يَسْمُ على شعور أبى عبادة نحو كسرى وإيوانه فانه لايقل عنه قوة وأسراً ولا يتردد شوقى فى أن يصرح لنا بذلك فيقول :

وعظ البحترى إيوان كسرى وشفتنى القصور من عبدشمس

وقد تمتاز سينية شوقى إلى جانب ما تقدم بحسن السبك ومجانبة الاغراب وانسجام الألفاظ وسهولتها ويندر أن تعثر فيها بأ كملها على مثل قول البحترى يصف الايوان:

مغلق بابه على جبل القبق إلى دارتى خلاطٍ ومكس

حلل لم تكن كاطلال سعدى فى قفار من البسابس ملس

وقد حملت هذه القصيدة بين طياتها كثيراً من المعانى الخالدة التى لم يسبق إليها الشاعر وضمنها غير قليل من الحكم البالغة والأمثال الرائعة والأجزاء التى تصدى لوصفها من وادى النيل قد أزرى فيها بايوان كسرى وواصفيه ـ وتأمل حسن التعليل وروعة التصوير فى قوله يصف الجيزة :

وأرى الجيزة الحزينة ثكلى لم تفق بعدُ من مناحة رمسى

أكثرت ضجة السَّواقى عليه وسؤال اليراع عنهُ بهمس

وقيام النخيل ضفرن شعراً وتجردن غير طوق وسلس

ثم انظر إلى هذا الثوب الجميل الذى خلعه على الجزيرة وموقعها من النيل حيث يقول

هى بلقيسُ فى الخمائل صرحٌ من عبابٍ وصاحب غير نكسِ

حسبُها أن تكون للنيّل عرساً قلبها لم يجنّ يوماً بعرسِ

لبستْ بالأصيل حلةَ وشيٍ بين صنعاء فى الثياب وقسّ

قدَّها النيلُ فاستحت فتوارت منه بالجسْر بين عُرْى ولُبسِ

وهذا البيت الاخير له من نفسى مكانة خاصة، وما مررت به إلا استرعانى ما فيه من جلال وجمال .

وما أشد اعجابى بشوقى وعبقريته إذا رأيته يزفر زفرة الألم على فرقة ذلك الوطن العزيز ويترجم عن حزنه الكامن وحنينه الطافح بتلك الأبيات الخالدة :

يا ابنة اليمّ ما أبوك بخيلٌ ما له مولعاً بمنعى وحبسى ؟

أحرامٌ على بلابله الدَّو حُ ، حلالٌ للطيْر من كل جِنس؟

كلِ دارٍ أحقُّ بالأهل إلا فى خبيث من المذاهب رجس

نفَسى مرجلٌ وقلبى شراع بهما فى الدُّموع سِيرى وأرسى

وإذا انتقلت معه الى حيث يصف قصر الحمراء بعد أن لعبت به يد البلى ومحت جدَّته حادثات الزمان ، رأيت صفاء الفكر ودقة الملاحظة وعرفت كيف كانت منزلة

هذه الاطلال المتداعية والرسوم الدراسة من نفس الشاعر تملى عليه فيكتب وتوحى اليه فيقول :

مشت الحادثات فى غرف الحمـْ راء مشى النَّعى فى دار عُرس
هتكت عزة الحجاب وفضّت سِدّةَ الباب من سمير وأنس
عرصاتٌ تخلت الخيلُ عنها واستراحت من احتراس وعسّ

ثم نراه بعد ذلك يشرف بخياله الفسيح على شبه الجزيرة ويلقى عليها نظرةً جامعة تصور لك صفاء سمائها واخضرار أرضها وجمال رباها،ويقف منها فى النهاية موقف المتواضع المعترف بالجميل ويناجيها قائلا :

يا دياراً نزلت كالخلد ظلاّ وجنى دانياً وسلسال أنس
محسنات الفصول لا ناجرٌ فيـ ـها بقيظٍ ولا جمادى بقرْس
لا تحس العيون فوق رباها غير حور حوٍّ المرشف لُعس
كسيتْ أفرخى بظلك ريشاً ونما فى رباك واشتد غرسى

ثم يختتم قصيدته بتلك الحكمة الخالدة :

وإذا فاتك التفاتٌ الى المـا ضى فقد غاب عنك وجه التأسّى

حينما يختتم البحترى قصيدته بهذا البيت الغريب الذى لا يشعر بالانتهاء فيقول :

وأرانى من بعدُ أكلف بالاشرا ف طراً من كل سنخٍ وأنس

تلك إلمامة وجيزة عن هذه الفرائد الثلاث التى هى فيما نعتقد من أروع ما جادت به قريحة شوقى : تلمح فيها التحبير والتأنق فى تخير الالفاظ واصطفاء المعانى — ولا نستطيع أن نقول اننا بهذه النظرة الخاطفة قد استوعبناها دراسة وتحليلا ، فذلك ما لا يسمح به فراغنا وفراغ هذه الصفحات كما أسلفنا، ولا يزال كل بيت من أبياتها كنزاً مملوءاً بالنفائس من أية ناحية أتيته عثرت فيه على جديد وسنفرد فى المستقبل لكل واحدة من هذه القصائد فصلا خاصاً نتناولها فيه بالتحليل والتمحيص ونقف القارىء على ما لا نستطيع وقوفه عليه فى هذه العجالة .

ونعتقد أن شعر شوقى فى مجموعه ثروة عقلية لا يستطيع النشء الانتفاع بها إلا إذا درسها الادباء والمحققون دراسة تجلى غامضها وترشد الى مواضع الجمال منها ، ولا عجب فقد تهيأ لصاحبها من الثقافة العالمية والتهذيب الفكرى والنبوغ الشخصى ما يندر اجتماعه لغيره وسيظل هذا الميراث الذى قدر لمصر أن تحتويه خالداً

ملحوظ المكانة لا يقل روعة وجلالا عما حملته الينا صحائف التاريخ من تراث الشعراء فى مختلف العصور .

ولئن كان مصاب الشرق فيه عظيما وخطب مصر فيه أليما فلهما فى هذا التراث الخالد عزاء وسلوان ما ؟

طه محمد عبده



استعداد شوقى

لعلنا لا نغلو اذا قلنا إنه لم يتهيأ لشاعر أىّ شاعر من البيئات المكونة والعوامل المواتية ما تهيأ لشوقى فى اخراج شاعريته وانضاج عبقريته : فقد نشأ فى بحبوحة من العيش الوارف الظلال ، البعيد ما بين جنبات النعيم ، فشبّ وترعرع تحوطه النعمة السابغة وتحدوه السعادة الكاملة وتلحظه عناية بيت اسماعيل ، وما أدراك ما بيت اسماعيل . فكان من هذه الناحية على ما كان عليه ابن المعتز الشاعر الخليفة من بنى العباس ، ولهذا من الأثر فى توسيع ميدان الشعر وتمديد متناول الوصف ما يجعل الشاعر طائر الخيال ساحر البيان . وهذا ما كان عليه فقيدنا العزيز فقد تفجر فيه الشعر عن نبع فياض مكث يفيض على الشعب العربى نصف قرن كامل نميراً صافياً وسلسبيلاً جارياً ، وكلما نهل منه وعلّ اشتد ظمؤه والتهب أواره ، فلله أنت يا شوقى ولك الله أيها الشعب الحزين !

من عادة الشعراء أن يكون لكلّ هوًى يحسن أن يقول فيه . فاذا ما قصد الى غيره بان نقصه وضعفت شاعريته ، ولكن شاء الله جلت قدرته أن يركب شوقى على غير ما ركب الشعراء فلم يجعل له نفساً واحدة كما جعل لكل شاعر ، وانما أودع بين جنبيه نفوساً لكل غرض من الشعر نفس اذا أراد حملها فبلغ بها ما يريد وفوق الذى يريد ، أو هو جعل له نفساً واحدة ولكنها ذات اصباغ وألوان وذات قدرة معجزة على التشكل بما يطلب من أشكال : فهى كالماء الصافى يتلون بتلون الاناء ، أو هى كالعجينة المرنة تطيع المصور لها أنى شاء . ولست أرى لذلك فى شوقى من مصدر بعد الذى ذكرت من سعة الخيال إلا وفاءه لكل ذى صلة به وفاء ليس يعدله وفاء .

نعم وفى شوقى لكل ذى صلة به ، وكلما كانت الصلة عامة اشتد تأثيرها فيه على عكس المعروف فى طبيعة الانسان ، حتى أصبح كالسلك الكهربائى يتموج لأدنى اهتزاز فترى لتموجاته من الاثر البالغ مايحرك سواكن الأشياء ويبدد غياهب الظلماء فاذا الناس فى دهشة منه مأخوذون ! وفى شوقى للطبيعة فى جميع مظاهرها فوصفها فى جميع أثوابها . ووفى لنفسه فأعطاها حقها وحفظ لها حريتها وقدسها . ووفى لاسرته فكان الحاكم بغيرصولجان المطاع المحبب الى كل جنان . ووفى لاصدقائه فكان لأصغرهم الأب الشفيق ولوسطهم الأخ الشقيق ولأكبرهم الابن الحقيق . ووفى لبيت اسماعيل فصاغ له من حبات قلبه ماصاغ وأبدع فى ذلك ما شاء له الابداع . ووفى لمصر أم الجميع فكان قيثارتها المرتلة لبشائر أفراحها فى غير بطر ولا أشر المرددة لألحان أتراحها فى غير يأس ولا ضجر منذ كانت مصر والتاريخ لم يكن الى ان اختاره الله لجواره كان الله له وأحسن عزاءنا فيه .

ولقد أبى وفاؤه رحمه الله أن يقف به عند هذا الوطن الخاص فتعداه الى غيره من أوطان ذات ضروب وانسان . تعداه الى الوطن العربى لحمل لواء لغته وآخى شعوبه فكان السبّاق الى حيث لم تقف به غاية ولم تحد منه نهاية ، والى الوطن الاسلامى فأرسل فى روحية الاسلام وفى صاحب دعوته من رصين الشعر ما علا به الى السماء حتى جاوز الجوزاء . ثم الى الوطن التركى العثمانى معقد الخلافة ومشرق التاج فربط بينه وبين كل ماتقدم من أوطان رباطاً وثيقاً ليس فى مقدور غيره من انسان . بل الى العالم جميعه فيما تدعو اليه الأديان وتريده قضية السلام والوئام فكان رسول الانسانية الصادق التعبير وداعية الأخلاق الشديدة التأثير ، وبهذا الاستعداد وهذه المواهب وهذا الاتجاه خلق شوقى لذكره مكانة الخلود ؟

السباعى السباعى



أين شوقي من الوطنية

ان الفجيعة فى أمير الشعراء حملتنى المساهمة فى تكريم تلك العبقرية الفـذة وتخليد ذكر صاحبها العظيم بالكشف عن ناحية من نواحيها المتفرقة .

وبعد لأى أخذتُ الناحية الوطنية فى تلك الروح العالية . وقبل الخوض فيها هل لك ياعزيزى القارىء أن تصاحبنى فى الطواف بها لا على أن تـكون كفتى موسى بل نتبادل الرأى ونتعاون على الفهم ونغلق وراءنا كل باب نلجه إلى أن نصل إلى قرار أقرك وتقرنى عليه ؟ أظنك لا تمانع . وقبل كل شىء رأيت التحقق من ماهية الوطنية، وإنى أرى وترى معى أن الرأى الذى يصفها بشعور خفى يحمل الفرد دائماً على خدمة وطنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا هو أقرب الأقوال لتفهم ماهيتها . إذنْ فلنمسك بتلابيبه ونطبقه على الراحل الكريم لنعرف إلى أى مدى وصل فى ذلك المنحى . ولما كانت الوطنية وليدة للوطن أخذت أبحث عن التحديد العلمى له فوجدت أن صاحبنا شذّ عن ذلك التحديد وكوّن لشخصيته الجبارة وطنين أحدهما خاص به وهو مصر وثانيهما عام وهو البقاع التى يقطنها الناطقون بالضاد .

من أجل ذلك وجهت دفة القلم ناحية وطنيته المنبعثة من وطنه الخاص تاركاً قسمها الآخر لأعلام الأدب لاخراجها بما يلائمها من روعة وجلال إذ هم أجدر الخلق بتصويرها . ولا اخالك أيها القارىء تخالفنى فى ذلك .

نفى أمير الشعر فأحسّ بروعة النفى وشُتت فى بلاد نائية عن الآل والصحب والولد فلمس لوعة النأى . أتدرى لماذا نفى ولأى أمر شرد ؟ لأن له وطنية ضايقت المستعمرين وتحققوا خطرها على مركزهم فى مصر . من أجل ذلك كتب عليـه النفى وسجل عليه التشريد فقاوم ما فيهما من روعة ولوعة برباطة جأش وصبر جميل بالرغم من انتقام العدو وتحكم الخصم وابتسام الشامت . يا لله ما سبب هذا البلاء ؟ وطنية صادقة وعاطفة نبيلة تحت تأثيرها تام بما تشاهده معى فى هذه الأبيات من غرسه حب الوطن فى نفوس الشعب وافتدائه بالغالى والنفيس بل ذهب إلى جعله ديناً للأحرار :

لنا وطنٌ بأنفسنا نقيه وبالدنيا العريضةِ نفتديهِ !

لا تلوموها ! أليست حرة وهوى الأوطان للأحراردين؟

ثم اسمع اليه يحن إلى وطنه حنيناً ليس له مثيل فيما سبقه :

وطنى لو شُغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى !

وهفا بالفؤاد فى سلسبيلٍ ظمأ للسواد من عين شمس

شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعةً ولم يخل حسى

ثم لاحظ معى تجسم هذا الحب فى قوله :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا

ولو أنى دعيت لكنت دينى عليه أقابل الحتم المجابا

أدير اليك قبل البيت وجهى اذا فهت الشهادة والمتابا

انى أحب وإن شقيت به وطنى وأوثره على الخلدِ

لعلك تقرنى أيها السيد على أن هذا أولى خدماته لوطنه . ثم تعال ننتحى ناحية غير هذه تجد أن شوقى رأى أن حياة الجماعات لا تكون قويمة الا اذا كان أساسها العلم فدعا اليه وطالب به بقوله :

ربوا على الانصاف فتيان الحمى تجدوهمو كهف الحقوق كهولا

فربّ صغير قوم علموه سما وحمى المسومة العرابا

وكان لقومه نفعاً وفخراً ولو تركوه كان اذاً وعابا

فعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتى يحدث العجب العجابا

ثم أصغ اليه فى خطاب المتطلعين إلى المعالى :

ياطالباً لمعالى الملك مجتهداً خذها من العلم أو خذها من المال

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يُبن ملكٌ على جهل واقلال

ولم يغمط المرأة التى يصفها بحجر الأساس فى الأسرة وقواعد المجتمع وأركانه منذ قام الى يوم ينفض حقَّها من التعليم بل أوجب تعلميها ضارباً أحسن الأمثال برسول الله عليه السلام وبنسائه الشريفات:

هـذا رسـول الله لم ينقص حقـوق الأمهات

العلم كان شريعة لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسياسة والشؤون الأخريات

ولم يسكت على ذلك بل وخم عاقبة جهلها :

وإذا النساء نشأن فى أمية رضع الرجال جهالة وخمولا

ثم اتجه ناحية الشباب مخاطباً دماءهم الحارة عن أهمية العلم لمطامحهم ومركزه من أمتهم :

هل علمتم أمة فى جهلها ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها إنما السائل من لون الاناء
فخذوا العلم على أعلامه واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرأوا تاريخكم واحتفظوا بفصيح جاءكم من فصحاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما خلقت نصرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فان هى ضاقت فاطلبوه فى السماء !

ثم ختم بنتائج الجهل وشؤمه على الامم :

الجهل لا تحيا عليه جماعة كيف الحياة على يدى عزريلا

بذلك نخرج من هذا الباب بسلام مقرين تلك الخدمة أيضاً ثم لنبحث عن باب آخر نلجه : نرى أن شوقى لاحظ أن لا أمة بلا خلق :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وبدونها لا مدنية ولا حضارة .

وليس بعامر بنيان قوم اذا أخلاقهم كانت خرابا
وإذا ما أصاب بنيان قوم وهى خلق فانه دهى اس

ثم اتجه ناحية العمال مخاطباً بلغة المعلم الحكيم :

أيها العمال افنوا العمر كداً واكتسابا
واعمروا الارض فلولا سعيكم أمست يبابا
اتقنوا يحببكم الله ويرفعكم جنابا
واهجروا الخمر تطيعوا الله او ترضوا الكتابا
انها رجس فطوبى لامرىء كف وتابا
ترعش الايدى ، ومن يرعش من الصناع خابا

ثم قال مشيداً بالطموح :

شباب قُنَّعٌ لا خير فيهم وبورك فى الشباب الطامحينا

ثم تجهم مظهر بساطة الحياة ووجوب العمل :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانِ

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثانِ

بعد ذلك الوعيد حبب اليهم الحياة لانها سلم الخلود :

ومن سرّه ألا يموت فبالعلا خلد الرجال وبالفعال النابه

ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه

ثم يزيد فى الترغيب :

وروموا النبوغ فمن ناله تلقى من الحظ أسنى التحف

إمرة النـاس همـة لا تأتى لجبـان ولا تسنى لجبس

ألا ترى معى أن شوقى قام بقسطه فى حمل لواء النهضة المصرية كشاعر قومى ؟ لقد استنهض الأمة وأرشدها الى صلاحها وشجع شبانها وبث فيهم روح النشاط وقوى من قوائمهم وحثهم على الرقى ورفعة الوطن . أظنك أسبق منى فى الايمان بما آمنت . إذن لنجعل خاتمة المطاف ما قام به شخصيا لاعلاء شأن وطنه لأنى أشعر بسحابة من النصب كادت تقاربك أيها الصاحب العزيز .

إن تلك العاطفة المتأججة فى نفس شوقى خلقت منه بطلا شجاعاً جالد أترابه الشعراء ونازل لداته إخوان القوافى الى أن حملهم على مبايعته بالامارة فى ملأ من الناس قال فيه منافسه « شاعر النيل » :

أمـير القوافى قد أتيت مبايعاً وهذى جموع الشعر قد بايعت معى

وبذلك وضع تاج إمارة الشعر على هامة وطنه الذى يحبه ويتعشقه كما عرفت مستولياً عليه-وسالباً إياه من موطنه الذى ظهر ونبغ وعاش فيه. والى هنا ياسيدى القارىء الـكريم لا أستطيع حبس عبرة تترقرق فى مآقىّ فاسمح لى بذرفها على رجل هذا شأنه وعز عليه أن يترك ذلك التاج دون هيل وهيلمان فاتجه الى المسرح وأنشأ له الروايات المعروفه ولم ينس فن الغناء فقـام بترقيته بما تسمعه من الموسيقار الفنان محمد عبد الوهاب . بذلك تم له ما أراد وترك وراءه تاجاً مرصعاً بأنفس اللآلىء الفنية . فرحمتك اللهم بهذا الراقد فى مهد الأبد ؟

محمد على فرج الله

المراثى الشعرية

نماذج مختارة

(وسنتبعها فى العدد القادم بغيرها مما أتحفنا به حضرات الشعراء)
وضاق عنه نطاق هذا العدد

الصبح الداجى

سبق الصباحُ إلى المغيب مبكراً — مَنْ ذا رأى شمساً تغيبُ صباحا؟!
يا يومَ (شوقى) قد عصفتَ بروضةٍ — وسلبتَ مصرَ الهاتفَ الصدّاحا
غادرتَ أقلام البيان هوامداً — وتركت ألسنة الدّموعِ فصاحا
وحجبتَ روحاً كان مشرق نورها — بسنا المعالى يَبعثُ الأرواحا
من كان لا يَنْسَى بفقدِكَ صبره — نسىَ السُّرورَ وودّع الأفراحا

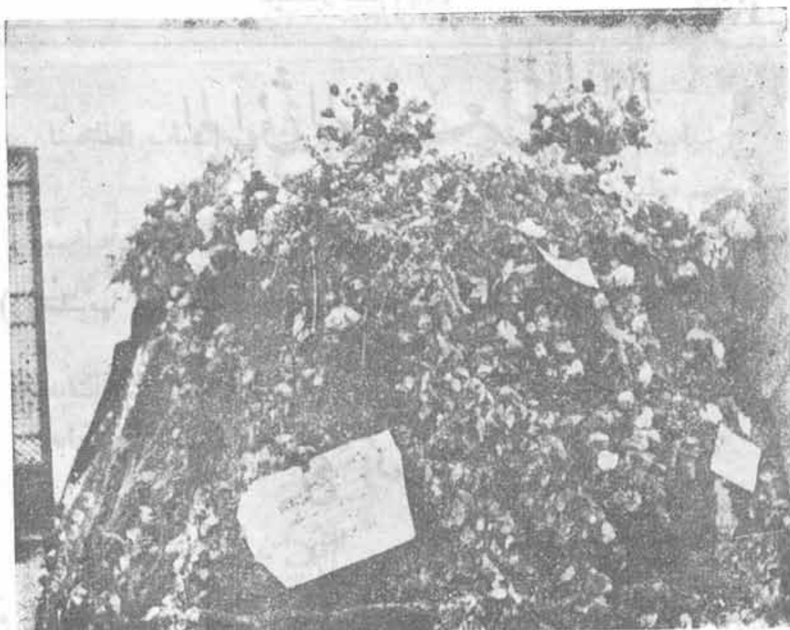
الصاوى على شعلان

قبر العبقرية

(أُلقيت عند ضريح الفقيد فى الجمعة الأولى لوفاته)

طُوفُوا بقبرِ العبقرية وانشقوا — أرَجَ الخُلودِ الساطعِ الفوّاحِ
طوفُوا به وتنسَّموا مِنْ رُوحهِ — ما كان مِنْ نُبْلٍ به وسماحِ
يَثْوى هنا (شوقى) الذى لو يُفْتَدى — لفداه خيرُ الناسِ بالأرواحِ
يَثْوى هنا (شوقى) العظيمُ فيا له — قبرٌ حوَى جيلاً من الاصلاحِ
(شوقى) يزاملكَ الخلودُ بنوره — والذكرُ كلَّ عشيةٍ وصَباحِ
نمْ فى جوارِ اللهِ، يحمدْك السَّرى — وانزلْ من الجنّاتِ خيرَ جناحِ
سيظلّ اسمُكَ للبيانِ كأنه — فى جبهةِ الأيامِ نجمٌ ضاحِ

محمود ابو الوفا



﴿ قبر شوقى ﴾

يامؤنسَ القبر حينَ القبرُ موحشُنَا ومَنْ يُرامُ برغم الموتِ ايناسُهْ
كنا نبادلُه الاحساسَ فى طرَبٍ واليومَ احساسُنَا فى الموتِ احساسُهْ

ابوشادى



(الشعراء والأدباء عند قبر شوقى فى الجمعة الأولى لوفاته)

وقفة على قبر شوقى

(ألقيت فى اجتماع الأدباء والشعراء يوم الجمعة الأولى لوفاته)

أسرةُ الشعر وحرّاسُ الأدبْ ... قدموا اليوم ليقضوا ما يجب
كلّلوا الشعر بريحان الرُّبى ... وسقوْه بدموعٍ وحَدَبْ
فانفضْ التربَ وأنشِدْهم كما ... عهدوا لحناً على السمع عَذُبْ
أوْ صِفْ الخلدَ لهم وصفَ امرىء ... لم يخالطْ قولَه يوماً كَذِبْ
قد عمرتَ الدهرَ حيناً ، أفهلْ ... آنَ أن تعمرَ ذا الربعَ الخرِبْ ؟
كنت للأحياءِ فخراً ، أفهلْ ... آنَ أن يفخر سكانُ التُّرُبْ ؟
غلب الموتُ شجاعاً طالما ... صارعَ الدهر وحيداً فغلبْ
ليس فى الموت عجيبٌ ، إنما ... غفلةُ الناس عن الموت العجبْ !
غرباءٌ نحن فى الدنيا ، ولا ... بدَّ يوماً أن يؤوب المغتربْ
أيها القبر أتعلمُ آن فيـــك رفاتاً هو ميراثُ العربْ
فيكَ يا قبرُ أمانٍ طالما ... سهر الجيلُ عليها وتعبْ
فيكَ ياقبرُ دفينٌ خالد ... كان بالأمس الى المجد يثبْ
فيكَ ياقبرُ أنيسٌ ساحرٌ ... فكِهُ المحضرِ بسّامٌ طرِبْ
فيكَ فخرُ النّيل يا قبرُ فته ... وافخرْ اليومَ على الدنيا وطِبْ !

* * *

مستنيرُ الشهبِ فى الأفق خبَا ... ومعينُ الضادِ فى التربِ نضُبْ
طالما رُوِّيَ منه ظامىء ... طاف فى الأرض وأعياه النصبْ

* * *

إيه ياشوقى وقد كنت لنا ... خيرَ عونٍ فى فجيعات النُّوَبْ
ترسل القولَ وفى طياته ... سلوةُ الباكى وأنس المكتئبْ
جلَّ فيك الرزء حتى مانعى ... أىَّ قولٍ كان فى الرزء يجبْ !

شَغل الشاعرَ عن نظم الرِّثا ... وثنى الكاتب عن نسج الخُطبْ
ليتَ ناعيك تخطّاك إلى ... عشراتٍ من جرائيم الأدَبْ!
زبدُ الناس على الدَّهر ثوى ... وأرى ما ينفع الناسَ ذهَبْ!
هكذا الدهر وهذا شأنه ... كلُّ ما فيه مثيرٌ للعجبْ!

طلبه محمد عبده

◆◆◆◆◆

هبة السماء

راحوا بأرواح ظِماءْ ... يتهافتون على الفناءْ
جفّتْ حلوقٌ بعدهم ... لم تلقَ دونهمُ رَوَاءْ
واهاً لكأس كالخلود ... ومنهلٍ فيه الشفاءْ
كنّا اذا ضَجَّ الفؤادُ ... وضاقَ بالدُّنيا وناءْ
نَمْضى اليهِ فنستقى ... ونعُبُّ منه كما نشاءْ
فاليومَ إذْ شَطَّ المزارُ ... بكمْ وقد عزَّ اللقاءْ
وَبَخَلْتُمُ بُخْلَ الضَّنينِ ... فَحَسْبُنَا قَطَراتُ ماءْ!

***

أين الأمينُ على الامارةِ ... والحريصُ على اللّواءْ؟!
قبَسٌ أضاء العالمين ... كما تُضىءُ لهمْ ذُكاءْ
ثم اختفى خلفَ الغُيوبِ ... مخلِّفاً ظُلَمَ المَسَاءْ
فكأنما هبةُ السماء ... قد استردَّتها السَّماءْ!

***

جَزَعُ الرِّياضِ لطائرٍ ... غنَّى فأبدعَ فى الغناءْ
حتى اذا خلَبَ العقولَ ... وقيل سِحْرٌ لا مِراءْ!
ولَّى عن الايكِ الفخور ... به الى عَرْضِ الفضاءْ
فكأنه والسُّحْبُ تَطويهِ ... فيمعنُ فى الخفَاءْ
دُنْيَا من الأمَلِ الجميلِ ... قد استبدَّ بها العَفاءْ!
ووراءها شفقٌ مِن الذكْرى ... كجرحٍ ذى دِماءْ!

وتسائلُ الدُّنيا التى ناطتْ به كلَّ الرَّجاءْ
عن أىِّ سرٍّ طارَ عنْ هذى الرُّبى وعلامَ جاءْ ؟!
قُمْ يا فقيدَ الشِّعرِ وانْـ ـظرْ أىَّ حفلٍ للرثاءْ!
أممٌ يُصبِّرُ بعضُها بعضاً ، وَهيهاتَ العزاءْ!
هـذى الجموع الباكياتُ الساخطاتُ على القضـاءْ
قاسمتها أشجانَهـا ووفيتَ ما شاءَ الوفاءْ
أوَلمْ تجدْكَ لسانها الـ ـشاكى إذا احتدمَ البَلاءْ ؟
أوَلمْ تكنْ غِرِّيدَها ونديمَها عنـد الصَّفاءْ ؟
لِمَ لا تُوفِّيكَ الجميلَ وتستقلُّ لك الفِداءْ ؟!

* * *

ومُنعَّم بين القصـورِ قد استتمَّ له الثَّراءْ
ما بالُهُ حملَ الهمومَ وجشَّم القلبَ العناءْ ؟!
وينوءُ بالعبءِ الذى هو عن أذاه فى غَناءْ!
ويحَ الذكاءِ وما يكلـ ـفُهُ من الثمنِ الذَّكاءْ!
أضنَى قواه ولم يدعْ من جسمهِ الا ذماءْ
والمجدُ يُوغِـل فى حنا يا روحهِ ، والمجدُ داءْ!

* * *

صَرحٌ من الادب الصميمِ له على الدنيا البقـاءْ
الدَّهرُ يحمى ركنَـه والفنُّ فى روح البناءْ

* * *

(شوقى)! على رغم التفرّدِ والتفـوّقِ والعـلاءْ
ذاكَ الرقادُ بساحةٍ كلّ الرجال بهـا سواءْ
وبرغم ذهنٍ كالفراشةِ حـولَ مصباحٍ أضـاءْ
مثواك لا تشكو السكونَ ولا تملّ من الثـواءْ

ابراهيم ناجى

رثاء الموسيقيين

فى اربعين شـــوقى

(بمسرح حديقة الازبكية)

رُفع الستار عن منظومة كبيرة من الموسيقيين والمغنين يتوسطهم الموسيقار الفنان محمد عبد الوهاب ، واهتزت الأوتار جميعاً بنغم حنون من (الصبا) الشجيّ الحزين الراسى الى قراره ، واذا بصوت عبد الوهاب ينشج ويتهدّج بقوله :

حطّموا الاقـــداحْ مثلَ ما حطَّمتْ حُزناً قدَحِى !
ودّعـوا الافـــراحْ طُوِىَ اليومَ بساطُ الفـرَحِ !

« • »

ماتَ خيرُ الشعراءْ فابكِ يا قَلْبى! فذاوقتُ البكاءْ!

« • »

خلدوا ذكراهُ فى كلّ القلوبْ — خلّدوها !
مجّدوا ذكراهُ شباناً وشيبْ — مجّدوها !

« • »

عاش كالزهرةِ عِطراً ونَدَا وكسا الفنّ جلالاً خالدَا
لن تردّوا بعضَ ما أسدا كمُ أبداً ، مهما فعلتمْ أبدَا
انّ دمعى يتكلمْ ! فاسمعونى ! انّ قلبى يتحطمْ ! فاعـذرونى !

« • »

مات خـيرُ الشعراءْ فابكِ يا قلبى! فذا وقتُ البكاءْ!

وسمع الحاضرون ما يقول عبد الوهاب والقلوب تنافس الاسماعَ وعياً وتأثراً . وأسدل الستر وانصرف الحضور يجدِّد بعضهم لبعض العزاء إن استطيع ، وتمت حفلة الفنانين بذكرى من غذَّى الفنّ وأرضاه .

﴿ تعليقات سعادة احمد زكى باشا ﴾

لقد اختصّ الله أمير الشعراء بسعادات وتوفيقات قد شرحنا بعضها فى مقام آخر (ص٣٨١) ولكن اجلالى لهذه المجلة جعلنى استجيب طلب ولدى النجيب وسميّى الأبوع فى كتابة هذا الفصل لمجلته المحبوبة . وكلامى هنا مقصور على الناحية الفنية بالمعنى الحديث ، على اننى لاأريد التبسط فيما نفح به الأغانى القومية والموسيقى الشرقية ثم المسرح العربى . كل اولئك قد أفاض عليه روحاً يماشى عصرنا الذى نعيش فيه ، ولكن مع ربط التطور الحديث بما كان للغة من فخر قديم وللعروبة من مجد تليد .

فعلى غيرى أن يتحدث عن هذا الروح السارى فى هالة من الانوار .

أما الآية التى جاء بها شوقى للشرق وللفن فى حالة وجوده ، والتى ما يزال ينفخ فيها الحياة بعد وفاته ، فهى الناطقة ببرهان الالحان ، الماثلة للعيان بألوان الأنغام فى شخص محمد عبد الوهاب .

نظر شوقى بنور الله الى النبوغ الكامن فى حنجرة هذا المراهق الناشىء ، فاستخلصه لنفسه ، وقربه من صحبه ، ثم افاض عليه سجال الثروة حساً ومعنى ، ونفث فى فيه سحر الشعر ، وصاغ لفنه جواهر القول ، حتى طلع علينا بذاك الصوت الباهر الساحر ، وأصبح وله ذياك الصيت النادر الطائر . فكان عبد الوهاب وتبارك الله ! وكان له يد فى تهذيب الرنين الموسيقىّ فى تلك النفحات الشوقية . فكأن شأنهما معاً فى هذا المجال ـ وفى هذا المجال وحده ـ كالبحر يمطره السحاب .

وبهذه المناسبة أرى التنويه بحادث شهدته منذ بضعة أيام وفيه البرهان على أن عرفان الجميل من مكارم الأخلاق .

نال شوقى وهو يدبّ على ظهر الارض كلّ ما يتمنى من سعادات مادية وأدبية وكان من احسان الله اليه أن الشرق كله قام وقعد عند ما نعاه الناعى . وما زالت الجرائد والمجلات — حتى الاعجمية — تعرب عن فضائله الى اليوم ، وستتحدث الى ما بعد اليوم بزمان طويل عن أمير الشعراء .

وتلك سعادة لم يظفر بها أسعد السعداء . هذه امصار الشرق قد تسابقت الى تكريم ذكراه فى سلسلة من حفلات التأبين ، بل اننا فى المصر الواحد وفى القاهرة بنوع التخصيص رأينا القوم يتنافسون فى اقامة حفلات متوازية ومتوالية . وما أكتم

ولد سنة ١٨٦٨
دخل مكتب الشيخ صالح
سنة ١٨٧٣
خرج من المدرسة الخديوية
ودخل مدرسة الحقوق
سنة ١٨٨٥



سافر الى اوروبا لتتمة الدراسة
سنة ١٨٨٧
عاد الى مصر من اوروبا
سنة ١٨٩١
نفى الى اسبانيا سنة ١٩١٥
عاد الى مصر من منفاه
فى خريف سنة ١٩١٩

﴿ شوقى فى صباه ﴾

الشخصية الشعريه المحبوبة التى كان يتهافت عليها الاقران حينئذٍ
وقد كان الفقيد مشغوفاً بالموسيقي والشعر منذ نعومة أظفاره



﴿ شوقى وصفيه الموسيقار الفنان محمد عبد الوهاب ﴾
ورأينا ان شوقى وُلد ليكون موسيقاراً فصار شاعراً ألحانه نظمه

الحق فان اكثرها يرمى الى نوع من طلب الشهرة والتهريج ، أو الى لون من ألو
الإستغلال والترويج ، والاقل من القليل من هذه الحفلات خالص لله وللفن والعبقر

ومن طراز هـذا النزر اليسير ، تلك الحفلة التى اقامها عبد الوهاب ، بل ع
الاحسان ، بل سيد العارفين بالجميل .

ففيها تمثل الوفاء بما ترضاه محامد الأخلاق ، وفيها رأيتُ العجبَ العجابَ !

هل أتاكم حديث آلات الطرب : ان الأوتار المشدودة والمعادن المطروقة والمسبو
والمصبوبة والعيدان المنشورة والمربوطة والمشقوقة ، كانت كلها فى اتساق واتزان
وفى تناسب وتجانس ، وهنذام تترنم ... ثم تتكلم ... ثم تترحَّم ! وبين الآهات
والنبرات زفير يترجم عن الأنين ، الى شهيق يعبر عن البكاء الذى يبعث البكاء
ولكن ... كانت الابصار شاخصة ، والقلوب واجفة ، والألسن منعقدة ، والرؤوس
مطرقة . كل ذلك السكون التام وكل ذلك السكوت العميق لئلا تنفر الملائكة التى
تنزلت من سماوات العلا واستقرت كأنها الطير على تلك الرؤوس ! فلم تكن تسم
للقوم رجزاً ولا همساً ، ولا تكاد تصدق ان فيهم حركة أو حساً . . . الى ان انتهى
التلحين الحزين ، ومن العجب العاجب ان انساناً واحداً لم يسمح لنفسه بالتصدي
والتصفيق ! فقد تمادى الناس على حبس الايدى والانفاس خوفاً من التشويش على
ما بقى من اثر ذلك الترتيل فى التسبيح الذى انزله الله على قلوب من جنات الفراديس

هذه الظاهرة الفريدة فى بابها جعلتنى استغرق فى الذكرى وارجع الى التاريخ
الاسلامى فرأيت فيه حادثتين يشبهانها وإن كانت هى اكثر روعة منهما : احداهما فى
عهد الامويين والثانية فى عهد العباسيين ، وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه .

وقعت الأولى فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك والثانية فى أيام هارون الرشيد .

كان الخليفة الاموى قد عهد الى معبد امام المغنين فى عصره بأن يلقن الالحان
والانغام الى جاريته المشهورة وهى سلامة القس . وكان الاستاذ وتلميذته فى عسكر
الوليد (أخى الخليفة) ، وهناك وافاه الحمام فتكفل الوليد بحفلة الجنازة حتى اذا حمل
القوم سرير الجنازة على الأعناق ، خرجت الجارية من خدرها وقبضت على السرير
بيدها وأخذت تبكى وهى تنشد آخر شعر علمه لها باللحن الذى تلقته عنه وهو قول
الأحوص :

قد لعمرى بتّ ليلى كأخى الداء الوجيعِ
ونجىّ الهمّ من بات أدنى من ضجيعِ
كلما ابصرتُ ربعاً خالياً فاضت دموعى
قد خلا من سيد كا ن لنا غير مطيعِ
لا تلمنـــــا إن خشعنا اوهممنـــــا بالنشوعِ

فانصرف الناس عن النظر اليها واضربوا عن الاهتمام بأخى الخليفة وهو قائد العسكر الأعلى ـ (عن الاغانى) .

أما الحادثة التى وقعت فى أيام الرشيد فخلاصتها ان الشاعر ابن مناذر مات له صديق هو عبد المجيد بن عبد الوهاب . وكان عبد الوهاب هذا محدثاً جليلا ، فقـال الشاعر يرثيه بقوله :

لأُقيمنّ مأتماً كنجوم اللــيل زهراً يلطمن حرَّ الخدود
موجعات يبكين للكبد الحـ رى عليه للفؤاد العميد

فلما بلغ هـذا الشعر امّ المتوفى قالت وانى لأبرنّ بقسمه ! فأقامت مع اخوانه وجواريه مأتما وقامت تصيح فيه : « واى ويه،واى ويه » ! فكانت على ماقيل اول من أحدث ذلك « الصوات » فى دولة الآلام . ولكن الشاعر ابن مناذر رأى ان ذلك النواح غير مستقيم فى الوزن واللحن فقال لصاحب له : لا أرى نسـاء ثقيف ينحن على عبدالمجيدعلى استواء (أى فى النغم) . قال له صاحبه : وما تحب ؟ قال أتخرج معى اطارحك ؟

وفى الخلاء تطارحا القصيدة ، التى نظمها فى رثاء عبد المجيد حتى حفظها صاحبه ثم وضعا لها لحناً .

فلما جاء ميعاد المناجة خرجا الى المسجد وبعد تأدية الفريضة وقفا تحت دار المأتم وكان النساء على سطحها يندبن ، حتى اذا جاء ميعاد الراحـة لزمن السكوت فحينئـذ اندفع ابن مناذر وصاحبه فى تلحين القصيدة ومنها :

كلّ حى لاقى الحمـــام فمود ما لحىٍّ مؤمَّلٍ من خلود
لا تهـاب المنون شيئاً ولا تبـــقى على والد ولا مولود
ان عبد المجيـــد يوم تولّى هدَّ ركنا ما كان بالمهدود
هدَّ عبد المجيد ركنى وقد كنت بركن انوء منه شديد
مادرى نعشُه ولا حاملوه ما على النَّعشِ من عفافٍ وجود

الى شاعر الخلود

ناحت عليك أبولّو !...

ما أطلعتْ مثلَ (شوقى) أمّـةُ العربِ ... شمسٌ من الشرقِ فوق السبعةِ الشهُبِ
مِنْ جَبهة الفلكِ الوهّاج شعّ هُدًى ... ما زال من قُطُبٍ يمشى إلى قُطُبِ
ضاحى السبيل على (سيناءَ) سُدّتُهُ ... مرصّعُ العرش فى تاجٍ من الذّهبِ
هىَ العروشُ على الأسياف قائمةٌ ... وعرشُ (شوقى) على الأقلام والكتبِ
رفّتْ على هامة (الجوزاء) رايته ... فى موكبٍ كشعاع الفجر ملتهبِ
كرسيّهُ السُحْبُ مثلَ الشهْب نيّرةٌ ... والوحىُ يخفق بين الشّهْبِ والسُحُبِ
سَلِ البلاغةَ كم ألقت مقالدَها ... والعبقريةَ فى مِحْرابِهِ الأشبِ
رُواة أبياته فى كلّ حاضرةٍ ... وجُندُ آياتِهِ فى كل مُغترِبِ
فاضت على ضفّةِ (الوادى) جداولهُ ... فيا لنيلٍ حيال (النيل) منسكبِ
قالت قوافيهِ للأهرام هامسةً : ... كم بيننا فى خلود الذكر من نَسَبِ !
شعرٌ تنزّل عن وحىٍ وعاطفة ... من سِدرة المنتهى مِنْ أرفع القُبَبِ
بَنَى فمكّن حتى صارَ دولتَهُ ... جرى فغبّر حتى فاز بالقصبِ
مشى معَ (المتنبي) فى روائعهِ ... ونال عن (شكسبير) رايةَ الغلبِ
أعاد خيمة (ليلى) فهىَ خافقةٌ ... بقلب (قيس الهوى) مشدودةِ الطنبِ
وهزّ قلبَ (كلوبطرا) وصاحبَها ... كأنّ عهدَها عن مصر لم يغبِ
عصرٌ لشوقى : تساوى فى أوائلهِ ... وفى أواخرهِ ما جاءَ من عجبِ
قال : « انتهيتُ ! » وأنّى ينتهى؟ ولهُ ... مُلكٌ عريضٌ وجاهٌ واسعُ الحسَبِ
فتحٌ مبينٌ وأيّامٌ محجّلةٌ ... والفتحُ بالكتبِ مثل الفتح بالقضُبِ !

* * *

لله يومُكَ والأشجانُ فى صُعُد ... لمّا نُعيتَ وعينُ الشرق فى صَببِ
ناحت عليك(أبولّو)!.. فهىَ ذارفةٌ ... على ترابك دمعَ ابنٍ لفقد أبِ
وصوّحتْ « كرمةُ الإلهام » إذ نضبتْ ... أغصانُها الخُضْرُ من سَلْسالكَ السكبِ
أرى « الخليل» وهولُ الخطبِ روّعهُ ... ترويعَ صَبّ على إلفيهِ [1] منتحب

(١) شوقى وحافظ .

تلفتت نحوهُ الفصحى معزّيةً … هيهاتَ أن يتعزّى قلبُ مكتئبِ
كانوا ثلاثةَ أطيارٍ على فَنَنٍ … نَضْر الأزاهر حَولَ المرتع الخصبِ
فسدّد الدهرُ سهماً من كنانتهِ … على (الكنانةِ) أصمى مهجة العربِ !

* * *

أبا عليّ !.. سقاك الغيثُ عن بلدٍ … طيّبتهُ بشذاً من ذلك الأدبِ
بنتُ البقاع شجاها موتُ نابغةٍ … رنّت قصائدهُ فى السهل والهضبِ
كسوتَها بُردةً كالارز زاهيةً … لا تستبيح حواشيها يدُ النُّوَبِ
سقْياً لعهدك والأيام باسمةٌ … والقوم حولك مثلُ الجحفل اللجبِ
والدهرُ يكتب والاجيال منصتةٌ … والناسُ فى مرح والنهر(1) فى صخبِ
واهاً لها ذكريات كيف أنشرها … وقد طواها قضاءُ الله بالحجُبِ
أتيتُ عن (جارة الوادى) وبى ظمأٌ … ولو إلى نهلة من وِرْدكَ العذبِ
سقيتَها من كؤوس الخلد مترعةً … هيهات تفرغ فى الوادى على الحقب
أغنيّةٌ رجّع الحادى شواردَها … شوقية الروح والانفاسِ والطرَبِ

* * *

يا شاعرَ الخلدِ !.. والدنيا تشيّعهُ … أنشدْ قصيدتك الكبرى على الصُّحُبِ
أذكر لنا ما وراءَ القبر من عِبَرٍ … وابعثْ ضياءَ الهدى من ظلمة التربِ
أسامعٌ أنت خلف الغيب أنّتنا … أم أنت فى ركْبٍ منْ نودِى ولم يجبِ
أسالمٌ ثَمَّ من واشٍ ومنتقد … أعالمٌ ما ستلقى (الضاد) من نَصَبِ
وهل رأيت الالى خلّدت ذكرَهُم … من مالكٍ فاتحٍ أو سيدٍ أربِ
وهل شهدتَ (ندىّ الشعر) محتشداً … وهل جلستَ إلى أترابك النُّجُبِ
تَسقى وتُسقَى على ظلٍّ وحاشيةٍ … من خمرةِ الشعر لا من خمرة العنبِ
قلْ ما تشاء وصفْ واشرح حقائقها … واكشِفْ لنا عن خفايا الشكّ والريبِ

* * *

حنّتْ اليكَ عذارى الخلد واستبقتْ … عرائسُ المجد فى أثوابها القشُبِ
والتاجُ لاح على فودَيْك مؤتلقاً … كالشمس فى موكب الأنوار واللهبِ
كأنّ (صبرى(2)) وحادى الوجد جدّ به … فهبّ يسعى الى لقياك عن كثَبِ

(1) البردونى : نهر زحلة المشهور . (2) شيخ شعراء مصر المرحوم اسماعيل باشا صبرى .

يصيح بالملأ الأعلى : ألا استعموا ... ما قاله (حافظٌ) فى خالد الخطَب :
إن الامارة لم تُسلِسْ أعنّتها ... فى الشرق الا لذاك الشاعر العربى !

حليم دموس



النيل الخالد

عجباً ! أتوحشُنى وأنت إزائى ... وضياء وجهك مالئٌ سَوْدائى ؟!
لكن جرى قَدَرٌ وإنْ أبتِ المُنى ... بنوى أحِبّتِنا لغير لقاء
جرحوا صميمَ القلب حين تحمّلوا ... اللهَ فى جُرحٍ عزيزِ شِفاء
الطيّبُ المحمودُ من عمرى مضى ... والمفتدَى بالروح من خُلصائى
لا بل هما مِنّىَ جَناحا طائر ... رُمِيا ولم يكُ نافعى إخطائى
الصاحبان الأكرمان تولّيا ... فعلامَ بعد الصاحبين بقائى ؟
لم يتركا برداهما غيرَ الأسى ... لأخيهما ما دامَ فى الأحياء
وحِيالىَ الخُلطاء إلا أننى ... متغرّبٌ بالعهد فى خُلَطائى
أيرادُ لى من فضل ما مَجَدا به ... إرثٌ ؟ اذنْ جهلَ الزمانُ وفائى !
إنْ نَحْىَ بالذكرى فلا تبديلَ فى ... صفةٍ ، ولا تغييرَ فى الأسماء
يا صاحبىَّ غدوتُ منذُ نأيتُما ... أجدُ الحياةَ ثقيلةَ الأعباء
لا ليلُ عافيةٍ هجعتُ به ، ولا ... يومٌ نشِطتُ به من الإعياء
انا واحدٌ فى الجازعين عليكما ... وكأنما ذاك البلاء بلائى
فاذا بدا لكما قصورى فاعذرا ... او شفّعا لى مُسْلَفاتِ ولائى

* * *

مَهْلاً أميرَ الشعر غير مدافعٍ ... ومُعِزَّ دولته بغير مِراء
كم أُمّةٍ كانت على قدرِ الهوى ... ترجوكَ ما شاءتْ لطول بَقاء
متمكناً من نفسها إيمانها ... أن لم تكن مِمّنْ حَيُوا لفَناء
فاذا المنايا لم تزلْ حربَ المُنى ... وإذا الرزيئة فوق كل عزاء

فى مصرَ بل فى الشرق منها لوعةٌ … سَدّتْ على السُلوانِ كلَّ فضاء!

أتوى مُوَيجاتِ الأثيرِ كأنها … حَسْرَى بما تُزجى من الانباء؟!

بَعَثَ الشَرارُ بها ثِقالاً لو بدا … ما حُمِّلتْ لبدت نِطافُ دماء!

جَزَعُ الكنانةِ كاد لا يَعدو أسَى … أمَّ القرى ومناحةَ الفَيحاء

وبحضرموتَ على تنائى دارها … شكوى كشكوى تونسَ الخضراء

بالامس كان هواكَ يجمع شَمْلَها … فى فُرْقةِ النَزَعاتِ والاهواء

واليومَ فتَّ رَدَاكَ فى أعضادِها … ما أجلَبَ البأساءَ للبأساء!

* * *

أفدحْ بما يلقاه آلُكَ إنْ يكنْ … حُزنُ الأباعدِ جَلَّ عن تأساء

حُرموا أباً برّاً نَموا وترعرعوا … من جاهِهِ فى أسمحِ الافياء

وكفقدهم فَقَدَ الغرانيقُ العُلى … عَلَمَ الهُدَى للفتْيةِ النُجباء

وكَرُزْئهم رُزِىءَ الرجالُ مُرجَّباً … عَفَّ اللسانِ مهذَّبَ الايماء

يتناولون من الصحائف وَحْيَه … فتكون كلّ صحيفةٍ كَلِواء!

ما مشتَ فيهم ظلتْ بُلْبُلَ أيكهم … فى الأمْن، والرِئبالَ فى اللأواء

لك جَوُّكَ الرَحْبُ الذى تخلو به … متفرّداً والناسُ فى أجواء

عذلوكَ فى ذاك التعزُّلِ ضَلّةً … إنَّ التعزّلَ شيمةُ النُزَهاء

ما كان شغلُكَ لو دَرَوا الاّ بهم … لكن كرهتَ مشاغلَ السُفهاء

ولعلَّ اعطقَهم عليهم مَن دنا … بالنفع منهم وهو عنهم ناء

أنزلْتَ نفسَك عند نفسِك مُنزَلاً … يَأبَى عليها الخسفَ كلَّ إباء

فرعَيتَ نِعمَتك التى أثّلتَها … ورعَيتَ فيها جانبَ الفقراء

تَقْنِى حياءَك طالماً عن خُبرَةٍ … أن الخصاصةَ آفةُ الأدباء

وترى الزَكاةَ لذى الثراء مَبَرَّةً … منهُ بهِ ووسيلةً لِزَكاء

كم من يدٍ أسديتَها وكسوتَها … متأنّقاً لُطفَ اليدِ البيضاء

* * *

عصرٌ تقضّى كنتَ مِلءَ عيونه … فى اربعينَ بما أفدتَ مِلاء

يجلو نبوغُكَ كلَّ يوم آيةً … عذراءَ من آياتهِ الغرّاء

كالشمس ما آبت أتت بمجدّدٍ … متنوِّعٍ من زينةٍ وضياء

هِبَةٌ بها ضَنَّ الزمانُ فلم تتحْ … الاّ لافذاذ من النُبغاء

يأتون فى الفترات بُوعِدَ بينها | لِتَهيُّؤِ الاسباب فى الأثناء
كالانبياء ومَن تأثَّرَ إثرَهم | من عِلْيَةِ العلماء والحكماء
رفعتك بالذكرى الى أعلى الذرى | فى الخلد بين اولئكَ العظماء
مَنْ مُسْعِدى فى وَصْفِها او مُصعِدِى | دَرَجاتِ تلك العزة القعساء
ومُطَوِّعٌ لى من بيانى ما عصى | فاقولَ فيك كما يُحِبُّ رثائى
لى فيك من غُرَرِ المديح شواردٌ | أدَّتْ حقوقَ علاك كلَّ أداء
ووفتْ قوافيها بما أمْلى على | قَلَمى خُلوصُ تجِلَّتى وإخائى
ما ذا دهانى اليومَ حتى لا أرى | إلا مكانَ تفجعى وبكائى ؟!

* * *

(شوقٌ) لا تبعدْ وإنْ تك نِيَّةٌ | ستطولُ وَحْشَتُها على الرُّقباء
تالله شمسُك لن تغيبَ ، وإنها | لَتُنيرُ فى الإصباح والإمساء
هى فى الخواطرِ والسَّرائرِ تنجلى | ابداً ، وتَغمُرُهن باللألاء
والذُّخْرُ أغلى الذخرِ ما خلفته | من فاخرِ الآثار للأبناء
هو حاجة الاوطان ما دالت بها | دُوَلٌ من السَّرَّاءِ والضراء
سَيُعاد ثم يعاد ما طالَ المدى | ويظلُّ خيرَ مآثر الآباء
يكفى بيانَك أن بلغتَ مُوَفَّقاً | فيه أعزَّ مَبالِغ القدماء
بَوَّأتَ مصرَ به مكاناً نافست | فيه مكانَ دِمشقَ والزَّوراء
ورددتَ موقِفَها الاخيرَ مُقدَّماً | فى المجد بين مَواقف النُّظراء
لك فى قريضك خُطَّةٌ آثرتَها | عَزَّتْ على الفُصحاءِ والبُلَغاء
من أىِّ بحرٍ دُرُّهُ متصيَّدٌ | وسَناهُ من تنزيل أىِّ سَماء
ظهرت شمائلُ مصرَ فيه بما بها | من رِقَّةٍ ونُعومَةٍ ونَقاء
ترخيمُها فى لحنِهِ متسامَعٌ | ونَعيمُها فى وَشْيِه مُتراء
شعرٌ مرَى مسرَى النَّسيم بلطفه | وصفا برَوْعتِه صَفاءَ الماء
تَرِدُ العيونُ عُيونَه مشتَفَّةً | ويُصيبُ فيه السمعُ رِىَّ ظَماء
ويكادُ يُلْمَسُ فيه مشهودُ الرُّؤَى | ويُحَسُّ همْسُ الظنِّ فى الحوْباء
فى الجوِّ يؤنس من يحلق طائرٌ | والدوِّ يؤنس راكبَ الوجناء
عجباً لما صرَّفْتَ فيه فُنُونَهُ | من فِطْنةٍ خلاَّبةٍ وذكاء

فلكل لفظ رونقٌ متجدِّدٌ ولكلِّ قافية جديدٌ رُواء
تُجلى الجمالُ به كأبدع ما انجلت صُوَرٌ حسانٌ فى حسان مراء
ولربما راعَ الحقيقة رسمُها فيه فما اعتصمت من الخيلاء !

* * *

حيَّاكَ ربك فى الذين سَموا إلى أمَلٍ فأبلَوْا فيه خيرَ بلاء
مِنْ مُلْهَمٍ أدى امانة وَحْيه بعزيمة غلّابة ومضاء
متجشمٌ بالصبر دونَ أدائها ماسِيمَ من عَنَتٍ وفرط عَناء
للعبقرية قوة عُلْوِيَّةٌ فى نَجْوَةٍ من نفسه عصماء
كم أخرجت لأولى البصائر حكمةً مما ألمَّ به من الأرزاء
حتى اذا اشتعل المشيبُ برأسِهِ ما زادَ جُذْوَتَها سوى إذكاء
فالداءُ يُنحِلُ جسمَه ونشاطُها يُخفى بروْعتِه نشاطَ الدّاء
جسمٌ يقوّضُهُ السَّقامُ ، وَهَمُّها متعلق بالخلقِ والانشاء
عَجَباً لعامَيْه اللذين قضاهما فى الكَدِّ قبل الضَّجعة النَّكراء
عاما نِزاعٍ لم يُهادِنْ فيهما نُذُرُ الرَّدَى وشواغلُ البُرَحاء
حَفلا بما لم يَتَّسِعْ عُمرٌ له من باهر الإبداع والإبداء
فَتحٌ يلى فتحاً ، وصرحٌ باذخٌ فى إثره صرحٌ وَطيدُ بناء
هذا إلى فِطَنٍ يقصر دونها مجهودُ طائفة من الفُطناء
من تحفةٍ منظومةٍ لفكاهة او طُرْفَةٍ منظومة لِغناء
او سِيرَةٍ سِيقت مساقَ رواية لمواقف التمثيل والإلقاء
تجرى وقائعها فتجلو للنُّهى منها مَغازىَ كُنَّ طَىَّ خفاء
فاذا الحياةُ عَهيدُها وعَتيدُها مَزْجٌ كمزجِ الماء والصَّهباء
تَطْفُو حقائقُها على اوهامها وتَسُوغُ خالصةً من الأقذاء

* * *

يا مَن صَحِبْتُ العُمْرَ أشهدُ ما نحا فى الشعر من متباين الأنحاء
إنى لَيحْضُرُنى بصادِقِ حالِهِ ماضيك فيه كأنه تلقائى
مِن بدْئهِ وحِجاكَ يفتحُ فَتحَهُ لِلْحِقْبةِ الأدَبيَّةِ الزَّهْراء
حَتَّى الختامِ ومِن مفاخر مجدو ما لم يُتَحْ لِسِوَاكَ فى الشعراء

فأرى مثالاً رائعاً في صورةٍ — للنيلِ تملأ منه عينَ الرائى
النيلُ يجرى في عقيقٍ دافقٍ — من حيثُ ينبعُ في الرُّبى الشمَّاء
يَسقى سهولَ الرِّيفِ بعد حُزونهِ — ويُديلُ عمراناً من الإِقواء
ما يعترضهُ من الحواجز يعدُهُ — ويعدْ الى الإِحياء والإِرواء
حتى إذا رَدَّ الفَيافَ جَنَّةً — فيما عَلا ودَنا من الأَرجاء
أَوفى على السَّدِّ الاخير ودُونَهُ — قُرْبُ المصيرِ الى محيطِ عَفاء
فطغى وشارَفَ من خلافٍ زاخراً — كالبحر ذي الإِزباد والإِرغاء
ثمَّ ارتمى بفيوضهِ من حالِقٍ — في المَهْبِطِ الصَّادي من الجرعاء
فتحدَّرتْ وكأَنَّ مُنهَمراتِها — خُصَلٌ من الأَنوارِ والأَنداء
مسموعةُ الإِيقاعِ في أَقصى مدًى — جَذْلى بما تُهدِي من الآلاء
إنْ أَخطأتْ قَطْراً مواقِعُ غَيثِها — أَحْظَتهُ باللمحاتِ والأَصداء!

* * *

لله دَرُّ قريحةٍ كانت لها — هذى النِّهايةُ من سَنًى وسناء
رَفَعَتْكَ من علياءَ فانيةٍ الى — ما ليسَ بالفَاني من العلياء!

خليل مطران



الشعر

بعد كبيره وأميره

الشعر بعد مُصابهِ بكبيرهِ — في مِصرَ جلَّ مصابهُ بأَميرهِ
بيناهْ يبكى حافظاً بشهيقهِ — إذْ قام يبكى أحمداً بزفيرهِ
لم يَقضِ بعض حِداده لنصيرهِ — حتى أحدَّ أسىً لفقد مُجيرهِ
ما إنْ خبتْ في الأُفقِ شُعْلةُ نارهِ — حتى انطوتْ في الجوِّ لمعةُ نورهِ
بالأَمس ظلَّ مُرَزَّأً بمُبينه — واليومَ بات مفجَّعاً بمُنيرهِ
أخذت فرزدقَهُ المنون وضاعفتْ — جُلَّى مصيبتهِ بأَخْذِ جريرهِ
رُزآنِ ملتهبانِ قد نَضَحَتْهما — عَيْنُ العُلى من دمعها بغزيرهِ

فالشعر بعدهما استطالَ بكاؤهُ وتموّجَتْ بالحزن كلُّ بحورِهِ
وَهزارهُ ترك الصداحَ وليثهُ أجنَتْ أماديه سَماعَ زئيرِهِ

***

يا نَيّراً لِجُمِعَ القريض بموته فبكَته عينُ وَزِينهِ وكسيرِهِ
وَخلتْ سماءُ الشعر بعد افولهِ من مُشرقات شموسهِ وبدورِهِ
ومُؤمَّراً لم تنتقضْ بوفاته في الشعر بيعتُهُ على تأميرِهِ
لك فى الخلود مكانةٌ ما نالها فرعونُ فى ديماسهِ وحفيرِهِ
إنّ الدفين مضمّخاً بحنوطه دون الدفين محنّطاً بشعورهِ
إنّ المتوّج فوق عرش ذكائه يعلو المتوّجَ فوق عرش سريرِهِ
ما مات من تركت لنا أقلامهُ صُوَراً خوالدَ من بنات ضميرِهِ
صوراً تمثل ذاتَهُ وصفاتَهُ حتى يَقُمْنَ لنا مقامَ نشورِهِ
فكأنه وهو الدفين بقبرهِ حيٌّ يعيش بحزنهِ وسرورِهِ
وكأنه فى القومِ ساعةَ حَفلهم متكلمٌ بنظيمهِ ونثيرِهِ !

***

لابى عليٍّ من قريحة شعرهِ وحيٌ أتى من جبرئيل شعورِهِ
كم قد رمى الغيبَ الخفيَّ فؤادُهُ بذكائه فأصاب كشف ستورِهِ
وتَصوّر المعنى الدقيق فردّه كالصبح منفلقاً أوانَ ظهورِهِ
يأتيك بالمعنى الجميل قد اكتسى من وشي سندس لفظه وحريرِهِ
فالشعر قد دُكت جبالُ فنونه إذ موتُ شوقي كان نفخةَ صُورِهِ
يا راحلا ترك القوافى بعده محتاجةً المحيا الى تفكيرِهِ
لهفى على ذيّالك القلم الذى يتطرّب الأرواحَ لحنُ صريرِهِ
الشعر كنت أميرَهُ وسميرَهُ فمنِ المسامرُ بعد فَقْد سميرِهِ
حرّرته من رِقّ كلّ تصنّعٍ فبَدَتْ فنونُ الحسن فى تحريرِهِ
سخّرتَ من أوتاره ما لم يكنْ ليطيعَ غيركَ قطّ فى تسخيرِهِ
ولكم شَدَوْتَ بنغمة من بمّه ولكم صَدَحْتَ بنغمة من زيرِهِ
تمايل الأبدانُ فى إنشاده طرَباً وليس يُملّ من تكريرِهِ

***

يا أهلَ مصر عزاءكم، فمصابكم أمرٌ قضاهُ الله فى تقديرِهِ
الشعر قد ثُلَّتْ بمصر عروشهُ بوفاة سيّدهِ وموت أميرِهِ
عَلَمَان من أعلامه كانا بهِ يتنازعان السَّبْقَ فى تحبيرِهِ
لكليهما الهرمان قد خشعا أسىً والنيل مدَّ أنينه بخريرِهِ!

معروف الرصافى



أروع مرثية لشوقى

رثاؤه لوالدته

لا نرى أنسبَ فى ختام شعر المراثى من نشر المرثية الفريدة التى فاضت بها شاعرية شوقى فى ندب والدته التى كان يحبها الى درجة العبادة، وكأنه فى كثير من أبياتها يرثى نفسه ويبكى مآلَ الانسانية. وقد نظم الفقيدُ الكريمُ هذه المرثية الرائعة فى ظروفٍ مشجيةٍ حقاً: وذلك على أثر اعلان الهدنة بينما كان يعلل النفس بالعودة الى الوطن العزيز ولقاء آله وصحبه وفى مقدمتهم والدته الحبيبة. فما كاد يداعب هذا الأمل حتى وافاه البرق بنعى أحبّ الناس اليه، فأثر هذا المصاب الجلل فى نفسه تأثيراً بليغاً، وبعد ساعة كتب هذه المرثية الرائعة التى تحاشى مراجعتها ونشرها من فرط تأثره، فبقيت مستورة بين أوراقه الخاصة.

* * *

الى اللهِ أشكو مِنْ عوادى النوى سَهْمَا أصابَ سويداءَ الفؤاد وما أَصْمَى
من الهاتكاتِ القلبَ أولَ وهلةٍ وما داخلتْ لحماً ولا لامستْ عظما
توارد والناعى فأوجستُ رنةً كلاماً على سمعى وفى كبدى كلما
فما هتفا حتى نزا الجنبُ وانزوى فيا ويحَ جنبى كم يَسيلُ وكم يَدمَى
طوى الشرقَ نحو الغرب والماءَ للثرى الىَّ ولم يركب بساطاً ولا يَمَّا

أبان ولم يَنْبُسْ ، وأدّى ولم يَفُهْ وأدمى وما داوى ، وأوهى وما رَمَّا
اذا طُويتْ بالشهبِ والدّهم شقّةٌ طوى الشهبَ أو جابَ الغدافيةَ الدّهما !
ولم أرَ كالاحداث سهماً اذا جرتْ ولا كالليالى رامياً يُبعد المَرْمَى !
ولم أرَ حكماً كالمقادير نافذاً ولا كلقاء الموت من بينها حَتْما
الى حيث آباء الفتى يَذهبُ الفتى سبيلٌ يدين العالمون بها قِدْما
وما العيشُ إلا الجسمُ فى ظل روحه ولا الموت الا الروح فارقتْ الجسما
ولا خلدَ حتى تملأ الدهرَ حكمةً على نزلاء الدهرِ بعدَك أو علما
زجرتُ تصاريفَ الزمانِ فما يَقعْ لىَ اليوم منها كان بالأمس لى وَهْما
وقدّرتُ (للنعمان) يوماً وضدّه فما اغترّتْ البوسى ولا غرّتْ النعمى
شربتُ الاسى مصروفةً لو تعرضتْ بأنفاسها بالفم لم يستفق غمّا
فاترعْ وناولْ يازمانُ ! فانما نديمُكَ (سقراطُ) الذى ابتدع السّما !
قتلتُكَ حتى ما أبالى أدرتَ لى بكأسك نجماً أم أدرتَ بها رَجْما !
لكِ الله من مطعونةٍ بقنا النوى شهيدة حربٍ لم تقارفْ لها إثما
مدلهةٍ أزكى من النار ظفرةً وأنزه من دمع الحيا عبرةً سحما
سقاها بشيرى وهى تبكى صبابة فلم يقو مغناها على صوبه رسما
أستْ جُرْحَها الانباءُ غيرَ رفيقةٍ وكم نازعٍ سهماً فكان هو السهما !
تغارُ على الحمّى الفضائلُ والعلا لما قبّلتْ منها وما ضمّت الحمّى !
أ كانت تمنّاها وتهوى لقاءها اذا هى ممّاها بذى الأرض مَنْ سمى؟!
ألمّتْ عليها واتّقتْ ثمراتها فلما وُقوا الاسواءَ لم ترها دمّا
فيا حسرتا ألاّ تراهم أهلةً اذا أقصر البدر التمام مضوا قدما
رياحين فى أنف الولىّ وما لها عدوٌّ تراهم فى معاطسه رغما
وألاّ يطوفوا خُشّعاً حولَ نعشها ولا يُشبعوا الركن استلاماً ولا لثما
حلفتُ بما أسلفتِ فى المهد من يدٍ وأوليتِ جثمانى من المنّة العظمى
وقبرٍ منوطٍ بالجلال مقلدٍ تليدَ الخلال الكُثر والطارفَ الجمّا
وبالغاديات الساقيات نزيله من الصلوات الخمس والآىَ والاسما
لما كان لى فى الحرب رأىٌ ولا هوىً ولا رمتُ هذا الشكلَ للناس واليتما
ولم يكُ ظلمُ الطير بالرقّ لى رضاً فكيف رضائى أن يرى البشرَ الظلما؟!
ولم آلُ شبانَ البريةِ رقّةً كأنّ ثمارَ القلب من ولدى ثمّا

وكنتُ على نهجٍ من الرأى واضحٍ … أرى الناس صنفين : الذئابَ أو البُهْما
وما الحكم إلا فى أولى البأس دولة … ولا العدل إلا حائط يعصم الحكما

***

نزلتُ رُبى الدنيا وجناتِ عدنِها … فما وجدتْ نفسى لأنهارها طعما !
أريج أريجَ المسك فى عرصاتها … وان لم أرح « مروان » فيها ولا « لحما »
اذا ضحكتْ زهواً الىَّ سماؤها … بكيتُ الندى فى الارض والبأسَ والحزْمَا
أطيفُ برسمٍ أو ألمُّ بدمنةٍ … اخال القصورَ الزهرَ والغرَفَ الشُّمّا
فما برحتْ من خاطرى « مصرُ » ساعة … ولا أنتِ فى ذى الدار زايلتِ لى وهْما
اذا جنّنى الليلُ اهتززتُ اليكما … فجنحاً الى سعدى وجنحاً الى سلمى
فلما بدا للناس صُبْحٌ من المُنَى … وأبصر فيه ذو البصيرة والأعمى
وقرّتْ سيوفُ الهند وارتكز القنا … وأقلعتْ البلوى وأقشعتْ الغُمَّى
وحنَّتْ نواقيسٌ ورنَّت مآذنٌ … ورفتْ وجوهُ الأرض تستقبل السلما
أتى الدهرُ من دون الهناء ولم يزلْ … ولوعاً ببنيان الرجاء اذا تمَّا !
اذا جال فى الأعيادِ حلّ نظامَها … أو العُرسِ أبلى فى معالمه هدْمَا
لئن فاتَ ما أمّلته من مواكبٍ … فدونك هذا الحشدَ والموكبَ الضخما !
رثيتُ به ذاتَ التُّقى ونظمتُه … لعنصره الازكى وجوهره الاسمى
نمتكِ مناجيبُ العلى ونميتها … فلم تُلحَقى بنتاً ولم تسبقى أمّا
وكنتِ اذا هذى السماء تخايلتْ … تواضعتِ لكنْ بعد ما فتّها نجما !
أتيتِ به لم ينظمْ الشعرَ مثله … وجئتِ لاخلاق الكرام به نظما
ولو نهضتْ عنه السماء ومخّضتْ … به الارضُ كان المزنَ والتبرَ والكرْمَا !



كلمة ختامية

والآن نتأهَّب لنُلقى القلم بعد اشرافه على هذه الذكرى لفقيدنا العظيم ـ نلقيه بشعور من الألم الدفين والتردُّد الحزين ، والخاطرُ المكلومُ يردّد :

ليتَنى ما خُلقتُ فى الناس حتّى لا أرى غايةَ العظائم موْتا
والجَنانَ الذى تألَّقَ وحْيا بين عُمرٍ مقيَّدٍ ليس يحيا
والحكيمَ الذى يُناضلُ جيلاً ناصرَ العقلِ قد تردَّى قتيلاً
قتلَتْهُ الأيَّامُ رغمَ انتباهٍ رغمَ طبٍّ ورغمَ مالٍ وجاهِ
وتُرِكْنا نرى (الحياةَ) السّخافهْ ونرى (الموْتَ) بعْدَها كالخرافهْ !

ونُشفق على وجداننا من ثورة اليأس فنعود نتلمس العزاء فى صور من التفاؤل بمآل الانسانية ، وببقاء الجوهر دون العرض ، وبالذخيرة النفيسة من الأدب العالى التى تركتها لنا تلك المواهبُ العزيزة المفقودة . وننتهى أخيراً فى عجز وتعثر الى الايمان بأنَّ الأثر هو ظلٌّ الأصل بل توأمهُ ، وأن خلودَه خلودٌ لمصدره ! وهكذا نصطنع العزاء ، ونعكف على دراسة هذا الأثر ، ونعتبر فى ذلك رمزَ الاكبار للفقيد الكريم ومعنى الاعتبار للأحياء .

وقد رأى مجلس (جمعية أبولو) أنّ فى هذه الدراسة تقديراً أجْدَى مراراً من حفلات التأبين المألوفة ، وإنْ كان قد لبَّى دعوةَ وزارة المعارف لاقامة حفلة تأبين شاملة باسم جميع الهيئات الأدبية ، واشترك فى تنظيم الحفلة وفى القيام بالتأبين ذاته بواسطة مندوبيه وفى مقدمتهم رئيس الجمعية ووكيلاها وسكرتيرها ، كما أخذت الجمعية تحت رعايتها حفلة طلبة الجامعه المصرية ، وبعثت بأعضائها من الشعراء لتعزيز غيرها من الحفلات التأبينية ، وهكذا قام الشعراء بواجبهم نحو الراحل العظيم منذ اللحظة الأولى لهذه الفجيعة المروعة . ولكن اهتمام الجمعية الأكبر دام موجَّهاً الى واجب الذكرى الدراسية ، ولا نعد هذا العدد الخاص من (أبولو) الا تمهيداً له ما بعده من بحوث جليلةِ الشأن نؤثرها على المراثى الشعرية .

وقد رأى القرّاء أننا جعلنا مبدا نا الشامل لتحقيق هذه الغاية روحَ الانصاف فما حجرنا على شىء اعتقدنا أن الاخلاص يمليه ، وسمحنا بنشر النقد الأدبى النزيه

حتى لا يعتبر هذا الأثر من قبيل المجاملات الواهية التى لها مناسباتها ثم تنقضى .

وعندنا أن مرثية رئيس تحرير « الجهاد » التى نُشرتْ يوم الوفاة من خير ماقيل فى تحديد واجب الناقد الأدبى . فقد كان مباحاً فى حياة الفقيد تناول شتّى العوامل المحيطة به حتى بعض ما يعتبر من العناصر الشخصية الخاصة ، ولكن جلّ هذا إن لم يكن كله مما يُتناسى بعد وفاته لأن الغرض الاصلاحى قد انتهى بوفاة الشاعر ، ولا يعبأ الناقد المنصف فى أغلب الأحوال بعد ذلك الاّ بالأثر الأدبى وحده وبالملابسات التى تفاعلت معه حقيقة وبينها طباع الشاعر وظروف بيئته التى كيفت شاعريته .

ومن الانصاف لمن يريد أن يضع شوقى بك موضعه من العبقرية أن يذكر حالة الشعر العربى حينما نبغت شاعرية الفقيد على حداثة سنه ، وحينئذ يقدّر جراءته فى مناحيه التجديدية . وتلك دراسة يجب أن تقترن بآثار مطران فى ذلك العهد وهى آثار رائعة أشاد بقيمتها شوقى بك نفسه وقد كانا من أصفى الاصدقاء .

ونرى أن حياة الفقيد الرسمية لم تَحُلْ فى ذاتها دون قرضه الشعر العالى ، وإنما البيئة فى ذلك العهد لم تكن منبهةً للشعر الفنى الذى تَجلّى أخيراً وحفز اليه الشعراء الشبانُ المثقفون تثقيفاً أوروبياً ، فسار الفقيد فى معظم الاحوال فى طليعة الحركة التجديدية إذ لم يكن يرضى أبداً أن يتخلّف عن أىّ نهضة حديثة ولوتردّد أولاً . ونعدّ أنّ التخلّى عن مركزه الرسمى وبأسهِ القديم لم يحرّره تحريراً فنياً فقد كان حراً دائماً من هذه الوجهة ، بل جعله يسعى لتعويض صولة الماضى عن طريق العظمة الفنية بانتاجه الوافر الممتاز،فكان له فى ذلك عزاء خاصٌ الى جانب استمتاعه الفنّى ، وهو تطوّر لا بدّ أن يؤمّن عليه خاصة الأدباء النقّاد وكل باحث نفسانى دقيق .

ولعلّ أظهرَ ميزةٍ لشعر شوقى حلاوته الساحرة ، وعندنا أنه لو لم يكن شاعراً لكان موسيقياً ، فهو بفطرته طروبُ النفس موسيقىُّ الرُّوح،فلا عجب إنْ سحرَ بأنغامه العالمَ العربىَّ بأسره حتى فى المواقف التى قد لا تبلغ فيها جودة شعره الدرجة المعهودة منه وحتى فى نماذج شعره التقليدى الذى تتراءى فيه معانى المتقدمين وأخيلتهم أو المعانى السائرة فى عصره .

هذا هو مفتاح الاعجاز فى شعر شوقى — هو موسيقيته الفريدة النابعة من حسٍّ رقيق وطبعٍ مصقول . وهى التى خلبت الألباب وكان من ردّ فعلها أن

نشأت مدرسة محافظة كادت تكفر بالمعانى الشعرية الرائعة وبأسمى الشعر الفنىّ وتجرى وراء الرنين الموسيقى وحده ، وهذا من العجب بمكان !

كان شوقى بك فى العهد الخديوى ذا نفوذ عظيم وكانت البواعث للشعر الفنىّ محدودة جداً كما ذكرنا ، فلما دال ذلك العهد وذاق شوقى بك مرارة النفى — وإن كان قد رحَّب به أولا فراراً من الجوّ السياسى الموبوء — وهى مرارة حدَّثنا عنها شخصياً فيما بعد وألمع اليها فى شعره الأندلسى ، لم يكن له عزاء الاّ فى الانهماك الأدبى ، وهذا سر انتاجه الأخير الذى نما وتضاعف بحافز المنافسة الأدبية التى قويت فى العهد الحديث وانزوى أمامها غيرُ واحدٍ من مشهورى شعرائنا المحافظين الذين نبهوا فى الجيل السابق . وكما أنّ الأمير مؤمرٌ على رعاياه جميعاً فكذلك كانت نفسية شوقى بك تنزع الى أن يضرب فى كل باب من أبواب الشعر بسهم ، فكان شاعر النهضة العربية وشاعر الاسلام وشاعر الوطنية وشاعر الفنون الوصفية وشاعر الحب والأغانى الخ . حتى يشمل انتاجه جميعَ ميادين الشعر أو ما يُظَنّ أنها ميادين الشعر ، وهو مدين بهذه الروح لنشأته الرسمية وفى سبيلها لبث يكافح الى آخر لحظة من حياته . وقد حدثنا رئيس تحرير «الأهرام» عن شوقى بك فقال آسفاً إنه ما كان ينبغى له أن يعمل فى أواخر عمره ، ونسب الى هذا المجهود العنيف تدهور صحته أخيراً . ولكنْ بغضّ النظر عن الأسباب الطبيعية التى آلت الى إعيائه — وفى مقدمتها انهماكه فى التدخين حتى وهو فى مرض الموت — فاننا لا ندرى كيف كان من المستطاع لذهنٍ وقّادٍ كذهن شوقى أن يقنع بالهمود اذا كان فى طاقته أن يشتعل ويضىء .

ومما لا جدال فيه أن شاعرنا العظيم أجاد إجادةً فذّةً فى اكثر من ضرب من ضروب الشعر ولا سيما فى الشعر الوصفى والشعر التاريخى الذى ينقلك الى قرون خلت فتعيش بين أهلها الأحياء ، وما نشك لحظة ان جاهه ونفوذه ساعداه كثيراً على احياء اسمه وصيته ، ولولا هذا الجاه والنفوذ لما ظهرت له رواية تمثيلية واحدة على خشبة المسرح نظراً لجمود مسارحنا المصرية . وقد عيب عليه أن رواياته لا يتجلّى فيها فنّ التمثيل ، ولكنّ العائبين أو معظمهم لا ينكرون أنّ شعره فى نفس هذه الروايات من أرقى الشعر العربى الحديث . وآيةُ العجبِ انّ شوقى فى شيخوخته أبى إباءً أن يسبقه الشبان الى أىّ انجابٍ جديدٍ لا يُساهم فيه ، فحفزه هذا الى وضع رواياته الشعرية التمثيلية وله من مطالعاته ومشاهداته ومن ذاكرته القوية كنز زاخر بالمرائى والتجاريب وأسرار اللغة يستمدّ منه العون . وكان فى أول الأمر ينزع الى الاوبرات ثم آثر

عليها الدرامات الشعرية ففتح الباب الذى أُغلق بوفاة المرحومين نجيب الحداد واسماعيل عاصم . ومهما يكن من شأن رواياته التمثيلية فلا نزاع فى أنها أتاحت له فرصاً بديعة لتصوير ألوان الحياة والموت أيضاً ، ذلك التصوير الخلاَّب الذى لم تفارقه سلاسته المعهودة ودقته الآسرة . ومَنْ ذا الذى لا يتأثر بقول كليوباطرة الناعمة اليائسة وهى تتهيأ للانتحار :

يامَوْتُ طُفْ بالرُّوحِ واسرقْها كما سرقَ الكَرَى عينَ الخليِّ السالى
حتى أموتَ كما حييتُ كأننى بيتُ الخيال ودُميةُ المثّالِ
وكأنَّ إغماضَ الجفونِ تَنَاعُسٌ وكأنَّ رَقدَتىَ اضطجاعُ دلالِ

وهذه الابيات يقولها شيخ فى الستين من عمره ! هنا دقة التصوير وجراءة الخيال وحلاوة اللغة الفاتنة . وفى الحق أن شوقى كان فنّاناً فى لغته ، ولو لم يجامل المحافظين ويسترضيهم بأساليب لغوية عتيقة أحياناً لما ارتفع صوتٌ بمؤاخذته . ومع هذا فقد طوّع اللغة تطويعاً ببراعته فى مواقف شتى ، وكان طبعه الموسيقى يتغلب على التنافر الذى يعترضه فى معظم الأحوال . ولكنه حاول أن يرضى جميع المدارس الأدبية بمثل محاولته أن يكتسح جميع ميادين الشعر الجليل والصغير منها على السواء ، ولا نعتقد أنه أصاب بهذا التصرف الذى لم يكن ليتفق مع طبيعته فكانت له من ورائه عثرات وسقطات . كذلك لا نراه على صواب فى مجاراة العامة بنظم الأغانى العاميه وإن سمَت معانيها ، فقد كانت هناك ندحة له عن ذلك وهو حارس لغة القرآن والشاعر الذى تذوب عربيته السليمه رقة ويقبل عليها الجميع ، ولا نؤمن بأية دعوى عن ترقيته للأغانى فانه — طيب الله ثراه — لم يحاول أن ينهض بالجماهير بل آثر أن ينزل الى مستواهم اللغوى ، ولو أنه حاول أن يسمو بهم لجاءت محاولته هذه قدوة الجيل ولا نساق خلفه كثيرون من مؤلفى الأغانى . أما الحال الآن فعكس ذلك تماماً ، وقد تجرأ تبعاً لذلك غير واحد من شعرائنا النابهين على وضع الأغانى العامية والمباهاة بها مادام شوقى قد سبقهم الى مثل ذلك ، وكأنما لا شخصية لهم ! وهذه مؤاخذة ردّدناها على مسمع الفقيد فى حياته وكان كلُّ دفاعه أنه أراد أن تكون الاغانى شعبية وأنه لم ينس نصيب العربية السليمة من شعرٍ للغناء ، وقد نظم بناء على هذا النقد قصيدتيه الاخيرتين للآنسة ملك ، وكان فى وسعه أن ينظم شتى المواويل والأدوار العربية السليمة التى تصلح على مدى الزمن للعالم العربى بأسره

لا لعامة مصر وحدهم ، كما هو شأن رواياته الشعرية التمثيلية وما تضمنته من شعر بديع رائع جدير بأن يُستشهد به فى شتى المواقف .

فُتِن شوقى بك بالتاريخ كما فُتن بالوصف التصويرى فكانت له بدافع هذا الميل روائع شعرية خالدة ، كما تجلّت شواهد التاريخ وعظاته فى الكثير من شعره وبينها ثلاث ملاحم فى وقت نسى الشعرُ العربىُّ الملحمةَ وتكييفها ، وهذه مفخرة له لا يجوز ان ينساها أىُّ مؤرخ . وفُتن بالمتنبي عن طبع مشغوف بالحكمة وعن صفات مشتركة بينهما فكان متنبي عصره ، وإن ساقه الغلو التقريرى أحياناً الى نماذج من النظم لا هى فى الشعر الفنى الخالص ولا هى من شواهد الحكمة العميقة . مثال ذلك مطلع آخر قصيدة له :

المُلكُ بالمالِ والرجالِ لم يُبنَ مُلكٌ بغير مالِ

وحتى بيته المشهور :

وانما الأُمَمُ الاخلاقُ مابقيتْ فانْ همو ذهَبتْ أخلاقُهم ذهبُوا

ليس من الشعر فى شىء ، وإن كان آيةً من الحكمة الساذجة . ولكنّ الشعر والحكمة تجتمعان فى مثل قول شوقى :

دقّاتُ قلبِ المرء قائلةٌ له إنّ الحياة دقائقٌ وثوانى

وقوله :

فما العبدُ إلاّ كالدخان وإنْ علا الى النجم منحطٌّ الى الأرض سافل

وقوله :

ومنْ تبسمْ الدُّنيا اليه فيغترْ يَمت كقتيلِ الغيدِ بالبَسَماتِ !

وتوجد نماذج للحكم الشعرية أخرى نفيسة فى « شوقياته » كما يوجد بجانبها غير قليلٍ من النظم الخبرى التقريرى الذى لا نعده من الفلسفة الشعرية فى شىء .

وماكان شوقى بك بطبيعته وبظروف بيئته الأولى الشاعر الاجتماعى ، ولكن بيئته الثانية بعد الحرب وتعلقه الجديد بالجمهور خلق منه الشاعر الاجتماعى المؤثر فى ظروف جمّةٍ ، وإن كان كثيراً ما تردّد وتحوّل بحكم اعتباراته السياسية الخاصة مما دعا الى مؤاخذته الشعرية . وعندنا أنه انتزع هذه المكانة انتزاعاً من حافظ ابراهيم بك ، لأن حافظ كانت تنقصه الوثبات القوية الأخّاذة والخيال الرائع المحبوب وقدرة التصوير الفنى المتجلية فى شعر شوقى مهما يكنْ من استجابة حافظ لعواطف الشعب

استجابة فطرية ، وهكذا تمت لشوقى بك الفتوح فى ميادين متعددة حتى فى الميدان الذى كان من اختصاص منافسه الكبير الذى كاد يعتزل الشعر اعتزالاً قبل وفاته بزمن خلافاً لشوقى بك الذى أخذ يناضل عن صولجانه الى آخر رمق من حياته وكان يستفيد من النقد وإن امتعض منه دائماً .

وقد كان الفقيد العزيز مثالاً لوداعة النفس بين أصدقائه ومريديه — وداعة الأديب المهذَّبِ ، وكان وفياً جداً لآله ، ولولا انه اعتاد ان يجعل شعره أساساً للصداقة والخصومة لشمل وفاؤه الجميع ولما كان هناك تناقض غريب فى طباعه وفى أوصاف المؤرخين له . وكان بطبيعته يميل الى الإصغاء اكثر من ميله الى الكلام ولكننا ننكر أنه كان اعتيادىّ الحديث ، اللهم إلا بين من لا تربطهم به وشائج الصداقة القوية فكان يضن ضناً بحديثه وبعلمه وأسراره . وقد كان حاضر الفكاهة سريع الخاطر حيثما لم يوجد مجالٌ للكلفة . زرناه قبيل وفاته بأربعة أيام وذكرنا له ان العدد الثانى من (أبولو) كان عاطلاً لأنه حرمه شعرَهُ فابتسم وقال على الفور : وأنا كذلك كنت عاطلاً ! (يشير الى مرضه) . وعلاقاتنا الودية به التى ترجع الى أكثر من ربع قرن كانت فى ذاتها شفيعاً دائماً فى رفع أية كلفة بيننا ، وفى أخذ آرائه الصريحة الحكيمة فى شتى المسائل بغير تردد منه ، وفى مجابهته بنقدنا وان ساءه . نقول ذلك دفعاً لما سمعناه وقرأناه عن نزول حديثه دون المستوى المعتاد ، بعكس الحال لشعره الخالد . والحقيقة انّ حديثه على صورتين : منه ما يخصّ به صفوة خلصائه . ومنه ما يقتصد فيه كثيراً بين زائريه ، وقد علمتْه تجاريب الايام أن يكون على حرص وحذر ، وهو بهذا الدافع أبى أن يدون مذكراته الشخصية كما اقترحنا عليه وكان بين أعذاره أن الناس ينفرون من الحق المؤلم وهو لا يريد أن يقول غير معتقده .

وفى هذا السجل التاريخى الأدبى المهدَى الى ذكراه لم يسعْ غير واحد من مريديه الأفاضل إلا أن يشير الى طبيعة الفقيد الكريم فى الحرص الشديد على مكانته الأدبية وكيف أن المتجرين بالأدب استغلوا هذه الطبيعة اسوأ استغلال ، وما زال نفر منهم الى الآن يريد ان يعلن عن نفسه على حساب الفقيد ويريد أن يتظاهر بانه ملكىّ أكثر من الملك ، ومن هذين الظرفين نشأت خصومات ومنافسات متعددة ما كان يجوز مطلقاً أن تنشأ لو أن الفقيد الكريم لم يحفل بشىء من ذلك ، فان

التاريخ خيرُ منصفٍ على مدى الزمن ، ولا يجوز للرجل العظيم أن يأبه لتحامل المتحاملين أو أن يستدرجه أيُّ اعتبار لمنافسات غير مقبولة ، فلكل فنان طبيعته وآثاره وحسناته ، ومن خير الادب وكرامته أن يطلق لكل متفنن الحرية والتشجيع لانجاب أروع حسناته ، ومن غنم الادب ان نظفر بمجموع الحسنات لشتى الرجال.

وعلى هذا المبدأ السامي قامت (جمعية أپولو) التي توَّج الفقيد العزيز مآثره برئاسته لها ومده يد التعاون الأخوى لأعضائها الشعراء ونقاد الشعر بعد أن كان مشهوداً بفرديته ، وكان هذا مبدأ تطور جديد عظيم الأثر في الحياة الأدبية بمصر . ولذلك صدق سكرتير «جماعة الادب المصرى» حينما ذكر في مقاله (ص ٢٧٨) إن تجيعة جمعية « أپولو » بفقده عظيمة فوق مصاب العالم العربي بأسره ، وقد سبقنا حضرته الى ملاحظات سديدة نوافقه على معظمها وربما عدنا الى بعضها في المستقبل.

وكانت الصراحة سائدة في هذه البيئة الشعرية العائلية حتى ان الفقيد الكريم لم يسؤه أخيراً أن يشدَّد عليه في التخلي عن شعر الحفلات والاكتفاء بالشعر الفني وحده . وهذه صورة جدُّ مختلفة عما شاع وذاع عنه في سالف السنين .

وقد نوَّه أستاذانا سعادة احمد زكي باشا وحضرة خليل مطران بك بوداعة المرحوم شوقي بك وظرفه وتجرُّده عن الهجو في شعره ، ولم يُنكرا في الوقت ذاته أن حاشية الفقيد كانت مسؤولةً عن أقسى الحملات المغرضة على الكثيرين من الأدباء وعن اثارة حرب طاحنة ما كان يجب أن تثار مطلقاً في بيئة تريد ان تخدم الأدب لوجه الأدب . فما علة ذلك وما تفسيره ؟ هذه نقطةٌ لن يفلت منها أيُّ مؤرخٍ نزيه . وعندنا ان الفقيد العزيز دمثُ الخلق بطبيعته ولكنه يتأثر ببيئته الى حد كبير (subjective) ، حتى أنك لتجد دائماً شعره متأثراً بآخر مطالعاته ومجالسه ونظراته ، وإن اصطبغ بموسيقيته أو بنزعةٍ لغويةٍ خاصةٍ أو نحو ذلك ، فكأنه مَراءٍ متعددة . وهذا لا ينافي في الوقت ذاته ان عبقريتَه منبعثة من نفسه خلافاً لحافظ ابراهيم بك الذي كان مرآة نخمة لمشاعر أمته وكان نبوغه من وحى امته لا من ذاتيته هو ، وهو رأيُ أستاذنا مطران أيضاً . ويتصدَّى للتأريخ الأدبي في هذه الآونة مستمرين في حملاتهم الغاشمة على المدارس الأدبية في مصر وناشدين الشهرة الفانية على حساب الفقيد نفسُ المتملقين الذين أساءوا الى كرامة زملائه من الشعراء والأدباء بما اختطوه من خطةِ الملق له والانتقاص من زملائه وأنداده في حياته . ولكن اليقظة الأدبية الأخيرة في الجمهور أخذت تستنكر تصرّفهم هذا أشدَّ الاستنكار

وأضعاف استنكارها ذلك فى حياة الفقيد العزيز الذى يجب أن يتآلف الجميع حول ذكراه فى محبةٍ وتعاونٍ كما تجلَّى ويتجلى ذلك فى (جمعية ابولو) .

واذا كان لانسانٍ أن يودّع الحياةَ قريراً على أكمل وأهنأ صورة ، فهكذا ودّعها شوقى بك بعد أن أدّى رسالته فى شتّى النواحى وترك من الذخائر الأدبية ما لا ينال منه الفناء مهما طحنها النقد وغربلتها الأحداث وتلقفتها العوادى . وقد كان كفيلا لذكائه النادر وعبقريته الفذة باستبقاء مذهبه الشعرى وجهوده حية بحياته ولكن من المستبعد جداً أن ينشأ ندٌّ له يستطيع أن يقيم له علماً خفاقاً مثل علمه بعد ان تطوّرت المناحى والأذواق والأساليب الشعرية فى العهد الأخير تطوّراً عظيماً هزّ شوقى بك نفسه فلم يثبت قدميه إلا انتاجه العظيم وكفاحه ومواهبه الساحرة . فنى ذمة التاريخ ما أعجبَ وما أبدعَ لخدمة الشعر والعالم العربى حتى رفعَ اسمَ مصر فى شتى الممالك الى جانب ما بلغه من الصيت الرفيع والشهرة الذائعة لنفسه . واذا كان لشعراء الشباب أن يستفيدوا من حياته العظيمة — وهو الواجب عليهم — فهذه الصحائف المتقدمة بمثابة تمهيد لذلك : فلهم أن يستفيدوا من عوامل التفوّق ، وعليهم أن يتجنبوا دواعى المؤاخذة ، وما كان التفوق إلا فى خدمة الشعر للشعر وفى التعاون الفنى الباهر الكفيل باظهار أجمل المواهب وتساندها لرفعة هذا الفنّ الجميل .



جمعياتنا الادبية

سألنا غيرُ واحدٍ من القراء عن صلاتنا بالجمعيات الأدبية ومبلغ ارتباط (جمعية أپولو) بها ، لمناسبة ورود ذكر بعضها فى تأبين المغفور له شوقى بك . وجوابنا على ذلك أنها صلات حبية تعاونية ، وفيما عدا ذلك فجمعية أپولو مستقلة تمام الاستقلال ولها مهمتها الخاصة ألا وهى خدمة الشعر والشعراء . وأشهر هذه الجمعيات هى :—

(١) « رابطة الأدب الجديد » ومركزها العام ميدان حليم رقم ٥ بالقاهرة ، ولها فروع فى العواصم المصرية وفى عواصم العالم العربى . والغاية منها تنتهى الى غرضين أساسيين : التعاون الفكرى الأدبى والتآخى الاجتماعى ، فهى جمعية أممية لها فوائدها الأدبية كما لها فوائدها الاجتماعية ، وهى فى دائرة اختصاصها تشبه من بعض الوجوه حركة جمعيات الشبان المسيحيين .

(٢) « جماعة الأدب المصرى » ومركزها شارع المسافرخانة رقم ١٥ برأس التين باسكندرية وهى متخصصة لدراسة الأدب المصرى قديمه وحديثه بشتى وسائل الدراسة ،

وتسدّ بوجودها فراغا من وجهة منزعها الخاص الذى كان مهملا الى حدٍّ كبير .

(٣) « جماعة نشر الثقافة » ومركزها نقابة الموظفين بالاسكندرية . وهى هيئة تعمل للحركة التهذيبية العامة ولها معهد خاص باسم « معهد الثقافة » وتتناول بحوثها شتّى المعارف العامة والدراسات الأدبية . وغايتها تثقيف الجمهور ورفع مستوى التفكير الأدبى .

(٤) « جماعة الإسيست » (Les Essayistes) ومركزها شارع المناخ رقم ١٥ بالقاهرة . وهى ترمى الى نشر روائع الأدب العالمى وتبادل الثقافتين العربية والغربية ولا سيما الثقافة الفرنسية ، ولها مجلة ممتازة تصدر باللغة الفرنسية .

وجميع هذه الهيئات قامت وتقوم بواجبها خير قيام نحو فقيدىْ العربية والشعر العربى المغفور لهما محمد حافظ ابراهيم بك و أحمد شوقى بك ، فحق علينا التنويه فى هذا المقام بغيرة أعضائها الأفاضل وحرصهم على التآزر مع (جمعية أپولّو) فى خدمة الشعر وتقدير أعلامه .

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٩	٧	الأوئل	الأوائل
٣٢٣	١	اثنى عشر	اثنا عشر
٣٢٣	٢٣	المكال	الكامل
٣٢٩	٨	أن	كأن
٣٣٧	١٢	رباں	ريان
٣٤٠	٢٧	زئبرآ	زئيرآ
٣٤١	٢٢	للميك	للمليك
٣٨٣	٢٠	متى	منّى
٣٩٢	٢	يفكون	يفكونه
٤١٠	١٨	وبطوالع	وبتطويع
٤١٥	١٠	جاء	جاد
٤٣٣	٢٥	البغصاء	البغضاء
٤٣٦	٢	معجزت	معجزات

وربما فاتتنا أخطاء أخرى ومعظمها مما يسهل تقديره وادراكه ، ولكننا على أى حال نرحّب دائما بمعاونة الادباء وحرصهم على الدقّة فى صفحات هذه المجلة .